الجزء الرابع المجلد الثالث والثمانون

مجلّة مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلّة المجمع العلمي العربي سابقًا »

مجلة محكّمة فصلية

شوال ١٤٢٩هـ
تشرين الأول ٢٠٠٨م

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

مجلة المجمع العلمي العربي سابقًا

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١م

المدير المسؤول: الأستاذ الدكتور شاكر الفحام، رئيس المجمع

لجنة المجلة

الدكتور محمد إحسان النص　　الدكتور عبد الله واثق شهيد

الدكتور محمد زهير البابا　　الأستاذ جورج صدّقني

الدكتورة ليلى الصباغ　　الدكتور محمد مكي الحسني الجزائري

الدكتور محمود السيد

أمين المجلة: الأستاذ محمود الحسن

أغراض المجلة:

إن أغراض المجلة مستمدة من أغراض المجمع الواردة في قانونه ولائحته الداخلية، وأبرزها: المحافظة على سلامة اللغة العربية، وجعلها وافية بمطالب الآداب والعلوم والفنون، وملائمةً لحاجات الحياة المتطورة، ووضع المصطلحات العلمية والتقنية والأدبية والحضارية، ودراستها وفق منهج محدد، والسعي لتوحيدها في الأقطار العربية كافة.

خطة المجلة وشروط النشر فيها:

- تنشر المجلة البحوث والمقالات التي ترد إليها بعد أن تخضع للتقويم.
- يفضل ألا يقلَّ البحث أو المقالة عن عشر صفحات وألاَّ يزيد على ثلاثين صفحة من صفحات المجلة، وعدد الكلمات في الصفحة الواحدة لا يزيد عن (٢٥٠) كلمة.
- ترتيب البحوث والمقالات يخضع لاعتبارات فنية.
- ينبغي أن تكون البحوث والمقالات المرسلة إلى المجلة منضدة، ويفضل أن تشفع بقرص حاسوبي ليزري مسجلة عليه، أو مرسلة بالبريد الإلكتروني.
- البحوث والمقالات التي لا تُنشر لا تردّ إلى أصحابِها.
- يرسل الكاتب الذي لم يسبق له الكتابة في المجلة، مع بحثه أو مقالته، سيرته الذاتية العلمية وعنوانه.
- تُعطى الحواشي أرقامًا متسلسلة من بداية البحث حتى نهايته. وتذكر حواشي كل صفحة في أسفلها.
- توضع الكلمات العربية (أو المعربة) قبل مقابلها الأجنبي عند ورودها أول مرة، نحو: تِقانة (Technology)، حاسوب (Computer)، نفسية (Psychologic).
- من الضروري أن يعتني الكاتب بعلامات الترقيم: النقطة، الفاصلة، إلخ....
- ترسل البحوث والمقالات إلى المجلة على العنوان:

العنوان البريدي: دمشق ص.ب ٣٢٧

البريد الإلكتروني: E- mail: mla@net. sy

إبداع الجاحظ في كتاب البخلاء

د: إحسان النص(*)

كتاب (البخلاء) للجاحظ عمرو بن بحر (١٥٩ - ٢٥٥هـ) من أمتع كتب الجاحظ، بل هو أمتع كتاب في وصف البخل والبخلاء في جميع آداب الأمم. وقد ألّفه الجاحظ استجابة لطلب أحد أصحابه، ولم يذكر لنا اسمه، وكان من عادة الجاحظ تأليف كتب في طوائف من الناس، منها مثلاً كتاب في أخبار المعلمين ونوادرهم، وكتاب في حيل اللصوص.

ولم تكن غاية الجاحظ من تأليفه هذا الكتاب التعريض بطائفة من خصومه، آية ذلك أنه تحدث عن بخل جماعة من أصحابه المعتزلة، منهم على الأسواري وأبو الهُذيل العلاّف. ولم تكن غايته اجتماعية أخلاقية وهي التنفير من البخل والحض على الكرم وتصوير مجتمع الجاحظ إنما يستخلص مما ورد في الكتاب عرضًا وإنما كان هدفه من تأليف كتابه هذا فنيًّا محضًا، وهو إمتاع قُرّائه. وهو بطبيعته ميّال إلى الدعابة والظرف، وإلى مزج الجدّ بالهزل. وقد بيّن لنا غايته من تأليفه كتابه هذا في مقدمة الكتاب، قال: (وذكرت، حفظك الله، أنك قرأت كتابي في تصنيف حيل لصوص النهار، وفي تفصيل سُرّاق الليل، وأنك سددت به كل خلل، وحصّنت به كل عورة. وتقدمت - بما أفادك من لطائف الخُدع، ونبّهك عليه من غرائب الحيل - فيما عسى ألاّ

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

يبلغه كيد، ولا يجوزه مكر. وذكرت أن قدر نفعه عظيم، وأن التقدم في درسه واجب. وقلتَ: اذكر لي نوادر البخلاء، واحتجاج الأشحّاء، وما يجوز من ذلك في باب الهزل، وما يجوز منه في غياب الجدّ، لأجعل الهزل مستراحًا، والرّاحة جمامًا. فإن للجدّ كَدًّا يمنع من معاودته، ولا بدّ لمن التمس نفعه من مراجعته. وذكرتَ مُلح الحزامي، واحتجاج الكنديّ، ورسالة سهل بن هارون، وكلام ابن غزوان، وخطبة الحارثي، وكلّ ما حضرني من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم، ولِمَ سَمّوا البخل إصلاحًا، والشُّحَّ اقتصادًا، ولِمَ حامَوا عن المنع، ونسبوه إلى الحزم، إلخ..) ثم يقول: (ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء تَبَيُّن حجة طريفة، أو تعرّف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة، وأنت في ضحك منه إذا شئت، وفي لهو إذا مللت الجد).

ويقول في المقدمة أيضًا: (لأن هاهنا أحاديث كثيرة متى أطلعنا منها حرفًا عُرف أصحابها، وإن لم نسمّهم، ولم نرد ذلك بهم. وسواء سمّيناهم، أو ذكرنا ما يدلّ على أسمائهم، منهم الصديق، والوليّ، والمستور، والمتجمل، وليس يفي حسن الفائدة لكم، بقبح الجناية عليهم. فهذا باب يسقط البتّة، ويختلّ به الكتاب لا محالة، وهو أكثرها بابًا، وأعجبها منك موقعًا. وأحاديث أُخر ليس لها شهرة، ولو شُهرت ما كان فيها دليل على أربابها، ولا هي مقيدة أصحابها، وليس يتوفر أبدًا حسنها، إلاّ بأن يعرف أهلها... وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافة إلى أربابها، وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها، إمّا بالخوف منهم، وإما بالإكرام لهم).

فالجاحظ يرى أن ذكر اسم البخيل يجعل النادرة أوقع في النفس، لاتصالها بالواقع.

ولحرص الجاحظ على الطابع الواقعي فإن الأخبار والنوادر التي أوردها في كتابه مستمدة كلها من الواقع الذي شهده أو سمع به، وليست من صنع الخيال. فكتاب الجاحظ يصور واقع مجتمعه، وليس فيه إلا ما يمكن حدوثه، دون تزيّد أو غلوّ، إلا ما يتطلبه العرض الفنّي والرغبة في الإمتاع. أما الأحاديث التي لا يمكن وقوعها أو التي تجنح إلى التزيّد والغلوّ، فلم يعرض لها. وقد وضّح مذهبه هذا بعد أن أورد خبر بخيل مسرف في البخل، كان الدرهم إذا دخل كيسه لم يخرج منه بعد ذلك، فلمّا مات وظنَّ أهله أنهم قد استراحوا منه، قدم ابنه، فاستولى على ماله وداره ثم قال لأهله: ما كان أدم أبي؟ فإن أكثر الفساد إنما يكون في الإدام، فقالوا: كان يتأدم بجبنة عنده. قال أرونيها. فإذا فيها حزّ كالجدول من أثر مسح اللقمة. قال: ما هذه الحفرة؟ قالوا: كان لا يقطع الجبن، وإنما كان يمسح على ظهره، فيحفر كما ترى. قال: فهذا أهلكني، وبهذا أقعدني هذا المقعد، ولو علمت ذلك ما صلّيت عليه. قالوا: فأنت كيف تريد أن تصنع؟ قال: أضعها من بعيد، فأُشير إليها باللقمة.

يعلّق الجاحظ على هذه القصة فيقول: ولا يعجبني هذا الحرف الأخير، لأن الإفراط لا غاية له، وإنما نحكي ما كان في الناس، وما يجوز أن يكون فيهم مثله، أو حجة أو طريقة. فأما مثل هذا الحرف فليس مما نذكره.[1]

فالجاحظ لا يذكر إلاّ ما وقع أو ما يمكن وقوعه، ولا يجنح إلى اختراع قصص لا يصح أن تحدث في الواقع، ولا يعمد إلى تخيّل بخلاء لا يمتون إلى واقع الحياة، وهو بهذا النهج يخالف مؤلفي قصص البخلاء الذين اخترعوا بخلاء يتجاوز بخلهم ما يمكن وقوعه صنيع الأديب الفرنسي موليير Molière

(١) البخلاء ص ١١٩.

في مسرحية (البخيل)، فشخصية البخيل أرباغون harpagon التي اخترعها لا تمتّ إلى الواقع بصلة.

ومن هذا القبيل أيضًا رواية (أوجيني غرانده) Eugénie grandet لبلزاك balzac فشخصية البخيل فيها بعيدة عن الحياة والواقع.

تحدث الجاحظ في كتابه هذا عن طوائف من البخلاء، وبدأه برسالة الكاتب سهل بن هارون إلى بني زياد حين ذمّوا مذهبه في البخل، ثم أفرد بابًا لأهل خراسان، ولأهل مرو خاصة، لما عُرفوا به من البخل، حتى جعل ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها، وجعل البخل طبعًا في صغارهم وكبارهم.

ومن أطرف أخبار بخلاء مرو قصة المروزي والعراقي. قال الجاحظ: (ومن أعاجيب أهل مرو ما سمعناه من مشيختنا على وجه الدهر، وذلك أن رجلاً من أهل مرو كان لا يزال يحجّ ويتّجر، وينزل على رجل من أهل العراق، فيكرمه ويكفيه مؤنته. ثم كان كثيرًا ما يقول لذلك العراقي: ليت أني قد رأيتك بمرو حتى أكافئك لقديم إحسانك، وما تجدد لي في كل قدمة. فأما هاهنا فقد أغناك الله عني. قال: فعرضت لذلك العراقي بعد دهر طويل حاجة في تلك الناحية فكان مما هوّن عليه مكابدة السفر، ووحشة الاغتراب، مكان المروزي هنالك. فلّما قدم مضى نحوه في ثياب سفره، وفي عمامته وقَلنسوته وكسائه، ليحطّ رحله عنده، كما يصنع الرجل بثقته وموضع أنسه. فلّما وجده قاعدًا في أصحابه أكبّ عليه وعانقه، فلم يره أثبته، ولا سأل به سؤال من رآه قط. قال العراقي في نفسه: لعل إنكاره إيّاي لمكان القناع، فرمى بقناعه، وابتدأ مساءلته، فكان له أنكر. فقال لعله أن يكون إنما أُتي من قبل العمامة، فنزعها ثم انتسب، وجدَد مساءلته، فوجده أشد ما كان إنكارًا. قال: فلعله إنما أُتي

من قبل القلنسوة. وعلم المروزي أنه لم يبق شيء يتعلّق به المتغافل والمتجاهل، فقال: لو خرجت من جلدك لم أعرفك[٢].

ولما فرغ من أخبار البخلاء من أهل خراسان، عقد بابًا للمسجديين من أهل البصرة، وكانت جماعة من الناس تجتمع في مسجد البصرة، (وهم ممن ينتحل الاقتصاد في النفقة، والتثمير للمال، من أصحاب الجمع والمنع. وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذي يجمع على التحابّ، وكالحلف الذي يجمع على التناصر. وكانوا إذا التقوا في حلقتهم تذاكروا هذا الباب، وتطارحوه وتدارسوه التماسًا للفائدة. واستمتاعًا بذكره) [٣].

ثم أخذ الجاحظ يروي ما ابتكره هؤلاء من أساليب للاقتصاد في النفقة، ومن طريف هذه القصص خبر مُعاذة العنبرية.

اندفع شيخ منهم – أي من المسجديين – فقال: لم أر في وضع الأمور مواضعها، وفي توفيتها غاية حقوقها، كمعاذة العنبرية. قالوا: وما شأن معاذة هذه؟ قال: أهدى إليها العام ابنُ عم لها أُضحيّة، فرأيتُها كئيبة حزينة، مفكّرة مُطرقة. فقلت لها: ما لك يا معاذة؟ قالت: أنا امرأة أرملة، وليس لي قَيِّم، ولا عهد لي بتدبير لحم الأضاحي. وقد ذهب الذين كانوا يدبّرونه ويقومون بحقّه، وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة، ولست أعرف وضع جميع أجزائها في أماكنها، وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا في غيرها شيئًا لا منفعة فيه، ولكن المرء يعجز لا محالة، ولست أخاف من تضييع القليل، إلا أنه يجرّ تضييع الكثير.

(٢) البخلاء ص ١٧.

(٣) نفسه ص ٢٤.

أما القَرن فالوجه فيه معروف، وهو أن يُجعل منه كالخُطّاف، ويُسَمَّر في جذع من أجذاع السقف، فيعلّق عليه الزّبل والكيران[٤]، وكل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنات وردان[٥]، والحيّات وغير ذلك. وأما المِصران فإنه لأوتار المندفة، وبنا إلى ذلك أعظم الحاجة. وأما قحف الرأس واللَّحيان وسائر العظام فسبيله أن يُكسر بعد أن يُعرق، ثم يطبخ، فما ارتفع من الدّسم كان للمصباح وللإدام وللعصيدة ولغير ذلك. ثم تُؤخذ تلك العظام فيوقَد بها، فلم ير الناس وقودًا قط أصفى ولا أحسن لهبًا منه، وإذا كانت كذلك فهي أسرع في القدر، لقلة ما يخالطها من الدخان. وأما الإهاب فالجلد نفسه جراب، وللصوف وجوه لا تُعدّ. وأمّا الفَرْث والبعر فحطب إذا جُفف عجيب.

ثم قالت: بقي علينا الآن الانتفاع بالدم. وقد علمت أن الله تعالى، عز وجلَّ لم يحرّم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه، وأنّ له مواضع يجوز فيها ولا يُمنَع منها. وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به صار كيَّةً في قلبي وقذىً في عيني وهَمًّا لا يزال يعودني.

قال: فلم ألبث أن رأيتها قد تطلّقت وتبسّمت. فقلت: ينبغي أن يكون قد انفتح لك باب الرأي في الدم. قالت: أجل، ذكرتُ أن عندي قدورًا شاميّة جُددًا، وقد زعموا أنه ليس شيء أدبغ ولا أزيد في قوتها من التلطيخ بالدم الحار الدسم. وقد استرحتُ الآن إذ وقع كلّ شيء موقعه.

(٤) الزبل جمع زَبيل: الجراب والقفة. الكيران جمع كير: الزقّ.

(٥) بنت وردان: دويبّة كريهة الرائحة.

قال: ثم لقيتها بعد ستة أشهر، فقلت لها: كيف كان قديد تلك؟ قالت: بأبي أنت، لم يجئ وقت القديد بعدُ، لنا في الشحم والأُلية والجُنوب والعظم المعرَق وفي غير ذلك معاش، ولكل شيء إبّان.

(فقبض أحد الحاضرين) قبضة من حصى، ثم ضرب بها الأرض، ثم قال: لا تعلم أنك من المسرفين حتى تسمع بأخبار الصالحين). (٦)

وبعد أن فرغ الجاحظ من قصص المسجديين اختار جماعة من البخلاء المشهورين، فكسر لكل منهم بابًا، منهم أحمد بن خلف اليزيدي، وهو من أصدقاء الجاحظ، وكان من الموسرين ولكنه كان مع ذلك بخيلاً. فروى الجاحظ جانبًا من أخبار بخله، ثم ختم حديثه عنه بقوله: «ولا تقولوا الآن قد والله أساء أبو عثمان إلى صديقه، بل ما تناوله بالسّوء حتى بدأ بنفسه، ومتى كانت هذه صفته، وهذا مذهبه، فغير مأمون على جليسه، وأيّ الرجال المهذّب، هذا والله الشُّنوع والتُّبوع والبذاء وقلة الوفاء.

اعلموا أني لم ألتمس بهذه الأحاديث عنه إلا موافقته وطلب رضاه ومحبته. ولقد خفت أن أكون عند كثير من الناس دَسيسًا من قبله، وكمينًا من كمنائه، وذلك أن أحب الأصحاب إليه أبلغُهم قولاً في إيئاس الناس ممّا قبلَه، وأجودهم حسمًا لأسباب الطمع في ماله. على أني إن أحسنت بجُهدي، فسيجعل شكري موقوفًا، فإن جاوز كتابي هذا العراقَ شكر، وإلاّ أمسك»(٧). فالجاحظ يرى أن تشهيره ببخل صديقه أحمد بن خلف لا يسيء إليه، بل

(٦) البخلاء ص ٢٦.

(٧) البخلاء ص ٣٤.

على النقيض فإن حديثه عن بخله يبعد عنه الناس الطامعين في طعامه، فهو لذلك يستوجب شكره.

ولما فرغ من حديث ابن خلف انتقل إلى الحديث عن خالد بن يزيد، مولى المهالبة، وهو خالويه المكدّي. وكان مع ثروته العظيمة مفرطًا في البخل. فلمّا دنت منيّته أوصى ابنه بالحرص والبخل، فلمّا مات جاء ابنه أبخل منه.

وفي حديث خالويه وردت ألفاظ تطلق على أنواع اللصوص، ومنها: المكدّي والكاجار والكاغاني والعوّاء والأسطيل والمزيدي والمستعرض(٨). وورود هذه الألفاظ وغيرها من أسماء الرياحين والملابس والأدوية والمأكولات يطلعنا على ما لكتاب البخلاء من شأن في إغناء اللغة العربية بألفاظ جديدة ومصطلحات كانت شائعة في عصره. (ص ٣٩).

وفي الكتاب أخبار متناثرة حول بخلاء عرفهم الجاحظ وحضر موائدهم، فهم كانوا على ثرائهم بخلاء، وإنما يدعون الناس إلى موائدهم لإعلاء مكانتهم. ويرى الجاحظ أن الوصف لا يفي بالغرض، والمشاهدة العيانية هي التي لها أثرها في النفس، ووضح هذا في ختام حديثه عن أحد البخلاء بقوله:

(٨) المكدّي: مصطلح يطلق على من يحتال على كسب رزقه بشتى الوسائل غير المشروعة. وقد شرح الأستاذ طه الحاجري دلالات أسماء اللصوص في ملحق الكتاب، فكلمة كاجار تطلق على بعض القبائل التركية الرحالة، وكلمة (غجر) صورة منها. والمستعرض: من يستعرض الناس طلبًا لما عندهم. والكاغاني: الذي يتجنن ويتفالج قصد استعطاء الناس إلخ...

«وهذا وشبهه إنما يطيب جدًا إذا رأيت الحكاية بعينك، لأن الكتاب لا يصوّر لك كل شيء، ولا يأتي على كنهه وعلى حدوده وحقائقه»[٩].

ومن البخلاء الذين تحدث عنهم أبو محمد الخزامي، كاتب مويس بن عمران، «فإنه كان أبخل من برأ الله»، وحين اعترض الجاحظ على بخله، وعجب من إطلاق الناس لفظ البخيل عليه أجاب بقوله: «لا أعدمني الله هذا الاسم، لأنه لا يُقال فلان بخيل إلا وهو ذو مال، فسلّم إليّ المال وادعُني بأي اسم شئت» ويصف الجاحظ بخله بقوله: «أما الأخذ فهو ضالته وأمنيته، وإنه لو أُعطي أفاعي سجستان، وثعابين مصر، وحَيّات الأهواز لأخذها»[١٠].

ومن بخلائه: الحارثي ويعقوب بن إسحاق الكندي – وهو على ما رجحه الحاجري غير الكندي الفيلسوف، وقصة الكندي من أطرف ما اشتمل عليه كتاب البخلاء ومن حديثه عنه قوله: «كان الكندي لا يزال يقول للساكن، وربما قال للجار: إن في الدار امرأة بها حمل، والوُحمى ربما أسقطت من ريح القدر الطيبة، فإذا طبختم فردّوا شهوتها ولو بغرفة أو لعقة، فإن النفس يردّها اليسير، فإن لم تفعل ذلك بعد إعلامي إياك، فكفّارتها إن أسقطت غُرّة: عبد أو أمة، ألزمت ذلك نفسك أم أبيت. قال: فكان ربما يوافي إلى منزله من قصاع السُكّان والجيران ما يكفيه الأيام[١١].

(٩) البخلاء ص ٥١.

(١٠) نفسه ص ٥٥.

(١١) البخلاء ص ٧٠.

وكان يفرض على سكان داره شروطًا منها: أن يكون له روث الدابّة وبعر الشاة، ونشوار العلوفة، وألاّ يلقوا عظمًا، ولا يخرجوا كُساحة، وأن يكون له نوى التمر، وقشور الرمّان، والغَرفة من كل قدر تطبخ للحبلى في بيته. وكان في ذلك يتنزّل عليهم، فكانوا لطيبه وإفراط بخله، وحسن حديثه يحتملون ذلك.

قال معبد: فبينا أنا كذلك، إذ قدم ابن عمّ لي ومعه ابن له، وإذ رقعةٌ منه قد جاءتني: «إن كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين، احتملنا ذلك، وإن كان إطماع السُكّان في الليلة الواحدة يجرّ علينا الطمع في الليالي الكثيرة». فكتبت إليه: «ليس مقامهما عندنا إلا شهرًا أو نحوه». فكتب إليّ: «إن دارك بثلاثين درهمًا، وأنتم ستة، لكل رأس خمسة، فإذ قد زدت رجلين. فلا بدّ من زيادة خمستين، فالدار عليك من يومك هذا بأربعين». فكتبت إليه: «وما يضرّك من مقامهما؟، وثقل أبدانهما على الأرض التي تحمل الجبال، وثقل مؤنتهما عليّ دونك؟» فكتبت إليّ ... «الخصال التي تدعو إلى ذلك كثيرة، وهي قائمة معروفة. من ذلك: سرعة امتلاء البالوعة، وما في تنقيتها من شدّة المؤنة. ومن ذلك أن الأقدام إذا كثرت كثر المشي على ظهور السطوح المطيّنة، وعلى أرض البيوت المجصّصة، والصعود على الدُّرج الكثيرة، فينقشر لذلك الطين، وينقلع الجِصّ، وينكسر العَتب، مع انثناء الأجذاع لكثرة الوطء، وتكسّرها لفرط الثقل. وإذا كثر الدخول والخروج والفتح والإغلاق والإقفال وجذبُ الأقفال، تهشمت الأبواب، وتقلعت الرزّات. إلخ...».

ويمضي بعد ذلك الكندي في بيان ما يطرأ على المنزل من ضرر لزيادة عدد السكان، ويطيل في ذلك فلا يدع شيئًا مما يطرأ على الدار إلا ذكره. وفي قصته بعد ذلك كلام طويل في الدفاع عن البخل وإطراء الغنى والاقتصاد(١٢).

إن أبرز ما يلفت النظر في كتاب البخلاء إبداعه في وصف هيئات البخلاء وحركاتهم لدى تناول الطعام، فكأنه آلة مصوّرة تنقل صور شخصياته بدقة عجيبة تجعلنا نتصور هيئة البخيل أمامنا، وليس ثمة من يضارع الجاحظ في وصف هيئات الأشخاص الذين يتحدث عنهم، اسمعه يصف عليًّا الأسواري حين يأكل – وهو من أصدقائه المعتزلة – يقول (على لسان الحارثي) «كان إذا أكل ذهب عقله، وجحظت عينه، وسكر، وسدر، وانبهر، وتربّد وجهه، وعصب، ولم يسمع، ولم يبصر. فلما رأيت ما يعتريه وما يعتري الطعام منه، صرت لا آذن له إلا ونحن نأكل التمر والجوز والباقلّى (الفول)، ولم يفجأني قط وأنا آكل تمرًا إلا استفّه سفًّا، وحساه حسوًا، وزدا به زَدوًا، ولا وجده كنيزًا إلا تناول القطعة كجُمجمة الثور، ثم يأخذ بحضنيها ويقلها من الأرض، ثم لا يزال ينهشها طولاً وعرضًا، ورفعًا وخفضًا، حتى يأتي عليها جميعًا إلخ»(١٣).

ولا يقف وصف الأشخاص لدى الجاحظ عند الهيئة الظاهرة بل يتجاوزها إلى وصف دخائل النفوس، وذلك من طريق ملاحظة الهنات التي تبدو من البخيل، ولا سيما حين يتظاهر بالكرم، فيدعو الناس إلى طعامه، فهو يستخلص من هذه الهنات ومن حركات البخيل ما يدل على دخائل نفوسهم،

(١٢) البخلاء ص ٧٠.

(١٣) نفسه ص ٦٩.

ولكنه لا يتحدث عن هذه الدخائل، وإنما يترك للقارئ استخلاصها من خلال الهنات التي تبدو منه والحركات الظاهرة التي تنبئ بما يختفي وراءها. ولو جهد البخيل في إخفاء بخله، فإن حركاته اللاشعورية تنم عن دخيلة نفسه.

وكتاب البخلاء إلى ذلك – معرض لسخرية الجاحظ، السافرة تارة والخفية تارة أخرى، ولا يجاري الجاحظ في فن السخر أحد من أدبائنا القدامى. على أن سخريته في هذا الكتاب ليس مصدرها الحقد أو الرغبة في الانتقام، وإنما هي سخرية ضاحكة نابعة من نفسه المرحة الميالة إلى الظرف والدعابة، ولا تظهر سخريته الحاقدة إلا في رسالة (التربيع والتدوير) التي وجهها إلى الكاتب أحمد بن عبد الوهاب، وكانت بينهما – على ما أرجح – خصومة شخصية.

وكتاب البخلاء ليس وقفًا كله على قصص البخلاء، فقد أفرد الجاحظ فيه بابًا للأطعمة المعروفة لعهده، ومن مميزات هذا الكتاب أننا نجد فيه ألفاظًا كثيرة جدًّا لأنواع الأطعمة والملابس والرياحين والأدوية والآلات، وهذه الألفاظ تعد إضافة غنية للغة العربية لأن أكثرها غير مذكور في معاجم اللغة، وفي الكتاب ألفاظ كثيرة لأنواع اللصوص والصعاليك والسُرّاق كانت معروفة في زمنه.

المدرِّس إعدادًا وتأهيلاً

د. محمود السيد(*)

نحاول في هذا البحث الموجز أن نتعرف طبيعة العصر الذي نحيا فيه والتحديات التي نواجهها فيه، وأن نتعرف أيضًا بعضًا من التحديات التي تواجه التعليم العالي العربي، وبعضًا من السمات التي ينبغي للتربية العربية أن تتسم بها لمواجهة التحديات، ودور التعليم العالي في مواجهتها، ومن ثَمَّ تبيان جودة التعليم العالي وواقع إعداد المدرسين فيه، ومستلزمات إعداد المدرس وتأهيله بصورة عامة، للإسهام في تقدم المجتمع ومواجهة التحديات التي يتعرض لها، ونقف وقفة مستأنية على إعداد المدرس للتدريس بالعربية، وعلى خطة العمل الوطنية للتمكين للغة العربية والحفاظ عليها والاهتمام بإتقانها والارتقاء بها، والإجراءات المتخذة في ضوئها في وزارتي التربية والتعليم العالي.

أولاً: تحديات العصر

يتسم العصر الذي نحيا فيه بسمات متعددة، منها أنه عصر العلم والتقانة والاتصالات وثورة المعلوماتية، وغزو الفضاء واقتحام المحيطات وسبر أغوارها، وهو عصر التفجر المعرفي والتفجر السكاني... إلخ.

ويبرز في هذا العصر عدد من التحديات، منها التحدي الصهيوني والجانب المتوحش من العولمة، وسيطرة منطق حق القوة لا قوة الحق، إذ يهيمن الأقوياء على الضعفاء هيمنة اقتصادية وثقافية وسياسية، وباتت شريعة الغاب

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

هي السائدة على الصعيد العالمي.

ومن تحديات هذا العصر أيضًا تلوث البيئة وجور الإنسان عليها، وتزايد موجات العنف، وانحسار القيم المعنوية وتفاقم الاجتياح المادي وسيرورة قيم الاستهلاك، وارتفاع نسبة من يتعاطون المخدرات.

يُضاف إلى ذلك كله الهيمنة الثقافية ذات القطبية الأحادية في ظلال العولمة، وارتفاع نسبة الأمية على الصعيد العالمي، وانهيار الأوضاع الصحية.

وإذا كانت هذه التحديات عالمية، فإن ثمة تحديات أُخر تضاف إليها وتواجهها منطقتنا العربية تتمثل في الاحتلال الأمريكي للعراق، واستمرار الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، ورفضه إقامة الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس الشريف وعودة اللاجئين إلى فلسطين، ومحاولات أعدائنا في تمزيق أواصر أمتنا بطريق الانقسامات الداخلية والصراعات العرقية والمذهبية والطائفية، وهذا الأمر أدى إلى موجات من العنف والتعصب الأعمى، رافق ذلك استمرار للصراعات العربية العربية، وخلخلة للانتماء القومي، حتى بات القابض على عروبته كالقابض على الجمر، وازداد نزف العقول من الوطن العربي وتفاقمت البطالة، وتزايدت الأمية حتى إن عددها وصل إلى مئة مليون أُميّ ونحن في العقد الأول من الألفية الثالثة، بحيث أن ثلث سكان الوطن العربي من الأميين، وتزايدت أحزمة الفقر والمناطق العشوائية ومدن الصفيح ومناطق الظل في بعض العواصم العربية.

وفي مجال التعليم العالي أشار الإعلان العالمي للتعليم العالي للقرن الحادي والعشرين الصادر عن اليونسكو، إلى عدد من التحديات التي يواجهها هذا التعليم تتمثل في اضطراب المعايير في شروط الانتساب إلى التخصصات في التعليم

العالي، وانخفاض الجودة ومستوى الخريجين في الأعم الأغلب، وانخفاض ظروف العاملين في التعليم العالي، والقصور في ملاءمة البرامج لخطط التنمية وضعف البحث العلمي، وبطالة الخريجين، وضعف التمويل... إلخ.

ثانيًا: التربية العربية المرجوة لمواجهة التحديات

إن مواجهة التحديات المشار إليها على الصعيدين العالمي والعربي تستلزم تربية ذهنية جديدة، تعمل على أن تكون التربية العربية المنشودة متسمة بالتغيرية والتجديد المستمر لا تربية تدويمية راكدة، وتربية إبداعية لا تقليدية نمطية، وحوارية لا تلقينية، ومنفتحة لا منغلقة، ومستعملةً التقانة وموظفة لها في العملية التعليمية التعلمية، لا مقتصرة على أن تكون يدوية، وديمقراطية في جميع مناحيها لا تسلطية، وعلمية ناقدة لا تربية نقل وتسليم وإذعان، وتعاونية تعتمد فريق العمل لا فردية، ومنظومية تنظر إلى الأمور والمشكلات نظرة شاملة لا نظرة جزئية ضيقة ومحدودة.

ومن الأمور التي لابد من التركيز عليها في تربيتنا العربية لمواجهة التحديات الانتقال من التعليم إلى التعلم وتزويد المتعلم بالمهارات التي تساعده على أن يفكر ويبحث وينقب عن المعلومات، ويعمل على توظيفها، لا أن تُقدَّم إليه دون أن يكدَّ ذهنه في البحث عنها، وتزويده بمهارات التعلم الذاتي التي تساعده على مواصلة التعلم مدى الحياة، على أن يرافق ذلك كله تعميق للانتماء، إذ إن الإحساس العالي بالانتماء القومي في ظلال العولمة يجيء في مقدمة منظومة القيم، وإذا فتر هذا الانتماء أو ضعف، يتحلل الإنسان من قيمه ويتخلى عن كثير من دعائم إنسانيته، إلى جانب تخليه عن قوميته، والتحلل من الانتماء سلسلة متى بدأت تلاحقت تأثيراتها ومضاعفاتها، والنتيجة واحدة هي أن يخسر الإنسان نفسه، وتخسر الأمة هويتها. ومن هنا كان عمق الانتماء يذلل الصعاب، ويدفع إلى دعم مسيرة التعريب

والدفاع عنها، وتقديم كل الإمكانات لتجاوز العقبات التي تحول دون نجاحها، ويعزز الجمع بين الأصالة والمعاصرة في انطلاق أمتنا.

ويقوم التعليم العالي بدور فعّال في مواجهة التحديات التي تتعرض لها أمتنا، وذلك بطريق إعداده أُطرًا كَفِيَّةً ذات مهارات عالية تُسهم في تقدم المجتمع وتنميته، وتزويد الدارسين بمهارات التعلم الذاتي، وتطوير المعارف ونشرها بطريق البحوث العلمية، وتزويد الدارسين بالكفايات التي تساعدهم على إتقان تخصصهم من جهة، وفهم الثقافة الوطنية والإقليمية والدولية من جهة أخرى، والمساعدة على حماية القيم الاجتماعية وتعزيزها، والإسهام في تطوير التعليم وتحسين مضمونه، والحرص على جودته.

«وتتمثل جودة التعليم العالي في جودة مستوى العاملين فيه علميًّا وخلقيًّا، وتوفير الحوافز والتدريب المستمر للعاملين وتشجيع الباحثين، كما تتجلى جودة التعليم العالي في جودة المناهج بمفهومها الشامل، وجودة الطلبة باعتماد مبدأ الجدارة، وجودة البيئة الأكاديمية الداخلية والخارجية، وفي إشاعة ثقافتي التقويم والتطوير داخل مؤسسات التعليم العالي، وإشاعة ثقافة الاستقلال الذاتي وتحمل المسؤولية والخضوع للمساءَلة»[(١)].

ثالثًا: إعداد المدرس وتأهيله

يُعد المدرس قطب الرحى في العملية التربوية، وإليه يرجع الفضل في نجاحها غالبًا، أو يرجع إليه السبب في إخفاقها في الأعم الأغلب، إذ مهما تكن المناهج مبنية على أسس علمية فإنها لا تحقق أغراضها إلا إذا كان يقوم

(١) المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» – الإعلان العالمي للتعليم العالي للقرن الحادي والعشرين – باريس – ١٩٩٨ ص٣.

بتطبيقها مدرس كفيّ، ويمكن أن يرمم المدرس إذا كان كفيًا ومتمكنًا بعض الثغرات في المناهج حتى لو لم تكن مبنية على أسس علمية واضحة.

كما أن المدرس لا يدرّس بمادته فقط، وإنما بشخصيته وبمدى تعامله مع طلبته، وما يقدِّمه لهم من قدوة حسنة ومثَل أعلى. وكم من مدرس جذب الطلبة إلى محبة مادته، وكانوا متعلقين بها من خلال تعلقهم به! وكم من مدرس نفّر الطلبة من مادته بسبب سوء معاملته وفظاظته وضعفه!

ولقد تغيرت الأدوار المرسومة للمدرس في عالمنا المعاصر، فلم يعد دوره مقتصرًا على نقل المعرفة والخبرة إلى طلابه، وإنما أصبح إضافةً إلى ذلك موجهًا ومرشدًا اجتماعيًا ونفسيًا ومشجعًا ومعززًا وباحثًا ومغنيًا البيئة التعليمية التعلمية بمصادر المعرفة(٢).

وثمة ملاحظات على واقع إعداد المدرس تتمثل في أن مدخلات الكليات أحيانًا ليست مختارة على أسس علمية ومعايير موضوعية، إذ إن أسلوب الانتقاء وشروط القبول وحوافز الالتحاق لابد من أن تكون على أساس الاستعداد والرغبة بغية اجتذاب أفضل العناصر.

كما أن المخْرَجات ليست من النوع المرغوب فيه، ويحتِّم هذا إعادة النظر في نظم التقويم السائدة.

ومن الملاحظات أيضًا أن هنالك قصورًا في خطة الإعداد والتدريب وافتقارًا إلى الوظيفية في محتويات بعض المواد، وضعفًا في الاهتمام بالجوانب الثقافية الملائمة لروح العصر من مثل «التربية المجتمعية، التربية على المواطنة، التربية البيئية

(٢) الدكتور محمود السيد – في قضايا التربية المعاصرة — دار الندوة للدراسات والنشر دمشق، ١٩٩٢، ص ١٦٣.

والسكانية، المعلوماتية، مهارات التواصل، اللغات... إلخ»، كما أن هنالك غلبة للطابع النظري في بعض المواد وافتقارها إلى التطبيق، وأن ثمة نمطية في أساليب التدريس وطرائقه، وقصورًا في استعمال تقنيات التعليم والتعلم، وقصورًا في أساليب التقويم المتبعة.

إن إعداد المدرس وتأهيله يستلزمان:

- تمكنًا من المادة.
- تمكنًا من مهارات التواصل باللغتين العربية والأجنبية.
- تمكنًا من استثارة الدافعية لدى طلابه.
- تكاملاً معرفيًّا في تكوينه.
- تمثلاً للمنهج التربوي بمفهومه المنظومي الشمولي المتكامل «المنهج نظام ***System***».
- مرونة في اختيار الطرائق والأساليب في ضوء الأجواء والمستويات.
- ربطًا للمعارف النظرية بالعملية.
- تركيزًا على الجوانب التطبيقية.
- تركيزًا على كيفية التعلم وتعليم الطالب كيف يتعلم.
- تركيزًا على التعلم التعاوني وفريق العمل في إنجاز المشروعات.
- استعمالاً لأساليب التشجيع والتعزيز في التعامل مع الطلبة.
- قدرة على استعمال تقنيات التعليم الإلكترونية والمعلومات والاتصال، وتوظيفها لمصلحة العملية التعليمية التعلمية «الحاسوب، الشابكة، مخابر العلوم المتطورة... إلخ».
- قدرة على التمييز بين المعارف الجيدة والفاسدة مما تنشره الشابكة «الإنترنت».

– قدرة على فهم نفسية طلابه وتعرف حاجاتهم وميولهم واهتماماتهم.

– امتلاكًا لمهارات التعلم الذاتي، الذي هو أساس للتعلم المستمر مدى الحياة، وإذا كان أرقى أنواع التعلم أن يتعلم الطالب كيف يتعلم بإرشاده إلى أساليب التعلم الذاتي فإن أرقى أنواع التنمية المهنية للمدرس أن يتعلم كيف ينمي نفسه ويطور أداءه وكيف يحل مشكلاته المهنية.

– قدرة على استعمال أساليب تقويم متنوعة ومتعددة تقيس المهارات العقلية العليا لدى الدارسين.

– قدرة على توظيف نتائج التقويم في تطوير العملية التعليمية التعلمية انطلاقًا من الأسئلة الخمسة:

لماذا؟ ماذا؟ لمن؟ كيف؟ ما الأثر؟

استئناسًا بتجارب الأمم الأخرى في عمليتي الإعداد والتأهيل من جهة والتدريب من جهة أخرى، ومن هذه التجارب تجربة ماليزيا في استراتيجيات التدريس من حيث اعتمادها أسلوب حل المشكلات والتعلم الذاتي وعصف الدماغ والمناقشة والتعلم بالاكتشاف، وأداء الأدوار وحلقات البحث وتقانة التعليم في العرض.

رابعًا: إعداد المدرس للتدريس بالعربية

تعد اللغة من أبرز سمات المجتمع الإنساني، إذ ما من حضارة عرفتها البشرية إلا وصاحبتها نهضة لغوية، وقد احتلت لغتنا العربية مكانة مرموقة في مسيرة الحضارة البشرية، وهي الآن من بين اللغات العالمية في الأمم المتحدة ومنظماتها المتخصصة. حاربها أعداء الأمة لأنها عامل توحيد بين أبناء أمتنا، وفرضوا لغاتهم مكانها في أثناء احتلالهم لوطننا العربي. وبعد أن حصلت بلادنا

العربية على استقلالها وتحررت من الاحتلال الأجنبي، ظل أعداء الأمة ماضين في محاربتهم للغتنا ووصمها بالصعوبة من جهة، وبالتخلف وعدم مواكبة روح العصر من جهة أخرى، وعملوا على تشجيع العاميات لأنها عامل تفريق بين أبناء الأمة، كما عملوا على سيرورة اللغة الإنجليزية واعتمادها مكان العربية في الجامعات ومعاهد التعليم العالي، على الرغم من مكانة لغتنا وأصالتها وتميزها وعراقتها، وعلى الرغم من تميز التجربة السورية في اعتمادها اللغة الأم «العربية الفصيحة» في التدريس في جميع مراحل التعليم، انطلاقًا من أن لغتنا هي هويتنا وعنوان شخصيتنا ورمز لكياننا القومي وذاكرة أمتنا ومخزونها الثقافي، فضلاً عن أنها لغة قرآننا الذي نزل به الروح الأمين على قلب الرسول العربي الكريم ﷺ بلسان عربي مبين آية لنبوته، وتأييدًا لدعوته، ودستورًا لأمته.

ومن هنا كان التعريب في سعيه إلى سيرورة اللغة العربية الفصيحة، وانتشارها على جميع الصعد وفي جميع مجالات الحياة، قضية متعددة الوجوه والمستويات والمقاصد، فهو قضية قومية وقضية دينية، وقضية مجتمعية، وقضية تربوية، وقضية أمن ثقافي، وقضية إبداع وابتكار(٣).

ولقد أدركت سورية هذه الجوانب كافة منذ أن تحررت من الاحتلال العثماني، فكان المدرسون في معهدي الطب والحقوق، نواة الجامعة السورية حينئذ عام ١٩١٩، يدرِّسون بالعربية، واستمر التدريس بها في عهد الانتداب الفرنسي على سورية على الرغم من كل محاولاته فرض لغته مكانها، إلا أن الأمانة التاريخية تدفعنا إلى ذكر أن ثمة من كان منصفًا من العلماء الفرنسيين

(٣) الدكتور محمود أحمد السيد، اللغة العربية وتحديات العصر في التعريب، المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية في القاهرة لعام ٢٠٠٨، ص٩.

في تهنئته أساتذة الجامعة السورية على اعتمادهم اللغة العربية في التدريس، فهاهو ذا السيّد «بونور» مدير المعارف العام في المفوضية العليا إبان الانتداب الفرنسي يخاطب أساتذة الجامعة السورية في احتفال أُقيم فيها قائلاً: «لستم مخطئين في اختياركم اللغة العربية في التدريس، بل كونوا واثقين أنكم أحسنتم صنعًا بانتقائها، فإن من يزعمون أن اللغة العربية غير صالحة للتعبير عن مصطلحات العلم الحاضر هم على خطأ مبين، فالتاريخ يثبت أن لغة الضاد كسائر اللغات الأخرى غنية باشتقاقها، وكافية بكثرة تراكيبها للتعبير عن الأفكار الجديدة والارتباطات الحديثة التي تربط تلك الأفكار، وأن فلاسفة العرب حينما نقلوا في القرن التاسع إلى لغتهم رسائل أرسطو طاليس تمكَّنوا من نقل العلوم إلى لغتهم كما في عهد ابن سينا والغزالي وابن رشد، فما ينكر أحد والحال هذه أن اللغة العربية صالحة لمماشاة اللغات الأخرى وللتعبير عن الأفكار العلمية الحديثة، واعلموا أن اندفاعكم إلى إيجاد مؤسسة علمية كبيرة عربية اللسان، هو على ما أرى أكبر دليل على حذاقتكم، فظلوا محافظين على هذه الأداة البديعة التي نحن مدينون لها بكثير من الأعمال الباهرة، وبعدد من الأشكال الجميلة التي تجلى بها الفكر البشري».

ويتابع قائلاً: «إنني أهنئ العرب، وأتمنى ألا يضيعوا هذا الاحترام المقدر للغتهم، لأن من يدافع عن لغته، يدافع عن أصله وعن حقه وعن كيانه وعن لحمه ودمه، وإنكم تفهمتم هذا الأمر جيدًا»(٤).

والواقع لقد تسلّح أساتذة الجامعة السورية في تدريسهم بالعربية بالإرادة القوية والانتماء القوي لأمتهم ولغة قرآنها الكريم، فكانوا يضعون المصطلحات العربية

(٤) مجلة المعهد الطبي العربي — السنة الثامنة — ١٩٣٠ — ص٤٥.

مقابل المصطلحات الأجنبية، مفتشين عن هذه المصطلحات العربية في بطون كتب التراث وفي المعاجم اللغوية من جهة، ومستعينين بقدرة اللغة العربية على الاشتقاق والنحت والمجاز من جهة أخرى، ومستأنسين بالمصطلحات التي وضعها أساتذة الطب في القصر العيني في القاهرة، عندما كانت العربية لغة التدريس في القصر العيني قرابة سبعين عامًا منذ أيام محمد علي باشا وقبل الاحتلال الإنجليزي لمصر الذي حوّل لغة تعليم الطب من العربية إلى الإنجليزية، ومستأنسين أيضًا بالكتب التي ألَّفها في أواخر القرن التاسع عشر ثلاثة أساتذة أجانب من أساتذة الكلية الإنجيلية السورية في بيروت، حيث كانوا يدرسون الطب بالعربية في هذه الكلية التي أصبحت فيما بعد الجامعة الأمريكية، وغيرّت لغة التدريس فيها من العربية إلى الإنجليزية أيضًا.

وعادت إلى اللغة العربية مكانتها تأليفًا وترجمةً وتدريسًا ومصطلحًا «بفضل جهود رجالات التعريب من أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة وجهود مجامع اللغة العربية عامة، ومجمع اللغة العربية بدمشق خاصة، وعاد إلى التأليف بالعربية كثير مما افتقدته في عصور الانحدار من عمق في المعاني، ووضوح في الأفكار وسلامة في اللغة، ونصاعة في البيان، وظهرت في اللغة العربية إلى جانب كتب اللغة والأدب كتب علمية جيدة في مختلف الميادين، استطاع مؤلِّفوها أن يجمعوا بين الغرض العلمي وسلامة اللغة وجودة العرض وحسن الأداء، وكان لطائفة من أساتذة كلية الطب بجامعة دمشق القدح المعلى في هذا المضمار[٥]، على حد تعبير الباحث اللغوي الأستاذ الدكتور مازن المبارك.

(٥) الدكتور مازن المبارك، اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي، دار النفائس، ط٤، ١٩٩٨، ص١٤.

ولا يخفى على أحد تميز التجربة السورية في التعليم باللغة الأم في مختلف المراحل، وهاهو ذا قد مضى عليها قرن تقريبًا، وهاهم أولاء خريجوها في الجامعات السورية وفي مختلف التخصصات، لاسيما الطبية منها يَزُّون أقرانهم الذين درسوا باللغة الأجنبية، إذ إنهم يتقلدون أرفع المناصب العلمية والأكاديمية في المشافي الأوربية والأمريكية ولم يَحُلْ تلقيهم العلم في الدرجة الجامعية الأولى بلغتهم الأم دون التفوق والتميز في دراساتهم العليا وعملهم المهني، وإنما كان دافعًا لهم لحيازة ذلك التفوق، فلقد تلقى هؤلاء المتخرجون علومهم باللغة العربية الفصيحة، واستعمل أساتذتهم اللغة العربية الفصيحة في تعليمهم معتمدين في المجال الطبي المصطلحات التي تضمنها المعجم الطبي الموحد.

ولنستمع إلى ما يقوله الباحث المصري الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين عن التجربة السورية في تعليم الطب بالعربية في العدد الرابع والثلاثين من مجلة «ديوجين مصباح الفكر» الصادرة عن اليونسكو: «تبرز مأساة اللغة العربية بوضوح إذا ما رأينا أن العلوم التي تقوم عليها الحضارة الحديثة كالهندسة والطب والصيدلة والطبيعة والرياضيات كلها تدرس باللغة الإنجليزية في جامعاتنا، لا لأن العربية عاجزة عن تمثل حقائقها ومصطلحاتها تمثلاً ما، بل لأن هيئات التدريس في هذه المجالات هي العاجزة عن استعمال اللغة العربية أداة لنقل المعارف الحديثة ومتابعة ما ينشر في الخارج بفكر ولسان عربيين»[٦].

ويتابع قائلاً: «لقد حضرت أخيرًا مناقشة لرسالة في علم الطفيليات لنيل درجة الدكتوراه كانت أنموذجًا للمأساة التي نعيشها نحن في الوطن العربي،

(٦) الدكتور عبد الصبور شاهين، ديوجين مصباح الفكر، العدد الرابع والثلاثون، السنة العاشرة، ١٩٧٦، ص١٠.

ومعبرة عن التمزق العميق في أعلى مستويات البحث العلمي الحضاري، الرسالة محررة بالإنجليزية، وقدَّمت الباحثة ملخصًا عنها بالإنجليزية أيضًا، وبدأت المناقشة، فتحدث المشرف بالعربية، وناقش أحد الأعضاء الطالبة بالإنجليزية، وناقش العضو الآخر الطالبة بالعربية، وكانت الطالبة ترد وتناقش بالإنجليزية وبالعربية في لغة مختلطة كاختلاط الرقع في الثوب المهلهل، وذلك في كلية الطب بإحدى الجامعات المصرية العريقة، ولو أن هذا الموضوع كان مطروحًا بجامعة دمشق لكتب بالعربية ولنوقش بالعربية دون أدنى صعوبة في الأداء أو في المصطلحات.

لنقلها بصراحة ودون مواربة – يقول الدكتور شاهين – إن اللغة العربية غير عاجزة، وإنما العاجز بعض بنيها سواء أكان العجز من النوع الثقافي المتمثل في ضعف إلمام بعض أساتذة جامعة القاهرة باللغة العربية ومصطلحاتها، أو كان من النوع النفسي إذا افترضنا فيهم القدرة على استعمال اللغة الأم، ولكنهم يحجمون عن خوض التجربة لفقر في الإحساس بالكرامة القومية، ذلك الإحساس الذي يدفع الجندي الأمين إلى اقتحام الأهوال، وقد كان خليقًا أن يدفع هؤلاء الأساتذة إلى صنع المحال»[٧].

هذا ما ورد في مقال الدكتور عبد الصبور شاهين في النصف الثاني من سبعينيات القرن الماضي، وكان مجلس وزراء الصحة العرب والتعليم العالي قد أوصى في اجتماعه في مطلع الثمانينيات من القرن الماضي في دمشق أن يكون عام ٢٠٠٠ هو الانتهاء من تعريب الطب في الجامعات العربية، وها نحن أولاء في النصف الأول من عام ٢٠٠٨ نجد أن الصورة ما تزال أكثر قتامة ويا

(٧) الدكتور عبد الصبور شاهين، المرجع السابق، ص١١.

للأسف في الوقت الذي استطاع فيه أساتذة الجامعات السورية أن يثبتوا قدرة اللغة العربية على استيعاب العلوم والطب، فوضعوا عددًا من الكتب العلمية تناولت مختلف الموضوعات، وقدمت لنا أمثلة حية على قدرة اللغة العربية على التعبير عن دقائق العلوم، فوضعت المصطلحات العربية، وعرّبت المصطلحات الأجنبية، وظهرت أمهات الكتب العلمية في الجراثيم الطفيلية والكيمياء الحيوية والفسيولوجيا النباتية وعلم النبات وعلم النسج والتشريح، وعلم تشخيص العقاقير والكيمياء العامة، فسدَّت الكتب العلمية التي أُلفت حاجات كلية الطب وطب الأسنان والصيدلة والعلوم في أقسام الفيزياء والرياضيات والكيمياء والحيوان والنبات... إلخ.

وأسهم الأساتذة السوريون في معركة التعريب التي خاضتها الجزائر بعد استقلالها، كما أسهموا في عملية التعريب في السودان، فدرسوا وقدموا المراجع العلمية وأمهات الكتب تأليفًا وترجمة في مختلف الميادين العلمية وكان لهم إسهام في الجامعات الليبية واليمنية والأردنية وفي أغلب الجامعات العربية، منطلقين من إيمانهم بأن استعمال اللغة العربية في العملية التعليمية التعلمية ليس مهنة، وإنما هو قبل ذلك قضية وطنية ورسالة قومية في الوقت الذي ابتلينا فيه على نطاق الساحة القومية بإهمالنا للعربية بغرورنا أن سواها أعف وأبهى وأفتى وأقرب إلى مقومات الحضارة الحديثة.

خامسًا: إجراءات مساعدة للتدريس بالعربية

أبان رئيس مجمع اللغة العربية في القاهرة الأستاذ الدكتور محمود حافظ: «أن قضية التعريب في التعليم العالي والجامعي ترتكز على محاور أو اهتمامات ثلاثة هي الأستاذ والكتاب والطالب، وأنه لا سبيل إلى تعريب التعليم العالي

والجامعي ما لم يؤمن بذلك الأستاذ وعضو هيئة التدريس، وما لم يترسخ في ذهنه قناعة قوية بأهمية التعريب باعتباره قضية قومية ووسيلة فعالة للارتقاء بمستوى التعليم ودفع حركته خطوات بناءة فسيحة إلى الأمام، وأن تتوفر بجانب هذه القناعة وهذا الإيمان أحدث المراجع العلمية باللغة العربية، وله في ذلك دور كبير ترجمة وتأليفًا وتعريبًا للمصطلحات مع تأهيله للتدريس بالعربية لتحسين لغته واستقامة لسانه، فإذا اقترنت هذه المقومات بقرار سياسي ملزم بتعريب التعليم الجامعي لاعتبارات قومية وعلمية واجتماعية فلا شك أن عضو هيئة التدريس سيمضي في تأدية رسالته التعليمية في الجامعة بلسان عربي مبين»[٨].

أما فيما يتعلق بالطالب فإن فهمه للمحاضرة والشرح بلغته القومية يعفيه عن بذل مجهود مضاعف لو درس بالأجنبية، إذ ينصرف نصفه لفهم اللغة وتعرف المفردات الصعبة في اللغة الأجنبية التي يدرس بها، وينصرف النصف الآخر من الجهد لاستيعاب المادة العلمية نفسها، فضلاً عما يعتري ذهن الطالب أحيانًا من غموض في المعنى، أو نقص فيه، يختل معه بناء المعلومات أو تُنقل إليه بغير الصورة المقصودة من المحاضر.

وفي الندوة السنوية لتعريب التعليم العالي في الجامعات العربية[٩]، التي عقدها المركز العربي للتعريب والتأليف والترجمة والنشر عام ١٩٩٥ كان من

(٨) د. محمود حافظ، تعريب التعليم العالي والجامعي في ربع القرن الأخير، ندوة الرباط، ١٩٨٥، ص١٢.

(٩) المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق، الندوة السنوية لتعريب التعليم العالي في الجامعات العربية عام ١٩٩٥، ص١٤.

التوصيات التي خرجت بها الندوة الحرص على إعداد المدرِّس الجامعي القادر على أن يلقي دروسه باللغة العربية السليمة الفصحى الميسرة، ووضع خطة لتحويل مدرسي الجامعة بمختلف التخصصات من التدريس باللغة الأجنبية إلى التدريس بالعربية في الأقطار الجاري بها استعمال اللغة الأجنبية في التعليم العالي، وذلك بإقامة دورات تأهيلية منظمة ومكثفة لكل فئة منهم، وبذل كل تشجيع لهم لتحقيق هذا التحول والإفادة منه.

ومن الباحثين من لخَّص الإشكالات التي تعترض استعمال اللغة العربية في العلوم والآداب والفلسفة ومبتكرات الحضارة وغيرها، فرأى «أن هذه الإشكالات تعود لأسباب لا تتعلق باللغة نفسها، وإنما بطرائق تعليم اللغة فهي قديمة وعقيمة تعقِّد الأمور أمام المتعلم، وهذه مشكلة تربوية، كما تعود إلى عدم وجود المدرسين الأكفياء المالكين لزمام العربية وهي مشكلة تربوية أيضًا، ومنها ما يعود إلى عدم توحيد المصطلحات المستجدة في اللغة في هذا العلم أو ذاك، وهذا يعود إلى عدم التنسيق بين المشتغلين في العلم الواحد في مختلف الأقطار العربية، وعدم قيام المؤسسات الثقافية العربية بدورها في هذا الميدان إلا في نطاق ضيق، وهذه مشكلة سياسية، ومنها ما يعود إلى أن مبتكرات الحضارة وتطور العلوم والتطور المعرفي عمومًا يسير في العالم بخطوات سريعة لا يمكن اللحاق بها دون جهود مخططة ومبرمجة ومدروسة، وهو أمر لم نعدّ أنفسنا له، وهذه مشكلة حضارية في اعتقاد الباحث معن زيادة»[١٠].

وفي سورية كانت الجامعات بفضل جهود أساتذتها رائدة في جعل اللغة

(١٠) معن زيادة، فتاوى كبار الكتَّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية، وزارة الثقافة السورية سنة ٢٠٠٣، ص٢٢٧.

العربية لغة التدريس في كل المواد وجميع الكليات مقيمة بذلك الدليل على أصالة لغتنا وقدرتها الفائقة على استيعاب كل جديد ومواكبة كل تقدم علمي، وهذا أمر تشهد به المؤلَّفات العربية العديدة التي تزخر بها المكتبات، إلا أن ثمة صيحات انطلقت تشكو انحدار مستوى الطلبة ومدرسيهم في اللغة العربية وذلك في ثمانينيات القرن الماضي، وهذا ما دفع الرئيس الراحل حافظ الأسد إلى أن يصدر المرسوم الجمهوري ذا الرقم ٧٥٩ بتاريخ ١٩٨٣/٦/١٠ الذي ينص على تدريس اللغة العربية في المرحلة الجامعية الأولى في جميع سنوات الدراسة في الكليات والمعاهد العليا في سورية، ما عدا قسم اللغة العربية والسنوات الأخيرة في كلية الطب البشري، ويدرّس هذا المقرر على مدار السنة في النظامين الدراسيين الفصلي والسنوي، وأُلفت الكتب الخاصة بتعليم اللغة العربية لغير المختصين، ونُفذت التجربة منذ ثمانينيات القرن الماضي.

أما فيما يتعلق بالمدرسين فقد صدرت توصية اللجنة الثقافية في مجلس الوزراء لعام ١٩٨٤ بضرورة العناية باللغة العربية في جميع الكليات واختيار المعيدين وأعضاء الهيئة التدريسية من الذين يحسنون اللغة العربية في التدريس، واعتماد شرط إتقان اللغة العربية في ترقية أعضاء الهيئة التدريسية وذلك في مؤلفاتهم وبحوثهم وتدريسهم.

ولقد صدر بلاغ من رئاسة مجلس الوزراء موجه إلى وزارة التعليم العالي ينص على أن تقوم وزارة التعليم العالي في صدد تعيين الأساتذة حديثًا بما يأتي:

ألا ينقل الأساتذة الجدد المتمرنون في جميع الاختصاصات من المرحلة الأولى إلى مرحلةٍ أعلى قبل أن يتقدم هؤلاء بامتحان في اللغة العربية.

أن يكون من شروط التعيين لعضو الهيئة التدريسية في جامعات القطر

ومعاهدها المتوسطة وفي جميع الاختصاصات شرط النجاح في امتحان شفهي وكتابي في اللغة العربية.

إحداث دورات تأهيلية في اللغة العربية للأساتذة.

وتتكون لجنة اختبار اللغة العربية من رئيس قسم اللغة العربية في كلية الآداب، ومن رئيس القسم المختص الذي يود أن يتعين فيه عضو هيئة التدريس، ومن أحد أعضاء هيئة التدريس في قسم اللغة العربية يسميه رئيس فرع نقابة المعلمين في الجامعة، ومهمة اللجنة:

– إجراء امتحان شفهي وكتابي للمعيَّنين أول مرة من أعضاء الهيئة التعليمية.

– إجراء امتحان لأعضاء الهيئة التعليمية المتميزين عند تأصيلهم.

ولم تكتفِ الجامعة بهذه الإجراءات للنهوض باللغة العربية، وإنما عملت على أن جعلت سلامة اللغة العربية شرطًا ينص عليه في تقويم الإنتاج العلمي للترقي في سلم هيئة التدريس، كما أنها اتخذت إجراءات في ضرورة مراجعة الأمالي والكتب الجامعية بحيث تضمن سلامة اللغة ووضوح الأسلوب في كل ما تقع عليه عين الطالب.

واشترطت الجامعات السورية أيضًا أن يعمل عضو هيئة التدريس عند تعيينه على ترجمة أطروحته في الدكتوراه إلى اللغة العربية إغناء لعملية التعريب، إذ إن هنالك بحوثًا عن اللغة العربية في جامعات أجنبية تجري باللغة الإنجليزية، ومنها رسائل ماجستير ودكتوراه وتتعلق بدراسة التراكيب العربية وعلم الدلالة في اللغة العربية، وهي رسائل حديثة في جامعات أمريكا وفرنسا وإنكلترا، وهؤلاء الذين يقدمون هذه الرسائل لا يقومون بترجمة هذا الإسهام العلمي إلى العربية إلا أن الجامعات السورية اشترطت ترجمتها.

ومن ناحية أخرى ثمة جامعات عربية لا تعد الترجمة عملاً علميًا يدخل في ترقية عضو هيئة التدريس من مرتبة إلى أعلى، وهذا ما أثَّر سلبًا في حماسة أعضاء الهيئة التدريسية نحو الترجمة مادام الجهد المبذول لا يدخل في الترقية، وهذا ما تلافته الجامعات السورية.

كما أن الجامعات السورية تشترط عند تأصيل المدرس بعد إخضاعه للتمرين أن يخضع لدورة في التأهيل التربوي يتدرب خلالها على أصول التدريس واستعمال التقنيات التربوية وأساليب التقويم.... إلخ.

ذلك لأن المدرس قد يكون متمكنًا من مادة تخصصه ومن لغته، إلا أنه قاصر عن إيصال مادته إلى طلابه بالأساليب التربوية الشائقة مما يؤثر في تحقيق الأهداف. ومن هنا كانت عملية التأهيل التربوي لأعضاء الهيئة التدريسية في جامعات الوطن العربي من الأهمية بمكان، ولها دور في مسيرة التعريب عندما تجري عملية نقل المعلومات والمعارف والتفاعل معها باللغة العربية وبأساليب تربوية شائقة.

ومن الإجراءات التي تساعد على عملية التعريب في مجال إعداد المدرسين الأكفياء القادرين على التعليم بالعربية أن يُنْتَدَبَ أساتذة من الجامعات التي تنفذ التعريب للتدريس بالعربية في جامعات تسعى إلى التعريب، وإلقاء محاضرات في هذه الجامعات مُدَدًا كافية تشجيعًا للأساتذة المحليين وكسرًا للحاجز النفسي الذي يحسون به تجاه إلقاء محاضراتهم بالعربية. ولابد من تشجيع هؤلاء على الكتابة وإلقاء الدروس والمحاضرات والمشاركة في الندوات باللغة العربية الفصيحة، وكتابة البحوث باللغة العربية أيضًا.

ومن بين هذه الإجراءات أيضًا تنظيم برنامج لتبادل الزيارات بين مدرسي المادة الواحدة في الجامعات العربية، وحضور الأساتذة الذين يدرِّسون بالأجنبية إلى

الجامعات العربية التي تدرِّس بالعربية للاطلاع على تجاربها والإفادة منها.

ولابد من العمل على تخفيف الأعباء التدريسية والإدارية عن أعضاء الهيئة التدريسية، وتوجيه جزء من نشاطهم إلى التعريب الذي سيؤدي بدوره إلى رفع مستواهم العلمي رفعًا غير مباشر.

ومن الإجراءات المساعدة أيضًا تشجيع الأساتذة على مطالعة كتب التراث ذات العلاقة بتخصصاتهم لمدِّهم بمصطلحات علمية ومفردات تعينهم على إغناء لغتهم في مجالات تخصصهم.

ومما يساعد على تعزيز عملية الإعداد، الاستمرار في تحقيق التراث العلمي العربي، وكشف النقاب عن المخطوطات العلمية العربية في داخل الوطن العربي وفي خارجه، في مكتبات المتحف البريطاني في لندن والمكتبة الأهلية بباريس والأسكوريال في إسبانيا والسليمانية في إستانبول... إلخ.

أما فيما يتعلق بتعلم اللغات الأجنبية فإن التجربة السورية عُنيت بتعليم اللغات الأجنبية، فقررت وزارة التربية بدءًا من عام ٢٠٠١ تدريس لغتين أجنبيتين في مرحلتي التعليم الأساسي والثانوي، بعد أن كانت سابقًا تدرس لغة واحدة، على أن يبدأ تدريس اللغة الإنجليزية بدءًا من الصف الأول من مرحلة التعليم الأساسي، وتدريس اللغة الفرنسية بدءًا من الصف السابع بحيث يتخرج الطالب في نهاية المرحلة الثانوية وهو يعرف اللغتين الإنجليزية والفرنسية.

ولم يكن الاهتمام باللغة الأجنبية في مراحل التعليم العام فقط، وإنما كان ثمة اهتمام بها في المرحلة الجامعية وفي الدراسات العليا، بحيث لا يتمكن الطالب من تسجيل رسالته لنيل درجة الماجستير إلا بعد التحاقه بدورة في معهد اللغات الذي أنشأته الجامعة لتعليم اللغات الأجنبية، وذلك في ضوء مستوى الدارس وإثبات

نجاحه فيها. ولا يتمكن الطالب من تسجيل رسالة الدكتوراه إلا بعد نجاحه في امتحان اللغة الأجنبية، وينطبق ذلك على المعيدين الموفدين في بعثات خارجية.

ولم تكن هذه الإجراءات إلا سعيًا من التجربة السورية إلى بناء نظام تربوي ثنائي اللغة ينسجم ومقتضيات العصر من جهة، ويحقق الربط الوثيق بين الأهداف القومية والإنسانية معًا.

سادسًا: خطة العمل الوطنية للتمكين للغة العربية

عندما أدى السيد الرئيس بشار الأسد القسم الدستوري أمام مجلس الشعب لولاية دستورية جديدة في السابع عشر من تموز عامَ ٢٠٠٧ ألقى خطابًا شاملاً بهذه المناسبة، وقد أشار في جانب منه إلى إيلاء اللغة العربية المرتبطة بالتاريخ والثقافة كل الاهتمام والرعاية، كي تعيش في مناهجنا وإعلامنا كائنًا حيًّا ينمو ويتطور ويزدهر، وتكون في المكانة التي تستحقها جوهرًا لانتمائنا القومي، ولكي تكون قادرة على الاندماج في سياق التطور العلمي والمعرفي في عصر العولمة والمعلومات لتصبح أداة من أدوات التحديث، ودرعًا متينة في مواجهة محاولات التغريب والتشويش التي تتعرض لها ثقافتنا، ويقول في هذا الصدد: «يجب إيلاء اللغة العربية وهذا الموضوع هام جدًا، اللغة العربية التي ترتبط بتاريخنا وثقافتنا وهويتنا كل اهتمامنا ورعايتنا، بدأت بهذا الموضوع ووضعته في خطاب القسم لأن هناك تراجعًا بالنسبة للغة العربية المرتبطة بالهوية العربية.

ويجب إيلاء اللغة العربية التي ترتبط بتاريخنا وثقافتنا وهويتنا كل اهتمامنا ورعايتنا كي تعيش معنا في مناهجنا وإعلامنا وتعليمنا كائنًا حيًّا ينمو ويتطور ويزدهر، ويكون في المكانة التي يستحقها جوهرًا لانتمائنا القومي، ولكي تكون

قادرة على الاندماج في سياق التطور العلمي والمعرفي في عصر العولمة والمعلومات، ولتصبح أداة من أدوات التحديث ودرعًا متينة في مواجهة محاولات التغريب والتشويش التي تتعرض لها ثقافتنا.

لقد أعطينا في سورية اللغة العربية كل الاهتمام وتبوأت موقعًا رفيعًا في حياتنا الثقافية منذ وقت مبكر، ومطلوب منا اليوم استكمال جهودنا للنهوض بها ولاسيما في هذه المرحلة التي يتعرض فيها وجودنا القومي لمحاولات طمس هويته ومكانته، والذي يشكل التمسك باللغة العربية عنوانًا للتمسك بهذا الوجود ذاته.

ويجب أن نتذكر أن دعمنا لتعلم اللغات الأجنبية للوفاء بمتطلبات التعليم والتواصل الحضاري مع الآخرين ليس بديلاً عن اللغة العربية، بل محفز إضافي لتمكينها والارتقاء بها».

ويتابع قائلاً: «أنا مهتم بتطوير نفسي في اللغات الأجنبية، وأتحدث بطلاقة بعض اللغات، ولا توجد لدي مشكلة، ومتحمس لهذا الشيء، ولكنني في الوقت نفسه حريص على اللغة العربية، وأول سؤال أسأله بعد كل خطاب، ما عدد الأخطاء اللغوية التي وقعت فيها قبل أن أسأل عن مضمون الخطاب، علينا أن نركز بشكل مستمر على هذا الموضوع، في كل خطاب ننسى الكثير من الأفكار ولكن لا أحزن، ولكن إذا كانت هناك أخطاء لغوية، فمع كل خطأ أشعر بالخجل».

ويقول: «عندما تضعف اللغة العربية من السهل أن يضعف أي ارتباط آخر لنا سواء بالنسبة للوطن، بالنسبة للقومية، أو بالنسبة للدين، فهذه الأمور ترتبط باللغة».

وكان السيد الرئيس قد أصدر القرار الجمهوري ذا الرقم /٤/ بتاريخ ٢٠٠٧/١/٢٦ بتشكيل لجنة للتمكين للغة العربية والمحافظة عليها والاهتمام بإتقانها والارتقاء بها. وحدد القرار الجمهوري مهمة اللجنة بوضع خطة عمل وطنية للتمكين

للغة العربية والحفاظ عليها والاهتمام بإتقانها والارتقاء بها ومتابعة تنفيذها.

وقامت اللجنة المشكلة والتي كان لي شرف رئاستها، بوضع خطة العمل الوطنية للتمكين في الأشهر الثلاثة الأولى من عام ٢٠٠٧، وما تزال تتابع تنفيذها مع الجهات المعنية، وتشتمل الخطة على أربعة أقسام يتناول أولها المسوغات التي دعت إلى وضعها، ويتناول القسم الثاني الواقع اللغوي والعوامل المؤثرة فيه، ويقف القسم الثالث على سبل المواجهة، ويركز القسم الرابع والأخير على القضايا الملحة التي تتطلب المعالجة السريعة. وأبانت الخطة ما الذي ينبغي للجهات المعنية القيام به «وزارة التربية، وزارة التعليم العالي، وزارة الثقافة، وزارة الإعلام، وزارتا الاقتصاد والسياحة، وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل، وزارة الأوقاف، اتحاد الكتاب العرب، مجمع اللغة العربية، الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية... إلخ».

وتتابع اللجنة عملية التنفيذ محاوله تذليل العقبات المعترضة وتجتمع اللجنة شهرياً وتقدم تقارير المتابعة إلى السيدة الدكتورة نجاح العطار نائب رئيس الجمهورية للشؤون الثقافية.

أما فيما يتعلق بوزارتي التربية والتعليم العالي فقد أشارت الخطة إلى أن على وزارة التربية أن تعمل على تنفيذ ما يأتي:

إجراء دورات تدريبية لمربيات رياض الأطفال على استعمال العربية المبسطة، والسعي التدريجي لأن تكون الرياض جزءًا من السلم التعليمي وتوفير مستلزمات هذا المسعى من برامج وأنشطة وكراسات... إلخ.

إجراء دورات تدريبية للمعلمين كافة لتدريبهم على استعمال أساسيات لغتهم استعمالاً سليمًا وتوظيف دورات التدريب المستمر في جانب منها لهذا المسعى.

التزام جميع المعلمين وفي مراحل التعليم كافة باستعمال العربية في العملية التعليمية التعلمية، وألا يخضعوا للترقية في وظائفهم إلا إذا أثبتوا إتقانهم أساسيات لغتهم.

تنويع طرائق التدريس والمرونة في استعمالها بحسب الأجواء، بما يفسح المجال فيها لاستثارة المهارات العقلية العليا من فهم وتطبيق وتركيب وتحليل ونقد وتقويم... إلخ.

تدريب معلمي اللغة على أساليب تعليم اللغة العربية وطرائق تدريسها، والعناية بالتعلم الذاتي والمطالعة الحرة.

تشجيع المتعلمين كافة على استعمال العربية المبسطة في مناقشتهم اللغوية، والتشدد في عدم قبول إجابتهم بالعامية.

تخصيص جوائز للناشئة المتميزين في استعمال لغتهم الأم في مناشطهم اللغوية.

إعادة النظر في مضمون المناهج ولغتها لتكون لغة للحياة النابضة الزاخرة.

التركيز على النحو الوظيفي وعلى التعبير الوظيفي في المناهج التربوية اللغوية.

التركيز على القوالب والبنى اللغوية في عملية تعليم اللغة في المراحل الأولى قبل الدخول في المصطلحات النحوية، وتجنب استعمال المصطلحات النحوية في المراحل المبكرة من التعليم.

الإكثار من حفظ النصوص من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والأشعار والخطب البليغة في مراحل التعليم كافة وخاصة المراحل الأولى، وعلى قدر حفظ النصوص في المراحل الأولى يستقيم اللسان، فتتأثر بذلك صحة القلم في التعبير الكتابي واللسان في التعبير الشفهي.

ضبط جميع الكتب المؤلَّفة بالشكل في الحلقة الأولى من مرحلة التعليم

الأساسي، وضبط ما يخشى منه اللبس في المراحل التالية.

التدريب المستمر على الكشف في المعاجم.

إنتاج كتب إلكترونية مبسطة بالعربية.

تصميم دروس العربية بالحاسوب والشابكة «الإنترنت».

تطوير أساليب الامتحانات في جميع المراحل التعليمية وعدم الاقتصار في التقويم على الامتحانات الكتابية، مع ضرورة بناء أدوات موضوعية لتقويم الأداء اللغوي، على أن تتضمن في بعض جوانبها الضبط بالشكل.

إجراء بحوث علمية لمعالجة المشكلات اللغوية في العملية التعليمية التعلمية.

العناية بالمكتبات المدرسية وتزويدها بدوائر المعارف والمعاجم وأمهات الكتب والكتب الالكترونية والسلاسل المتنوعة، على أن تكون اللغة المستعملة فيها سليمة لغويًّا، وعلى أن تكلف أطر متخصصة بالمكتبات العناية بها.

إغناء البيئة التعليمية التعلمية بمصادر التعليم المختلفة من كتب وصحف ومجلات ووثائق وصور ومجسمات وتسجيلات ورسوم وأشكال وشرائح وخطوط بيانية وحواسيب...إلخ.

تفعيل المناشط اللغوية اللاصَفِّية من صحافة مدرسية ومجلات وإذاعة مدرسية وكتابة إعلانات ولافتات، وإجراء مناظرات ومسابقات لاختيار الأداءات المتميزة وتخصيص جوائز لها.

تفعيل المسرح المدرسي، والإكثار من عرض المسرحيات الناطقة بالعربية الفصيحة المبسطة، وإشراك الناشئة في تمثيل أدوارها.

زيادة الاهتمام بذوي الحاجات الخاصة، وتوفير البرامج اللغوية والوسائل التعليمية الملائمة لهم تحقيقاً لدمجهم في المجتمع دمجًا فعّالاً.

الإشراف الفعال على المدارس الخاصة والارتقاء بواقع اللغة العربية فيها.

التركيز على وضع مناهج خاصة لتعليم المغتربين وأبنائهم وغير الناطقين باللغة العربية بغية إكسابهم مهاراتها.

التركيز على اللغة العربية السليمة والشائقة في البرامج التعليمية التلفزية.

التنسيق مع وزارة الإعلام لإنتاج برنامج تلفزي متقن لتعليم العربية لأبنائها وللمغتربين ولغير الناطقين بها في ضوء الاتجاهات التربوية المعاصرة.

وتعنى وزارة التعليم العالي بتنفيذ ما يلي:

اختيار الطلبة الراغبين في الانتساب إلى الكليات الجامعية كافة على أساس إتقان أساسيات اللغة العربية.

التزام جميع أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعات والمعاهد استعمالَ اللغة العربية في العملية التعليمية التعلمية.

إعادة النظر في مناهج تدريس اللغة العربية في كلية الآداب لتكون وظيفية.

إعادة النظر في مناهج تعليم اللغة العربية لغير المختصين في ضوء اختصاص الطالب في كليته استثارة للدافعية وتحقيقًا للمنحى الوظيفي.

إعادة النظر في برامج إعداد مدرسي اللغة اختياراً وتأهيلاً وتدريبًا.

تعميم تدريس اللغة العربية مطلبًا جامعياً في كل الكليات الجامعية وفي الجامعات الرسمية والخاصة.

وضع خريطة بحثية بالتنسيق مع وزارة التربية لمشكلات تعليم اللغة العربية وتعليمها بغية معالجة هذه المشكلات بالأساليب العلمية.

الأخذ بالحسبان أن يكون من بين شروط ترقية أعضاء الهيئة التدريسية إتقانهم أساسيات اللغة.

اعتماد المصطلحات التي أقرها مجمع اللغة العربية في التدريس وفي الترجمة.

تفعيل حلقات البحث لتؤدي الأهداف المرسومة لها من حيث تعويد الطالب البحثَ والتلخيصَ والعرضَ والمناقشة باللغة العربية السليمة في جميع الكليات الجامعية.

إعادة الامتحانات الشفهية إلى أساليب تقويم الدراسين، وعدم الاكتفاء بالامتحانات التحريرية في الصفوف الأخيرة من الدراسة الجامعية.

الإكثار من ضروب النشاط اللغوي بالعربية الفصيحة في المناشط اللاصَفِّية في الإذاعة والصحافة الجامعية والمجلات والمسرحيات والمناظرات والمساجلات ....إلخ.

تخصيص جوائز للمتفوقين من الطلاب في أدائهم اللغوي وفي جميع المجالات اللغوية.

تطوير قسم الصحافة في جامعة دمشق ليغدو كلية للإعلام بأقسامها المختلفة من صحافة وإذاعة مسموعة ومرئية غايتها إعداد الأطر الإعلامية .

تفعيل الترجمة ا لآلية وإعداد الأطر المتخصصة في ميدانها.

توظيف الحديث الشريف
في البحث النحويّ (ق٢) (*)

د. فخر الدين قباوة(*)

تاريخ الاحتجاج النحوي:

عندما نتصفح معًا مصادر التراث، لتتبع مقدمات البحث في النحو، نقف على نوادر من النصوص توسع لنا مجال الرؤية، وتفسر ما كان موجزًا أو خِلوًا من الاحتجاج. فقد روي عن أبي الأسود الدؤلي أنه قال: «مِن العرب مَن يقول: لولاي لكان كذا وكذا. وقال الشاعر:

وكَم مَنزِلٍ لَولايَ طِحتَ، كَما هَوَى بأجرامِهِ، مِن قُلّةِ النِّيقِ، مُنهَوِي!

وكذلك: لولا أنتم ولولاكم. ابتداءٌ وخبره محذوف». (١)

ولما بلغ معاويةَ بن أبي سفيان ﷺ قولُ أبي الأسود في محبة أهل البيت:

فإن يَكُ حُبُّهُم رُشدًا أُصِبْهُ ولَستُ بِمُخطِئٍ، إن كانَ غَيّا

أرسل إليه من يُحرِجه بقوله له: أشككتَ- يا أبا الأسود- في حبهم؟ أرشدٌ هو أو غيٌّ؟ فأجابه أبو الأسود بأن يقول لمعاوية: ما كنتُ أحبُّ ألاّ تعلم أنّي متحقّق متيقِّن، في حبهم، أنه رشد. فإن الله ﷻ قال(٢):﴿وإنّا أو إيّاكُم لَعَلَى

(*) نُشر القسم الأول في الجزء الثالث من المجلد الثالث والثمانين في الصفحات ٥٠٣-٥٤٠.

(*) أستاذ النحو وعلوم اللغة والأدب القديم في جامعة حلب.

(١) العقد الفريد ٢: ٤٨٥.

(٢) الآية ٢٤ من سورة سبأ.

هُدًى أو فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أفتُرَى اللهَ ﷻ شكّ في ضلالهم ؟ ولكنه حقّقه بهذا عليهم.(٣)

ففي هذين الحَدَثين تجد حضور الاحتجاج، ودقة اختيار النص المزيل للإشكالِ أو التلبثِ في قبول الحكم والاستنتاج. وقد ظهر أن المادة الاستدلالية يتوزعها القرآن الكريم والنثر والشعر القديمان. فالمسألة النحوية ترد في النثر ويُستدل لها بالشعر والنثر أيضًا، وترد في الشعر فيُستدل لها بالنص القرآني. ويؤنسك بصحة زعمنا هذا ما روي عن النبي ﷺ وعن ابن عباس ﷺ من القول: «إذا اشتَبَهَ علَيكُم شَيءٌ في القُرآنِ فاطلُبُوهُ في الشِّعرِ».(٤)

وقد كان لمثل هذا القول الكريم تطبيقات كثيرة، حتى قال أبو بكر بن الأنباري: «وجاء عن أصحاب رسول الله ﷺ وتابعيهم، من الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله باللغة والشعر، ما بيّنَ صحة مذهب النحويين في ذلك».(٥) ومن هذا القبيل أن عُمر بن الخطاب ﷺ كان على المِنبر، وسأل عن قول الله تعالى:(٦) ﴿أو يأخُذَهُم عَلَى تَخَوُّفٍ﴾، فقام شيخ من هُذيل وقال: هذه لغتنا. والتخوُّف: التنقُّص. فسأله عُمر: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم. وأنشده بيتًا من الشعر. فقال عمر: عليكم بديوانكم، لا تضلّوا. قالوا: وما ديواننا؟ فقال: شعر الجاهلية. فإن فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم.(٧)

(٣) نور القبس ص ٩ – ١٠.
(٤) مجالس ثعلب ص ٣١٧. وانظر المفصل في تاريخ النحو ١: ٧٤ – ٧٦.
(٥) إيضاح الوقف والابتداء ص ٦١ – ٦٦.
(٦) الآية ٤٧ من سورة النحل.
(٧) تفسير القرطبي ١٠: ١١٠. وانظر قول ابن فارس في الصاحبي ص ٢٣٠.

وما أمر المسائل التي كانت بين ابن عباس وبين نافع بن الأزرق – وهي كثيرة كثرةً ظاهرة – بغريب أو خفي على الناس، وقد كان يُسأل عما يؤيّد عبارات قرآنية من كلام العرب، فتقتصر الإجابات على التفسير للآيات الكريمة بأدلة خالصة من الشعر القديم، أو النثر القديم والمعاصر له.(٨) ولهذا وُصفت مجالسه العلمية بأنها تجمع بين تفسير القرآن والعربية والشعر.(٩)

فالعناصر الدائرة في هذه الأحياز هي ثلاثية الأبعاد: النص القرآني الكريم، والنثر العربي القديم، والشعر الذي يوازيه في الفصاحة والبيان القويم. أما الحديث الشريف فلم يرد ذكره في ذلك كله بإشارة أو عبارة أو تعيين، الأمر الذي يرجح غيابه، وأن نسبته في البحث النحوي كانت ٠/١٠٠، أي: صفرًا، إذ إنه لما يكن قد دخل ميادين الاحتجاج والاستدلال والتنظير والتفسير.(١٠) ولعل ذلك راجع إلى ضمور الخبرة الحديثية عند ممثِّل هذه الإجراءات، وهو أبو الأسود الدؤلي. فقد وقفنا على نماذج الاحتجاج النحوي لديه وحده، ولم نجد شيئًا من ذلك فيما جاء عن غيره، وهو قليل النشاط في رواية الحديث، وليس ممن يُذكر بين رجالاته ومشاهيرهم. ونضيف هنا أنه شاعر صاحب ديوان

(٨) انظر الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٥٥– ٢٨٢ وإيضاح الوقف والابتداء ص٦٢– ١٠٢ والكامل للمبرد ٣: ٢٢٢ – ٢٣٠ وسؤالات نافع بن الأزرق.

(٧٠) طبقات القراء ١: ٤٢٦.

(١٠) زعم بعض الدارسين للنحو أن الواضعين الأولين لهذا العلم استشهدوا بالحديث النبوي، وأن أكثر رجال الطبقتين الأولى والثانية من النحويين البصريين قد استشهدوا به، إذ لم يكن الفساد اللغوي قد عم الألسنة. انظر في اللهجات العربية ص٤٩–٥٠. وقول الشيخ أحمد الإسكندري في الجلسة ٢١ من جلسات مجمع اللغة العربية، والشواهد والاستشهاد في النحو ص٣٠٠. وهذا الزعم ليس عليه دليل حتى الآن.

مذكور، وحافظ للعربية ولكثير من لغاتها، وعالم في الشعر والشعراء، وناقد مشهور في التاريخ الأدبي.(١١)

فإذا انتقلنا إلى من تخصص في النحو، وكان له فيه قَدم صدق وتقدم في التنمية والإغناء، استقبلنا تلاميذ أبي الأسود وأضرابهم، وأقدمهم هو نصر ابن عاصم (ت ٨٧)(١٢)، كان قد عرض القرآن على شيخه هذا، وروى عنه القراءة والنحو، وساهم في التقعيد والتفصيل والتعليل والاستدلال، فشارك ابنَ هُرمُز في وضع عوامل الرفع والخفض والجزم وتفصيلات المضاف، وترك للتراث كتابًا في العربية. ويليه في التاريخ عنبسة الفيل بن مَعدان المهري (ت ١٠٠)، برع في النحو وكان راوية للأشعار، ولا سيما شعر جرير والفرزدق.(١٣)

ويستوقفنا بعدُ في تلك المرحلة عبد الرحمن بن هُرمُز الأعرج (ت ١١٧)، وهو من التابعين اتصل بأكثر الصحابة علمًا للقراءة والحديث، وقرأ على أبي هريرة وابن عباس، وكان من المحدّثين الموثَّقين عند الإمام البخاري، وذا علم بأصول الدين والنحو والأنساب، وتصدر للإقراء وعلوم العربية، فأخذ أهل المدينة عنه ذلك.(١٤) ثم نجد بين أيدينا يحيى بن يعمَرالعَدواني (ت ١٢٩)، وهو عالم مأمون وثّقَه النَّسائي وأبو حاتم، وأخذ القراءة والنحو عن أبي الأسود، وروى عن ابن عباس وعبد الله بن عمر وابن مسعود وعائشة، فكان محدِّثًا

(١١) انظر الأغاني ١١: ٥ و ١٦: ٣٧٦.

(١٢) الفهرست ص ٤٦ وبغية الوعاة ٢: ٢١٣ وطبقات النحويين ص ٢١ – ٢٧ ومعجم الأدباء ١٩: ٢٢٤.

(١٣) أخبار النحويين البصريين ص ٣٣ وطبقات النحويين ص ١١ وإنباه الرواة ٢: ٣٨١ ومفتاح السعادة ١: ١٥٠.

(١٤) طبقات القراء ١: ٣٨١ وأخبار النحويين البصريين ص٢١ وطبقات النحويين ص ٢٦ والمحتسب ١: ٢١١ وإنباه الرواة ٢: ١٧٢ ومفتاح السعادة ٢:١٣١.

ومقرئًا لا يدع الإعراب في كلامه، وعالمًا بالقراءة والحديث والفقه والعربية ولغات العرب، وهو الذي أجرى تعميم نقط الإعجام للمصاحف.(١٥)

وفي طبقة هؤلاء النحاة القدماء يرد لدينا ابنا أبي الأسود عطاءٌ وأبو حرب، والحُرّ بن عبد الرحمن النحوي القارئ، وسعد الرابية بن شداد اليربوعي الكوفي، ومعاوية بن عمر الديلي أبو نوفل بن أبي عقرب شيخ أبي عمرو بن العلاء، وقتادة بن دعامة، وحمران بن أعين النحوي المقرئ، والعلاء بن سيّابة، وأبو الزناد النحوي.(١٦) ويليهم ميمون الأقرن الذي تلمذ لأبي الأسود، ثم على عنبسة الفيل، وصار صاحب النحو بعده، فتخرج به الناس من أمثال عبد الله ابن أبي إسحاق.(١٧)

ثم نقف على عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي هذا (٢٩ – ١١٧)، وهو ممن عاصر أبا الأسود٤٠ سنة ولم يلقه، وإنما أخذ القراءةَ عن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم، والنحوَ عن ميمون الأقرن وأبي حرب، فرأس الناس بعد شيخه ميمون، وكان قيِّمًا بالعربية والقراءة إمامةً وفهمًا.(١٨) وآخرُ روّاد الدرس

(١٥) طبقات القراء ٢: ٣٧٢ وأخبار النحويين ص ٢٢ ومراتب النحويين ص ٢٥ وطبقات النحويين ص ٢٧ ونور القبس ص ٢١ ومعجم الأدباء ٢٠: ٤٢.

(١٦) طبقات النحويين ص ٣١ ونور القبس ص ٢٣ و ٢٦٧ وإنباه الرواة ١: ٢١ و ٢: ٣٨٢ و ٤: ١٧٩ وبغية الوعاة ١: ٤٩٣ و ٥٧٩ وروضات الجنات ص ٣٤٤ – ٣٦٦ ومفتاح السعادة ٢: ١٥١.

(١٧) مراتب النحويين ص ١٢ وإنباه الرواة ٣: ٣٣٨ ومعجم الأدباء ١٩: ٢١٩ والمزهر ٢: ٤٣٢.

(١٨) أخبار النحويين البصريين ص٢١ ومراتب النحويين ص١٢ وإنباه الرواة ٤: ١٠٤ وطبقات القراء ١: ٤١٠ ونزهة الألباء ص١٢.

النحوي هو حمّاد بن سلمة (ت ١٦٨) القارئ، وإمام الحديث وشيخ البصرة في العربية.(١٩)

وإذا استعرضتَ معي جهود هؤلاء في ميدان النحو، وتتبعت المسائل التي ذُكرت عنهم، تجد أنهم كثيرًا ما عرضوا للقرآن الكريم بوجوه من القراءات، باحثين عن الحكم النحوي فيها. وقد يقفون عند مسائل نحوية تتصل بذلك أو بالشعر.فعندما أنشد الفرزدق في تهديد زوجته بضرّة لها:

تُرِيكِ نُجُومَ اللَّيلِ، والشَّمسُ حَيّةٌ، زِحامُ بَناتِ الحارِثِ بنِ عُبادِ

تعقبه عنبسة بن معدان بقوله: «الزحام مذكَّر» – يعني أنه أخطأ في إسناد الفعل المضارع إلى مؤنث، مع أن الفاعل هو: زحام – فقال له الفرزدق: اغرُبْ.

وقال ابن أبي إسحاق: الزحام له وجهان: أن يكون مصدرًا مثل الطعان والقتال، من قولهم: زاحمته زِحامًا – فهذا مذكر، كما قال عنبسة – أو يكون جمعًا للزحمة يراد بها الجماعة المزدحمة. فهذا مؤنث لأن الزحام هو المزاحمة، كما أن الطعان هو المطاعنة. وقول عنبسة أقوى وأعرف في الكلام.(٢٠)

ورُوي عن ابن أبي إسحاق(٢١) أنّ: أصل الكلام بناؤه على «فَعَلَ»، ثم يبنى آخره على عددِ مَن له الفعل، من المؤنث والمذكر ومن الواحد والاثنين والجمع، كقولك: فَعَلْتُ وفَعَلْنا وفَعَلا وفَعَلُوا. ويزاد في أوله ما ليس من بنائه، فيزيدون الألف كقولك: أعطيتُ. وإنما أصلها«عَطَوتُ». ثم يقولون: «مُعطِي»، فيزيدون

(١٩) أخبار النحويين البصريين ص ٢٤ وبغية الوعاة ١: ٥٤٨ وإنباه الرواة ١: ٣٢٩ وطبقات القراء ١: ٢٥٨ ومعجم الأدباء ١: ٢٥٤.

(٢٠) الموشح ص ١٦٥ – ١٦٦. وانظر المفصل في تاريخ النحو ١: ١١٥ – ١١٦ و١٥١.

(٢١) مجاز القرآن ١: ٣٧٦ – ٣٧٧. وفي المطبوعة: «عن أبي إسحاق». وانظر المفصل في تاريخ النحو ١: ١٥١ – ١٥٢.

الميم بدلاً من الألف، وإنما أصلها «عاطِي». ويزيدون في أوساط «فَعَلَ»: افتَعَلَ وانفَعَلَ واستَفعَلَ، ونحوَ هذا. والأصل: فَعَلَ. وربّما[٢٢] أعادوا هذه الزوائد إلى الأصل. فمن ذلك في القرآن:﴿وأرسَلْنا الرِّياحَ لَواقِحَ﴾،[٢٣] وإنما يريد: مُلقِحةً، فأعادوه إلى الأصل. ومنه قولهم:

* طوّحَتْني الطَّوائحُ *

وإنما هي «المِطاوِحُ» لأنها المطوِّحةُ. ومن ذلك قول العجّاج:

* يَكشِفُ، عَن جَمّاتِهِ، دَلْوُ الدّالْ *

وهي من: أدلَى دلْوَهُ. وكذلك قول رؤبة:

* يَخرُجْنَ مِن أجوازِ لَيلٍ غاضِي *

وهي من: أغضَى الليلُ، أي: سَكَنَ.

وهذه النماذج من التقعيد والتحليل تدور أساليب الاستدلال منها أيضًا في أفلاك الآيات الكريمة والشعر والنثر، كالذي رأيناه فيما مضى من غياب للنصوص النبوية، مما يجعل نسبتها هنا أيضًا ١٠٠/٠. يعضد ذلك أن نحاة الحجاز يعرضون لبعض المسائل النحوية بالبحث والتحليل، مطوّفين في تلك الأفلاك أنفسها. فقد روي عنهم أنهم احتجوا لقراءة ابن عامر:[٢٤] ﴿زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ المشرِكِينَ قَتلُ أولادَهُم شُرَكائِهِم﴾، بأن فيها الفصلَ بالمفعول بين المصدر وفاعله المضاف إليه، كما جاء في قول الشاعر:

فزَجَجتُها، مُتَمَكِّنًا، زَجَّ القَلُوصَ أبِي مَزادَهْ

(٢٢) في المطبوعة: وإنما.

(٢٣) الآية ٢٢ من سورة الحِجر.

(٢٤) الآية ١٣٧ من سورة الأنعام ومعاني القرآن للفراء ١: ٣٥٨.

ومثلَ ذلك ذكر نحويُّو المدينة المنورة، في الاحتجاج للقراءة:[٢٥] ﴿فلا تَحسَبَنَّ اللهَ مُخلِفَ وَعدِهِ رُسُلَهُ﴾، فكان نشاطهم النحوي في نفس الخندق الذي يعمل فيه شيوخهم من قدماء النحاة، مما يؤكد الخط المنهجي الذي سار عليه مُنشِئو الدراسة النحوية في عهد النبوة والراشدين.

ثم إن هؤلاء وأولئك – وهم قرابة ٢٠ عالمًا – قلَّ فيهم من كان من رجالات الحديث الشريف. فالمعروف أن عبد الرحمن بن هُرمُز كان عالمًا في الحديث وموثَّقًا عند الإمام البخاري، كما كان يحيى بن يعمَر محدِّثًا وثَّقه أيضًا النَّسائي وأبو حاتم، وحماد بن سلمة إمامًا في الحديث. أما سائر المذكورين فشهرتهم في القراءات والعربية بشكل خاص. ومع هذا فإن ابنَيْ هرمز ويعمَر وحمادًا لم نجد لهم قولاً في غير القراءات الشريفة وليس لهم ذكر في رواية الحديث، فلا أثر لهم فيما نحن بسمته.

ومن هذا يتبين للباحث أن المسيرة النحوية كانت، حتى النصف الأول من القرن الثاني، تستقي أساليبها في الدرس من رجال قلّ زادهم النبوي، وندر لديهم الاستدلال بالأحاديث الشريفة، لفقر فيها من حيث التجربةُ العلمية والخبرة أو المهارة الاستدلالية. ولذلك اقتصر منهجهم على النصوص العربية الأُخرى، أي: القرآن الكريم وكلام العرب من شعر ونثر، وأصبح ذلك سُنّة متبعة بين جمهور النحاة حينذاك.

وإنما اقتصروا على ذلك، في المراحل الأولى من البحث النحوي، لأن الشروع في الاحتجاج كان لبيان ما في كلام العرب من نظائر لغوية للنظم الكريم في التعبير أو الدلالة، كما ترى في كثير من صنيع ابن عباس. هذا نافع

(٢٥) الآية ٤٧ من سورة إبراهيم ومعاني القرآن للفراء ٢: ٨١.

بن الأزرق ونجدة بن عُويمر، يلقيانه بفِناء الكعبة الشريفة، وهو يفسر القرآن الكريم للناس، فيقولان له: إنّا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله، لتفسرها لنا، وتأتينا بمُصادِقه من كلام العرب. فإن الله ﷻ أنزل القرآن بلسان عربي مبين. فيجيبهما ابن عباس: سلاني عما بدا لكما.

وهكذا دار الحوار بين الطرفين، يرد السؤال عن معنى بعض المفردات والتراكيب الغريبة في النص القرآني، ويفسر ابن عباس المعنى الدلالي أو التركيبي لِما سئل عنه، فيقال : وهل تعرف العرب ذلك؟ فيقول: نعم. ثم يلقي من الشواهد الشعرية والنثرية ما يوضحه ويؤيده. على هذه الوتيرة، من الاستشكال والتوضيح والاستدلال، مضت ساعات من الزمن، واستغرقت عشرات من العبارات النثرية والشعرية، لبسط وجوه الدلالة والتعبير(٢٦).

ولعلك تذكر ههنا ما كان من نحويِّي المدينة، في مثل هذا أيضًا. وفي مقابل ذلك كانت مجالس العلم تتناول النصوص الشعرية والنثرية بالنقد، لتبين ما فيها من الدقة والبيان، بأدلة من النثر أو الشعر أو القرآن الكريم. وهذا ما روى التاريخ نماذج منه، في مقولات أبي الأسود الدؤلي، وعنبسة بن معدان، وابن أبي إسحاق، وزهير بن ميمون الفُرقبي... وقد عبّر عن هذه العلاقة الصميمية، بين عناصر الدائرة الاستشهادية، الخليل بن أحمد الفراهيدي – وهو مخضرم أدرك السلف والخلف – حين صنف أقدم كتاب نحوي وصل إلينا، بقوله في الخطبة:

«وقد ألّفنا هذا الكتاب، وجمعنا فيه جُمل وجوه الرفع والنصب والجر والجزم، وجُمل الألفات واللامات والهاءات والتاءات والواوات، وما يجري من اللام

(٢٦) انظر الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٥٥– ٢٨٢.

ألفات، وبيّنّا كل معنى في بابه، باحتجاجٍ من القرآن وشواهدَ من الشعر».[٢٧] فهو يقرر ما رسمه الأسلاف، ويَعد بالتزامه فيما يضع من الدرس النحوي، ممثلاً الواقع الثقافي للعاملِينَ في ذلك الحقل، والنهج المنبثق عنه في العمليات الإجرائية.

فلقد بدأ علماء الطبقات الأُول نشاطهم النحوي، وهم مشبعون بمحفوظات القرآن الكريم وكلام العرب الفصحاء، وهمُّهم إقامة جسور وقنوات واصلة بين الجانبين، وتعبيد السبل الواشجة، لوضع القواعد الضابطة وتحقيق التواؤم والتظاهر والاتفاق. وقد غاب عنهم ما يمكن أن تقدمه ذخائر الحديث الشريف من خدمة في هذه السبيلِ وتلك القواعدِ والتواشجات، لاعتقادهم أن النصوص النبوية هي جزء من كلام العرب الأقحاح، وليس لها علاقة بما يُسألون عنه أو وظيفة، فلا جديد ولا خصوصية لها في هذا الميدان، ولا داعي لحضورها أو إيرادها.

كذلك شُرعت أسس الدرس النحوي بين أيدي الإمام علي وأبي الأسود، رضي الله عنهما، ومن تلمذ لهما في القرن الهجري الأول، فكانت أساليب الاحتجاج محصورة في هذه الدائرة المحدودة، ينهلون من مَعينها ما يسدد الخطا ويحقق مواصلة الخط الأصولي التقليدي. ثم تداول المنظّرون والباحثون تلك البوادر الأولى وما بعدها، يغذونها بالتفصيل والبيان، على هدي المؤسِّسين من أساليب البحث والاحتجاج والتفسير.

وبذلك أصبحت المواد الاستدلالية المقررة خبرة حاضرة الفعّالية والتوظُّف، ولم يخطر ببالهم توسعة دائرة النهل بالعَلَل، ليُطِلُّوا على السُّنّة الشريفة، ويجعلوا نصوصها مادة احتجاجية أيضًا تُسعف بالمقولات اليومية الطلقة، والعبارات

(٢٧) الجمل في النحو ص ٦٣.

الآنية التي تمثل الواقعية والشمول لكثير من مواقف الحياة، وأساليبَ القول بطلاقة وعروبة فائقة الأصالة والبنيان وبلاغة تصدر عن مجامع الكلم والبيان.

أضف إلى هذا أن الزاد النبوي كان في ذواكرهم خافت الصوت، له وظائفه الشرعية والثقافية الخاصة به، بعيد الحضور والتمثُّل في المقولات النحوية، فلم يدخل حيِّز الخبرة العملية من نشاطهم، ولم يأخذ مجراه فيها مأخذ الآيات ومقولات العرب. ولذا استمرت الجهود منصبَّة في المنهج التقليدي، وما استطاعت أن تلقّحه بنسغ جديد يقوي دعائمه، وينفحه قدرات إضافية تحقق له الشمولَ والتكامل وأداء الواجبات نحو البحث العلمي من ناحية، والوفاءَ للأصالة البيانية في الأحاديث الكريمة من ناحية أُخرى. فالتقليد للنهج المرسوم المعبَّد وغياب التجارب والخبرات المولِّدة هما العثرة في طريق تجديد الأساليب والاستمداد.

وقد كان لي في هذه الزاوية موقف مسعف بالترسيخ والتوضيح. ذلك أنني درّست المواد النحوية على مدى عقود في جامعات المشرق والمغرب، وكنت أسرد الشواهد من الآيات الكريمة وأقوال العرب شعرًا ونثرًا، وقل أن يرد بينها جزء من حديث شريف، وفي الوقت نفسه كنت ألقي محاضرات عن الاحتجاج النحوي بالمسموع من القرآن والحديث وكلام العرب، وكلما وقفت عند العنصر الثاني منها عرضت ما كان عليه النحاة من إجحاف بحقه، وبسطت موجبات الاستمداد منه في الدرس تأصيلاً وتفريعًا وتفسيرًا وتحليلاً.

على هذه الصورة من المزاوجة مضيت عدة عقود، دون أن أشعر بما في ذلك من الإحالة والتناقض، لأوفِّق بين موقفَيَّ المتنافيين هذين. وبعد مضي سنوات وسنوات استوقفني أحد الطلاب، في نهاية محاضرة من تقريري

لإجحاف النحاة ووجوب مخالفتهم فيما سلكوا، وسألني قائلاً: أيها الأستاذ الكريم، نحن نسمع منك هذا التقرير الجازم، ونراك درّستنا ودرّست غيرنا منذ أزمان، مستشهدًا بالآيات القرآنية والمقولات العربية، وقل أن ذكرتَ لنا شاهدًا من الحديث الشريف، لتثبت لنا صحة ما تقول. فكيف توفِّق لنا بين هذا وذاك ؟ فاجأتني عبارات هذا الطالب الذكي الجريء، ولبثت لحظات حائرًا في تأدية الجواب.

ثم ألهمني الله ﷻ المخرج العلمي الحميد، فقلت: يا بُنيّ، إنني أدرس المواد النحوية من الكتب المقررة، وهي شرح الألفية لابن عقيل ومغني اللبيب. وأنا ملزم أدبيًّا أن اعتمد ما جاء في هذه المقررات الجامعية من المصادر، وليس لي الخروج عنها بنصوص غير متوفرة بين أيديكم، ويتعذر عليكم استيفاء ما يحيط بها من الأحكام العلمية والمقاصد المعنوية. فأنا مقيد بالأنظمة واللوائح ومستوياتكم المعرفية، وهذا عذر المضطر غير الباغي ولا العادي، فيما أظن.

على أنني استطعت بعدُ، بصعوبة فائقة مرهقة، أن استخلص من صحيح الأحاديث شواهد غفيرة للأبحاث التي حاضرت فيها أو ألّفتها في الموضوعات النحوية، وحاولت الربط بينها وبين المعلومات المبسوطة بشِق النفس، بعد جهد جهيد لاختيار ما يناسب الموضوع، في وضوحه ومعناه وبساطته وإيجازه وكفايته. وبذلك أقمت علاقة احتجاجية بين تجارب النحو والأحاديث، لأكوّن خبرة بدائية جديدة في الاستدلال، تحتاج إلى المران والمتابعة والوفاء. وهذا ليس من اليسير على كل قاصد، ويتطلب جهود رجالات عظام، يتعاونون عليه ويقدّمون الأسوة الرائدة والزاد العملي الكافي لكل باحث أو دارس أو مؤلِّف.

فالذاكرة الاستدلالية للنحو نشأت ونمت وترعرعت في ذلك الحيِّز اللغوي المحدود الذي فصّلتُ أمره من قبل، وأصبحتْ تدور في فلكه لتأصيل البحث وتفريعه وتحليل جوانبه، دون أن تخترق حرمتَها نصوص مناظرة غير موظفة فيها. ذلك لأن هذه الذاكرة الاحتجاجية لها آلية متميزة في العمل، فهي تقيم شبكة من العلاقات بين المعلومات وأدلتها، عن طرق السمع والقراءة والتدبر والكلام والكتابة والبحث والتطبيق، بالتكرار والاستمرار، حتى تصبح آليّة حادّة الحضور جاهزة للاستعمال، فإذا لمسَتِ الذهنَ معلومةٌ مّا انثالت الأدلة الجاهزة تغذي المجال الفكري وتحقق مقاصده. وكذلك الأمر إذا كان العكس بلمس الذهن دليلٌ مّا، تتوالى المعلومات المبنية عليه أرسالاً متتابعة، ثُبًا ثُبًا وكراديس كراديس.

ولا يمكن المعلوماتِ والأدلةَ البعيدة أن تدخل خلايا هذه الشبكة، إلاّ إذا خضعت لنظائرها الموظَّفة قبل. يعني أنه لابد من مرورها بالقصد أو بالعرَض تكرارًا من القنوات والجسور المعبّدة، في مسالك السمع والقراءة والتدبر والكلام والكتابة والبحث. هنالك تصبح جزءًا أو كالجزء من الخبرة الذهنية وعناصر فعّالة في أُسرة الاستدلال، وتتدخل في الإجراءات العملية للدرس والبحث والتطبيق. وإلاّ فإنها تبقى عائمة في مجالات مغايرة، تبحث لها عن توظيف واستعمال.

ولما كانت الشبكة الاستدلالية، لدى الأجيال القُدمى من النحاة، على ما وصفنا من التخصص والتحيز، فقد لبث النشاط النحوي يجرجر مواده المقررة، ويعيد نظامها بأشكال مجدَّدة وأساليب متنوعة، لكن ضمن الإطار التقليدي الأصيل، حتى كاد أن ينغلق على نفسه. أما المحفوظات اللغوية

المغايرة فقد عاشت بعيدة عن حياضه، في ظلال خبرتها تؤدي الوظائف فيما وُضعت له وشُبّكت فيه وطوّعت لخدمته.

ولقد عرضنا لهذه الزاوية مرارًا، وتقرر لدينا ما كانت عليه القنوات والجسور الاستدلالية بين أئمة النحويين الأوائل، من التحيز والانغلاق. فالإمام عليّ الذي روى أكثر من ٥٠٠ حديث شريف لم يرد عنه أحدها، في المجال النحوي، لأنه كان يضع الخطوط العريضة بدون شرح أو تمثيل أو تقريب. ثم توالى الرجالات من بعده، وهم حَفَظة للآيات والمخزون اللغوي، فانتظمت وترسخت بين أيديهم أسلاك الاحتجاج بما يحفظون في شبكة مغلقة، واستمر ما عندهم من قليل التراث النبوي في أحيازه الخاصة من ذواكرهم، لا يطل على ميدان نشاطهم المتخصص، ولا ينخرط في منظومتهم المعتادة.

وإنما ذكرت قلة ذلك التراث لديهم لِما ظهر من تاريخ ثقافتهم، كما رأينا في مطاوي البحث. وإذا كان أبناء هُرمز ويعمر وسلمة على صلة حسنة بالنصوص النبوية فإن تأثرهم منهجَ شيوخهم، مع كفايته وإغنائه عن اعتماد النظائر الشريفة، قد حجب عنهم توظيفها، فلم يكن منهم إقحامها حيزَ الخبرة للإمداد والاستخدام.

وكذلك كان شأن أمثالهم كالخليل والزجاجي والنحاس، مع تسرب لقليل من المحفوظات المطهّرة، شرعه الخليل فكسر السياج الذي وضعه أسلافه، ورسم الانعطاف التاريخي الناحل في شبكات الاستدلال. وبهذا بدأت تطل بعض الأحاديث على ميدان النحو، تتسرب بنحول بين الأسطر والعبارات منه، لتتفاعل هي ومعلوماته فتصبح عناصر من الخبرة في الإجراءات العملية. ثم اتسعت رقعة الإطلال والتسرب مع الزمن، بمساعي الفارسي والسهيلي

وابن يعيش، لسعة آفاقهم في الحديث الشريف، وتعطير المنهج التقليدي بالنفحات الزاكية. فقد تمكَّن هؤلاء أن يمدوا الدرس النحوي بزاد وافر منه، يناسب ذخائرهم ومقاصدهم من تجديد النسغ الاحتجاجي، وأساليب النهج والخبرة العملية.

وأنت ترى أن الأعداد الوافرة من أسرة النحاة كانت، بشكل عامّ، على صلة ضعيفة بالخبرة الحديثية النحوية. ولما نبغ منها بعض الأفراد كوّنوا لأنفسهم توطيد تلك الخبرة، بما لديهم من ذخيرة وتطلعات، فعبّدوا جوانب من السبيل، وساهموا في شق قنوات جديدة ومد جسور محدَثة وتنمية شبكات استدلالية للمستقبل. وباستمرار هذه المكوّنات، في أعمال الأخلاف، تولدت تجربة ابن مالك وأنصاره اللامعة من بعد.

ومن ذلك كله تبيَّن لنا أن تلقيح الدرس النحوي بالمقولات النبوية يقتضي تجربتين متظاهرتين، مع توجه قاصد أو عرَضي لإقامة علاقة بينهما وتكوين الشبكة الناظمة. وهذا يعني أن يكون لدى المرء نشاط نحوي ظاهر في البحث والدرس والتأليف، وذخيرة حديثية حاضرة في الذهن واللسان والقلم ولها صلة بنشاطه، ثم يتدخلَ التوجه بين التجربتين، فيشبّكَ المعلومات والمقولات ويُجريَ بعضها في بعض مِرارًا وتكرارًا، ليقيم الجسور والقنوات والعلاقات الواضحة الراسخة، ويحققَ الخبرة العملية في نطاق البحث، ثم تكونَ بعدُ المهارة الطلقة للإنجاز المتفتح الجنبات، تلقي بالحجج والشواهد والأمثلة، في كل مناسبة وكل مضيق.

وتاريخ اجتماع هذه العناصر الثلاثة هو التفسير الأساسي، لضمور الاستدلال النحوي بالحديث الشريف، وتطور نموه في العصور المتأخرة. هذا ما

تحقق لدينا بعضه في الفقرات المتقدمة من البحث، ونريد أن نختبره ميدانيًّا بعمليات إحصائية، تبين مدى مصداقيته وقدرته على الاحتفاظ بتصدره عواملَ ظاهرةِ الاحتجاج النحوي.

الثقافة الحديثية والاستدلال النحوي:

لكي نضع أيدينا على حقيقة الأمر في هذه المسألة، نتخذ «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» لجلال الدين السيوطي (ت ٩١٣)، نتخذ هذا الكتاب ميدانًا فنتعرّف من خلاله الصورةَ الواقعيةَ لتكوين الخبرة الاستدلالية، بين رجالات النحو في تسعة قرون من الزمان العربي. ففي هذا الكتاب المذكور قدم السيوطي تراجم ٢٢٠٩ نحوي ولغوي. وإذا أسقطنا منهم ما كان خالص اللغوية – وهم حوالَى ٤٩. وحَوالَى: جمع حَولَى، نحو: فَتوَى وفَتاوَى – بقي عندنا ٢١٦ نحوي. وعندما نستقري ثقافة هؤلاء فيما ذكره المؤلِّف، لنتلمس اتصالهم بالحديث، نقف منهم على٢١٦ فقط، وهم يشكلون ٢١٦/٢١٦٠ أي نسبة ١٠/١٠٠. ثم نتصفح الجهود النحوية لهؤلاء المتصلين بالمقولات النبوية، لنتبين آثارهم التراثية في ذلك، فيلقانا منهم ٣٤ فحسبُ كان لهم مصنفات في النحو.

والمفترض نظريًّا فيمن صنَّف في النحو، وهو على معرفة بالأحاديث المشرَّفة، أنه يملك التجربتين وقد تراوده نزعة التلقيح، فيصل بينهما في بعض القواعد والضوابط والمسائل. يعني أن هذا الاحتمال المتوقع سيكون له حضور في المتصلين بالحديث على قدر ٢١٦/٣٤، والنسبة هي ١٠٠/١٦، وهو في النحاة عامة ٢١٦٠/٣٤ والنسبة هي ١٦ من الألف. فكم يكون احتمال تدخل الثقافة الحديثية التي لدى هؤلاء في التجربة الاستدلالية، من تاريخ

النحو والنحاة ؟ لاشك أنه سيبدو طفيفًا غير ذي أثر فعال، وسيبقى بعيدًا عما تمثِّله الشواهد المحفوظة المكررة غالبًا، من آيات القرآن الكريم والمقولات العربية. حتى إنك لو جعلت النظر في نسبته إلى المؤلِّفين النحويين وحدها لوجدت أن هذا الأثر لا يرقى إلى عُشر ما عليه الذخيرة الاستدلالية.

ثم إن ذوي الاتصال بالحديث، من جمهور النحاة هؤلاء، هم على درجات متفاوتة فيه. فالمحدِّثون منهم ٦٢، والذين سمعوا الحديث ٥٨، وعلماؤه ٢٧، والمصنِّفون فيه ٢٤، وحُفّاظه ٩، والأئمة ٧، والمشاركون فيه ٧، وفقهاء المحدّثين ٤، والمتقنون له ٤، والمعتنون به صناعةً ٤، والمعتنون به سماعًا ٣، والذين سمعوه ولا يُعتد بسماعهم ٣، والمشتغلون به ٣. ولا شك أن ما يتوقع من تأثيرهم في مجرى الاحتجاج يختلف تبعًا لهذا الاتصال، فيقوى لدى المكثرين، ويضعف لدى المقلين. ثم يتدخل عنصر القصد أو العرَض، فيكون مظهر آخر من درجات الفاعلية في التوظيف. ومع هذا كله، فإن ما قدمه لنا الإحصاء المذكور يفيد قلة حضور الثقافة الحديثية، في تجارب هؤلاء النحاة، الأمر الذي يسوّغ ما عرفناه في التاريخ الاحتجاجي ويفسر الظاهرة تفسيرًا واقعيًّا مَرْضيًّا.

ويمكننا أن نرفد هذه النتيجة الكمّيّة، بعيّنة عشوائية نقتطفها اعتباطًا من هؤلاء العالمين بالنحو والحديث معًا، لنرى مدى علمهم هذا، واحتمال تحريكهم المسيرةَ الاحتجاجية. وإليك ما نُتج بين أيدينا من هذا الاقتطاف: المجموعة التي تحصّلت لدينا بلغ عدد أصحابها ١٠٨ نحوي، وبعد الدراسة المفصلة لتراجمهم في المصادر التراثية المختلفة اتضح لنا أنه، مع اختلاف درجة صلاتهم بعلمَيِ النحو والحديث، يتميز من بينهم ٣٣ عالمِا ونسبتهم ٣٣ /١٠٨ أي ١٠٠/٣٠، كان لهم جهد ظاهر في الميادين النحوية. فقد تلقوا

هذا العلم عن الشيوخ ونقلوه إلى الأجيال التالية، بالتدريس والإملاء والتصنيف. فحريّ بهم أن تكون لهم آثارهم الشخصية في منهجية الاحتجاج ومواده الاستدلالية. وها نحن أولاء نسردهم مع سنوات الوفيات:

أبو الأسود الدؤلي ٦٩، أبو جعفر الرؤاسي١٩٠، أبو عُبيدة ٢١٣، أبو زيد الأنصاري ٢١٥، الأصمعي ٢١٦، القاسم بن سلاّم ٢٢٤، ابن قتيبة ٢٦٧، ثعلب ٢٩١، ابن كَيسان ٢٩٩، القالي ٣٥٦، ابن القوطية ٣٦٧، السيرافي ٣٦٨، ابن خالويه ٣٧٠، المفضل بن محمد التنوخي ٤٤٣، أبو العلاء المعري ٤٤٩، الحسن بن أحمد المعري ٤٧١، محمد بن محمد الرامشي ٤٨٩، الخطيب التبريزي ٥٠٢، البَطَلْيَوسي ٥٢١، الزمخشري ٥٣٨، عمر بن إبراهيم الكوفي ٥٣٩، ابن الشجري ٥٤٢، ابن الخشّاب ٥٦٧، عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي ٥٨١، المبارك بن محمد الجزري ٦٠٦، سالم بن محمد المنتجَب ٦١١، ابن يعيش ٦٤٣، أحمد بن علي الفحام ٦٤٥، هبة الله بن عبد الله القِفطي ٦٩٧، ابن النحاس الحلبي ٦٩٨، ابن قدامة المقدسي ٧٤٤، أبو حيان النحوي ٧٤٥، ابن الصائغ ٧٧٦.

وإذا رجعت إليهم تتحسس من بقيتْ له مصنفات نحوية، فوصلت إلينا أو بقيت في ذمة التاريخ، ويحتمل أن يكون له أثر في المسيرة الاستدلالية، استوقفك ابن خالويه والسيرافي والمعري والبَطَلْيَوسي والزمخشري وابن الشجري وابن الخشاب والسهيلي وابن يعيش والفحام وأبو حيان. هؤلاء ١١ نحويًّا من المتأخرين.

وعندما نستعرض سيرهم، لتعرُّف منزلتهم من خدمة الحديث وروايته، نجد أن ابن خالويه قد سمع الحديث وأملاه بجامع المدينة، والسيرافي له معرفة

بالحديث ورواية له، وأبا العلاء المعري حدّث عن أبيه وجده، والبَطَلْيَوسي شرح الموطأ – وليس لهؤلاء الأربعة ذكر في المحدّثين والحفاظ وعلماء الحديث – والزمخشري سمع الحديث ورواه وذُكر في طبقات المحدّثين وله كتاب «الفائق»، وابن الشجري سمع أيضًا، وابن الخشّاب من المحدّثين الحُفّاظ الذين يُعتمد على ضبطهم، والسهيلي أخذ الرواية عن أبيه وجده وهو حافظ من علماء الحديث جمع بين الرواية والدراية، وابن يعيش سمع الحديث ورواه وهو من المحدّثين، وأحمد بن علي الفحام راوية للحديث ثقة عدل، وأبا حيان تلقى الكتب الستة وبعض المسانيد والمعجمَينِ للطبراني وصنف جزءًا في الحديث.

وإذا صح إجراء العيّنة التي نفذناها – وهو صحيح إن شاء الله – وعددها نصف عدد النحاة المشاركين في الحديث، فإن عدد ما يحتمل أن يكون من المجموع في هذه الزاوية هو ٧٠ نحويًّا من أصل ٢١٦٠، وفيهم ٩ + ٩ = ١٨ نحويًّا من المتأخرين أيضًا وذوي التأثير في تاريخ هذا العلم. ومن مجمل هذا الاستعراض، **تلاحظ أن صلة النحاة بالحديث تأخذ شكلاً جديدًا منذ عهد الزمخشري**.

فقد كانت تقتصر على معرفةٍ وسماع ورواية وشرح لغوي، من دون اشتهار بذلك بين رجالات التحديث والحفظ والدراية. ثم أصبحتَ ترى في النحاة محدّثًا، وحافظًا ضابطًا، وعالما بالرواية والدراية، وثقة عدلاً، ومتلقيًا للمجاميع والمسانيد والمعاجم، ومدرسًا لشيء ومما تلقى. وبذلك دخلوا ميادين علوم الحديث ونشاطاته المختلفة، وصاروا من مريديه ودارسيه ومتقنيه.

ومعنى هذا أن في منتصف القرن السادس انعطافًا علميًّا في حياة النحاة، إذ أصبح فيهم اهتمام جدّي بالأحاديث الشريفة، تلقيًا وحفظًا ورواية ودراية. أما من كان قبلُ فيقتصر جهده على الاتصال الثقافي العام غالبًا، كطلاّب سائر العلوم المختلفة، يطلّ على بعض المجالس ويأخذ طرفًا من المعارف، ليكوّن ثقافة شرعية وشخصية علمية تعيش في عصرها للعلم التخصصي الذي تجردت له. **ومن ثَمّ يمكننا الزعم أن منتصف القرن السادس كان حدًّا ظاهرًا بين عصرين من تاريخ الثقافة النحوية، وحضورين مختلفين للمقولات النبوية في ذواكر النحاة واهتماماتهم العلمية.**

وما دام الأمر كذلك فإن نحويّ العصر الأول كان ما يعرفه من الأحاديث ثانوي الحضور في درسه النحوي، يحتفظ به على أنه نصوص ثقافية شرعية عامة، ولا يهمه أن يبرمجه ضمن الذاكرة الاستدلالية، إذ لديه من المحفوظات القرآنية والمقولات العربية وما أخذ عن شيوخه كفاية ووفاء بمتطلبات البحث والتأليف. لكن هذا لم يمنع أن تتسرب بعض الأحاديث المشهورة إلى تلك الذاكرة، لتتناقلها وتكررها الأفهام والألسنة والأقلام، مصاحبة المواد الاستدلالية المتداولة في المجالس والمحافل والمصنفات.

فالشيوخ والطلاب كلهم حَفَظة للقرآن الكريم وأقوال العرب، يدركون مناسبات النصوص وسياقاتها، ومراتبها من شروط الاحتجاج ومستوياته، فتراهم يوظفونها في مواقعها بيسر واقتدار، ثم يتلقاها طلابهم عنهم شِفاهًا أو قراءة بفهم واستيعاب، لينقلوها إلى الأجيال اللاحقة. فالسبل معبدة، والتلاحم بين المعلومات

وأدلتها صميمي، والقنوات الذهنية متواصلة بوضوح ودقة وكفاية للعطاء والتلقي، في استمرار حيوي دائب.

وعلى غرار ذلك صار شأن بعض الزاد الحديثي يتسرب إلى شبكة الاحتجاج ببطء، ليأخذ مواقعه من السبل والجسور والقنوات والتلاحم، ويقيم علاقات إجرائية في البحث والتقويم. وبقيت هذه اللمحات تتوالى متفرقة، كما رأينا في الفقرات المتقدمة، إضاءات فردية تصدر عمن له قدرة على الغرس والرعاية والعطاء.أما الاقتحام الكلي دُفعة واحدة فخارج عن نطاق المنهجية العلمية، إذ السبل والقنوات مفعمة بخطوط الشبكة الاستدلالية المتراصة، من الشواهد التقليدية المعتمدة، وليس في الميدان النحوي مقدّمات توطِّئ لذاك وتيسره.

ذلك لأن الأحاديث المعروفة حينذاك لها درجات علمية مقررة، وأسانيد دقيقة متفاوتة، وسياقات مدوَّنة محفوظة، ومناسبات تضيء معالمها وتعيّن مقاصدها التعبيرية والدلالية، ومعان شرعية ولغوية دقيقة. فالاستدلال بها يقتضي الإحاطة بتلك المعارف والمعاني والأحوال والعلوم بين الشيوخ والطلاب. وإلاّ كان العمل تدخلاً سطحيًّا سائبًا في مجاهيل على جسور مردومة، ضمن شبكة صلبة الخلايا والخيوط والروابط محكمة بنهج قديم متأصل.

وهذا العمل يكاد أن يكون تقحمًا تعسفيًّا، وضربًا من الطيش والرعونة لا يقدّم للعلم والبحث كبير فائدة، بل يسبب لصاحبه الإحباط والقنوط. فلابد إذًا أن يكون في المستويات الثقافية النحوية مواد معرفية عن الأسانيد ودرجات التقويم والسياقات والمناسبات، تنطلق منها إقامة العلاقة بين المعلومة والدليل

بوضوح ودقة واستيعاب، لتدخل المواد أحياز الشبكة بحُنكة ومهارة واقتدار، وتصبح عناصر فعالة تخدم الفكر واللسان والقلم.

وهذا الشرط الأساسي المعرفي كان قليل الحضور في تجاربِ نحاةِ العصر الأول، قد يحوزه بعضهم بجهد شخصي في حدود ضيقة، فيتسنى له أن يهيئ الأجواء لتوظيف عدة أحاديث مشهورة متداولة. أما الاقتحام الكلي فلن يستطيعه إلاّ خبير بهذه المقتضيات، محيط بتجارب النحو والحديث، عظيم المنزلة في القلوب والأذهان، ذو إنتاج ضخم يسيطر على الساحة النحوية، ويُنشئ ضمن الميدان الحركي شبكة احتجاجية مطعمة بأطايب السُّنّة المشرّفة. وسوف نرى هذا الخبير القدير بعد مراحل تمهيدية تتنامى في مدى قرون الزمان.

ولذا فإننا لا نزعم أن انشطارًا تامًّا حصل في منتصف القرن السادس، بين عصرين متمايزين تمايزًا كاملاً. إنما نرسم حدودًا متعرجة في الخط البياني للمسيرة الاحتجاجية، منعطفها البارز كان في تلك الحقبة المنصِّفة لهذا القرن. فقد انتثرت البذرة الأولى من عهد الخليل، وتلتها شقائق قليلة كانت عفوية عشوائية مبعثرة، ثم غمرتها تربة سطحية فأخرجتها فسائلَ لم تيسِّر لها النماء والتجذر. حتى إذا جاء نشاط الفارسي وابن جنّي بشيء من القصد عمّق تلك العفويات العشوائية، وزودها بالعناية والتدعيم والنظائر، فتأصلت الجذور واشتد العود وصار له قِوام يبشر بالعطاء. ثم هبت رياح ابن حزم في ندائه التاريخي، فأثارت التربةَ وأنعشت الفسائل بالحيوية والنشاط، لِما أيقظته في الجهود القاصدة لدى السهيلي وابن يعيش وأمثالهما.

وهكذا أصبحت البيئة والرياح والأجواء والتغذيات المعرفية مواتية لحركة تجديدية عميقة التناول، قادرة على اقتحام أسوار الشبكة وقيود خلاياها، يقوم بها عالم فذّ يتقن تجارب النحو والحديث، ويحسن المواءمة بينهما بخبرة واقتدار، ليحرر المسائل المستعصية الشائكة، ويضع حلولاً جذرية للأصول والفروع التعبيرية المحظورة أو المستبعدة، ويبسّط مشكلات الاستشهاد، بمقولات واقعية شريفة بدلاً من المصوغات الصناعية المكررة المبتذلة.

ولذا منح الله العصر النحوي الجديد صاحب الألفية، أي: مَن نفخ فيه روح البيان النبوي، بعد أن حقق أحاديث «الجامع الصحيح» للبخاري في عشرات من المجالس العلمية، ولمس من العبارات الكريمة ما يصحح مسيرة التأصيل والتقعيد والاحتجاج، ويرسم للخط البياني الاستدلالي قمة مشرّفة، تسدد حاجات البحث والدرس والتفسير والتحليل. وقد أسعفه رجالات عصره ومن خلف بعدهم، بإغناء هذه القمة وتصعيدها، كالذي تبدى لنا من صنيع أمثال: الرضي وأبي حيان والسمين الحلبي وابن هشام والدماميني والسيوطي والبغدادي، وكل منهم يملك التجربتين اللازمتين والخبرة الاستدلالية، مع إيمان بوجوب تسديد سبيل الاحتجاج النحوي.

فحركة تسنُّم الحديث للاستدلال إذًا ليست ذات شطرين متباعدين، في عصرين متمايزين، وإنما هي امتداد لمرحلتين متقاربتين، يصل بينهما جسر رأسه في عهد الخليل ونهايته في عهد ابن مالك. وكذلك هي عصور العلوم الإنسانية والتطبيقية في تاريخ البشر، يُخطئ من يظن فيها التقسم الآلي والانفصال الحتمي في لحظات من الزمان أو قطاعات من المكان. إنها أمواج متداخلة متلاحقة، تصبغها ألوان من التوليد والتجديد، منسحبة بين الأحقاب والأصقاع، لتكوّن الخطوط البيانية المتعرجة المستمرة المتصلة، في حياة الأمم والكوكب الأرضي.

وعلى هذا تستطيع أن تفهم تطورات الآداب والفنون والمعارف والتجارب واللغات، لتستبعد ما يزعمه الدجاجيل من تقطُّعٍ ومفاجآتٍ، وتخصُّصِ بعض الأمم بالقمم العلمية من دون الآخرين.

الاستدلال بين عِلمين أو مرحلتين:

لا شك أن الحركة التاريخية للاحتجاج تتوجَّه أنظارها بالمنهج العلمي وبتطور ثقافة رجاله، وقد رأينا نماذج كثيرة تمثِّل هذا الأصل الموضوعي المعتبر. ثم إذا لاحظنا الآن بعض الظواهر الواقعية من ذلك التاريخ مع عناصر جانبية من غيره وضعنا أيدينا على تحقيق يؤكِّد ما ذهبنا إليه، ويجعله حقيقة مقررة بالدليل القاطع مستحسنًا الرجوع إليها لفهم مثل هذه المعضلات الشائكة. وها نحن أولاء نبسط نماذج جماعية وفردية توسِّع دائرة التحقيق والتوكيد.

فعندنا في التاريخ العلمي من شارك في الأبحاث النحوية واللغوية معًا، وترك آثارًا تمثِّل منهجه في الميدانين. وأنت حينما تتابع بنظرك هؤلاء تتلمَّس لكل منهما شخصيتين، في البحث والاستدلال. خذ لذلك مثلاً الخليل رائد المعجمية، وانظر ما زرعه من الحديث الشريف في كتابه «العين»، تجد ٤٢٨ حديث.[٢٨] هذه الذخيرة الضخمة يقابلها حديث واحد في كتابه «الجمل في النحو».[٢٩] ومهما قيل في نسبة الكتابين إليه فإنهما مثالان عمليان للخلاف الكبير بين نهج النحاة ونهج المعجميين، تبعًا لما رسمه قدماء العلماء، في مناهج البحث النحوي والجمع اللغوي.

(٢٨) العين ٩: ٢٣.

(٢٩) ص ٢٦٧.

والأمر نفسه، مع خلاف في الكميات الاستشهادية، تجده عند آخرين. فقد أورد ابن فارس في[٣٠] «مجمل اللغة» ٤٣٣ حديث، وفي[٣١] «الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها» حوالي ٢٠حديثًا. وما الفارق في الكمية هنا إلاّ صدى لما أصاب نهج النحاة من تزايد الاحتجاجات النبوية مع الزمن، كما ذكرنا في كثير من المواضع قبل.

ولو تيسر لك الاطلاع على الكتاب النحوي للجوهري وتضع ذلك أمام ١٦١٩ حديث في «الصحاح»،[٣٢] وعلى كتاب الأدوات للأزهري وشرح كتاب الأخفش لابن سيده، لتقارن ما فيهما من النصوص النبوية بما في معاجمهما «جمهرة اللغة والمخصَّص والمحكَم»، لكان لديك أمثلة أوضح مما رأيت عند الخليل وابن فارس، إذ ترى في المخصَّص مثلاً قرابة ٤٥٠ حديث.[٣٣] وكذلك الشأن لو تسنى لك أن ترى كتاب «فعلت وأفعلت» ، لتقارن ما فيه بما في «جمهرة اللغة» وهو ٥٠٨ حديث، لتحقق عندك مصداق ما نذكره ونؤكِّد فحواه.

وأخيرًا فإن في لسان العرب لابن منظور ٦٩٥٠ حديث،[٣٤] وما ترى عُشر هذا في مصنف نحوي معاصر له، مهما كانت ضخامته وسعة أفقه. ومعنى هذا أن النحاة اللغويين كان لديهم رصيد نبوي كبير وظَّفوه في المعاجم، ولم يستطيعوا

(٣٠) ص ٩٨٢.

(٣١) ص ٣١٩ – ٣٢٢. هذا مع العلم أن في أحاديثه هنا ما هو قول مأثور عن الصحابة، وأن الكتاب نحوي أكثر منه لغويًّا.

(٣٢) الاستشهاد بالحديث النبوي في الصحاح ص ٦، موضوع في كلية الآداب بجامعة حلب.

(٣٣) فهارس المخصص ص ٦١ – ٨٢.

(٣٤) فهارس لسان العرب ١٦: ٧٥ – ١٩٢.

ذلك في المصنفات النحوية. فالمادة تجربة حاضرة في الأفهام والألسنة والأقلام، ولكنها لم تكن مبرمجة قبلهم في الدرس النحوي، فلم تدخل تجربتَهم النحوية، لتصبح خبرةً بذلك. وهذا يدفع ما قيل، من أن افتقاد المادة سبب انصراف النحاة القدماء عن الاحتجاج، ولو كانت في أيديهم لعضُّوا عليها بالنواجذ، ولغيَّروا كثيرًا من قواعدهم، وأنهم لو تأخروا إلى عهد علوم الحديث رواية ودراية لقصروا عليه بعد القرآن احتجاجهم.(٣٥)

فالمسألة إذًا أبعد من هذه التأويلات. ولنا ههنا معها، وهي الظاهرة الدقيقة البيان الواسعة المدى، أن نتساءل: **علامَ كانت هذه الفوارق الضخمة في الاستدلال بالحديث النبوي بين مصنفات النحو والمعاجم؟** وإذا كانت الأحاديث، كما زعم المعاندون المرجِفون قد رُويت بالمعنى، وأكثرُ نَقَلَتها موال وأعاجم لا يعرفون أساليب العربية، يأخذونها من الصحف مناولة أو مراسلة أو وِجادة، ثم يصحفون ويبدلون ويحذفون ويضيفون، ويتصرفون في التعبير على ما فهموا بإدراكهم القاصر، ويخطئون في التلقي والرواية والكتابة والقراءة... **إذا كانت هذه حال الأحاديث الشريفة فلِمَ يعتمدها رجال اللغة في معاجمهم؟**

لقد كان حريًّا بهم، والحالة هذه، أن يحظروا على الأذهان والألسنة والأقلام تداول تلك النصوص، لئلا يفسدوا البيان العربي وهم رعاته وأساطين روايته و تقنينه وضبطه. أمّا وقد كان منهم ما كان فقد أعطونا اليد بأن تلك الشبهات هي حديث خرافة، افتراها زمرة من المغرضين الرافضين، الذين لا علم لهم بما يتعاطون من القول، ولا يرون: ماذا يتهمون؟ وإلى أيّ قدسية

(٣٥) في أصول النحو ص ٤٥ و ٤٩.

يتطاولون؟ وما الذي يعاندون من ميادين العلم والعرفان ؟ جاهلين مقولة القدماء: فعاند من تطيق له عنادًا.

نعم إذا كان ما لمسناه في صنيع قدماء النحاة إعراضًا عن الأحاديث، لما ذكره المثبطون المرجِفون وقد ثَبَتَ تهافته وتلاشيه، فما أجهلهم بحقيقة الأمر! وما أقصر نظرهم وأتعسهم! وما أضعف نتاج التقعيد والتأصيل والتفريع والاحتجاج والتفسير والتعليل والبيان في أقوالهم!

الحق أنه لم يكن إعراض ولا دواعٍ له، وإنما هو نهج تقليدي للشيوخ والمصادر، مبني على ضعف صلة بعلوم الحديث وروايته وأحواله، وعلى غنى بمحفوظات القرآن والنثر والشعر في الخبرة النحوية، أنشأ تلك الظاهرة الموضوعية في التاريخ، وكوّن أصولها وأشكالها المتطورة مع الزمن، باستغناء النحاة المتأخرين من الأحاديث المشرَّفة تجربة وخبرة، وباعتقاد جازم لتوظيف هذه النصوص الكريمة حججًا وأدلة في المسائل النحوية. فهناك إذًا سببان ثقافيان منهجيان لتفسير الظاهرة: تقليد مع الفقر، واستغناء مع اعتقاد التوظيف.

لقد طالما عرضنا جوانب هذين السببين في تضاعيف البحث، وبقي لدينا مؤيدان لهما، لكل منهما تفسير واحد فرد، لم يعرض لهما أحد من قبل، مع جدّ أهميتهما في صلب الموضوع:

أما الأول فهو لتفسير جانب التقليد الفقير، أطلقتُ عليه منذ سنوات اسم: **العقدة السِّيبَوَيهِيّة**. أعني ما كان في حياة سيبويه حين انتقاله من ميدان الحديث الشريف إلى ميدان علم النحو. وتلك النقلة مشهورة جدًّا في التاريخ، لا حاجة إلى بسطها هنا. حسبنا أن نستفيد منها ما يؤيد السبب الثقافي

الأول في نهج الاحتجاج النحوي. فلما ضاقت سبل المتابعة أمام الفتى سيبويه في تلقي الحديث لِما كان عنده، من أقيسة لغوية ومعايير بسيطة ساذجة وبعض محفوظات محدودة الأفق، اصطدمت غير مرة في مجالس المحدثين بصلابة الرواية وتعدد وجوهها المقررة، فشعر بفقر في تكوين المعايير والمقاييس، وفي الزاد النبوي المكوّن لثقافة المحدِّثين.

وههنا بتكرُّر الصدَمات أصيب بالإحباط وتحصَّل في نفسه عقدة متأزمة، أنه ليس أهلاً لتلقي جوامع الكلم وحملها وروايتها، وأنه في عجز نحوي يقتضي الاستيعاب ليستطيع أن يحلل الكلام بما يناسبه من الأصول لا بالقاعدة الوحيدة المتميزة المتصلبة.

إذ ذاك انصرف إلى الدرس النحوي بفقره الحديثي المعقَّد، وأغذّ السير في ذلك مجاريًا شيوخه النحاة في منهجهم الاستدلالي، فكان ما صنّفه يحمل طابع العقدة بشكل ظاهر، من تقليد مع الفقر مطبوعًا بتعميق للنهج التقليدي عن غير قصد وبصيرة. ثم جاء مَن بعده من النحاة، يتعبدون بكتابه تلقيًا وحفظًا وتفسيرًا وإغناء ونقدًا، حتى صار هو السبيل الأول والوحيد للدرس النحوي خلال قرون. وبذلك انطبعت بصمات شخصيته الاستدلالية في ثقافة النحاة وذواكرهم وأساليبهم، وأصبحت نهجًا تقليديًّا متبعًا، قلَّ من يفكر أو يحاول أن يخرج عنه.

بل إني لأزعم أن من يتلقى النحو في صباه، قبل إتقان أساليب علوم الحديث الشريف، ستتصلب تجربته الثقافية، وتصبح غير مواتية بيسر لتلقي تلك العلوم، أو لإدخالها حيز التجربة الاستدلالية إلاّ بقفزة نوعية عارمة. وهذا

ما مررنا به نحن تجربة وعملاً، وما زلنا نعاني عقابيله. ومعنى ذلك أن أسلاف سيبويه وخلفاءه أيضًا كانوا في هذه التجربة قاصرين نسبيًّا، فلبثت أساليب استدلالهم تراوِح بين القرآن الكريم وكلام العرب، في أشكال متفاوتة من التقليد والتجديد والإضافات الجانبية، تأييدًا وتفسيرًا وتزكية، ولم تُطِلّ الإطلالَ اللازم على منهجية علوم جوامع الكلم، أو على الاستفادة منها في العمل النحوي.

هذا داء عامّ أُشخِّصه الآن بين يدَيِ التاريخ. ثم اقتحمتْ تضاعيفَه وعقابيلَه النوبةُ السيبويهية بعقدتها المتأزمة، متمثلة في كتاب قيادي شامل دقيق عميق مفصل، فتجذرت هذه العقدة في النهج النحوي، بعد أن كان قد أشرف الداء على الاستشفاء بما قدمه الخليل الفراهيدي في كتابه «الجمل». وهنا كانت نكسة منهجية خطيرة عميقة الأثر، ورِدّة في أساليب الاستدلال قطعت طريق الانعطاف الخليلي، وأضعفت انطباعه في مسيرة البحث بين النحاة، ونقلت إلى الأجيال أصداء العقدة السيبويهية في قرون، تتلقف كل جهد وتصرف أكثر طاقاته في الخط المرسوم، وتثير النقمة على من يحاول الخروج عليها، فكانت نتائج الانعطاف الخليلي في تلك الحقب بطيئة، بما أقحم سيبويه من ظلال عقدته في التاريخ الاحتجاجي للنحو.

إنها العقدة السيبويهية فرضت نفسها على مدى قرون، منحرفة بالخط المنهجي، توجهه في الطريق المغلق المعهود، والأجيالُ النحوية مُكِبّة على وجوهها، لا تلوي على شيء من التنبه والاستشراف. ومعروف بين الناس أن الخط المنحرف الكبير يكون دائمًا من الرأس المقدَّم الكبير.

كذلك رسم سيبويه حقبة مديدة من تاريخ النحو، وترك الأجيال المتلاحقة تتسكع في السبل المنهكة بالدرس والتعبيد. وكذلك استشرت عقدة التحيز والانصراف، في عقول النحاة وألسنتهم وأقلامهم، يَلزمون النصوص التي ألِفوها وحفظوها، ويوظفونها في ميادين أعمالهم، بدون تجديد أو مخالفة للخط المتبع، أو تطلع إلى عوالم أُخرى تفتح كثيرًا من المغاليق، وتيسر حل ما بقي من المشكلات بين أيديهم، وإن كانوا قد يخرجون على بعض الأحكام والآراء والمقولات المشهورة.

وقد استبدت بهم هذه النزعة التقليدية وتسلمت أزمّة توجيههم، بحيث أصبحوا يقتصرون على القديم القديم من الأشعار، ويطَّرحون ما يصل إليهم مما هو دون ذلك ولو كان من جنس بضاعتهم، لتأخُّر قائله عن الحقب الموغلة في القدم. هذا أبو عمرٍو بن العلاء يقول عنه أبو عُبيدة: «وكانت عامّة أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية». وقال الأصمعي: «جلست إلى أبي عمرٍو عشر حِجج، فلم أسمعه يحتجّ ببيت إسلامي».[٣٦] وكان هؤلاء المتعصبون للقدم إذا سمع أحدهم شيئًا استحسنه، ثم علم أنه لأحد المولَّدين، نفر منه وأمر باستبعاده وإتلاف ما سُجّل فيه.

وفي هذه الدُّوّامة المغلقة بين تجارب الماضي البعيد، استغرق أكثر النحاة. حتى إذا كانت صرخة ابن حزم وأصداء نظائرها في مسامعهم هبت قلوب من السُّبات، وشرعت تفتّح المغلقات عن قصد وتصميم، وتصل بين التجربتين النحوية والحديثية بخبرة أو مهارة استدلالية متنامية. كان ذلك على الرغم من

(٣٦) إنباه الرواة ٤: ١٢٧.

تعنت المرجِفين الناقمين الساخطين، وهمَزات النادبين المثبّطين من أمثال البطلْيَوسي وابن الضائع.

وخلال ذلك قيض الله ﷻ لهذه المهارة الغضة الفتية يدًا حانية، عمّقت جذورها وأخرجت شطأها وآزرته، وفرّعت أغصانه وفتّحت أزهاره وأنضجت ثماره، دانيةَ الجنى طيبة العطاء. كان ذلك بنفحة ربانية غُرست في قلب ابن مالك صاحب الألفية، إذ تلقف آثار الانعطاف الخليلي، بأنساغ حيوية جديدة، ومصول مضادة للنوبة السيبويهية المزمنة.

وبذلك استطاع أن يلقي رواسبها خارج ساحة الدرس النحوي، ويستبدل بها دماء دافقة نشطة، صححت مسيرة الخط البياني نحو الارتفاع بقوة واندفاع، بعد أن كان يرزح تحت وطأة العقدة التاريخية المتأصلة. لقد حررها من القيود المصطنعة القاهرة، ودفع بالناس إلى النظر في عوالم السُّنّة المشرّفة، لينهلوا منها في ميادين الاحتجاج النحوي، كل بما تيسر له من الاطمئنان إلى صحة المروي عن النبي ﷺ.

هذا هو السبب المنهجي الأول في تفسير ظاهرة الاستدلال الحديثي. والسبب الثاني هو ما يمثّله قطبان من أقطاب المثبطين المرجفين، وهما **أبو حيان النحوي وجلال الدين السيوطي**. فقد ذكرنا مرارًا ما كان منهما في إشاعة شبهات ابن الضائع، وتسلّمهما زمام الترويج لها بين جنبات التاريخ، حتى كادت تغيب تحت شهرتهما نبرات صاحب الدعوة الثائرة المجدّدة، ويصبح شِبه ضائع بين جعجعات الرحى وغائبًا عن ميادين الحوار والجدال.

لقد نقل أبو حيان (٦٥٤ – ٧٤٥) مقولات شيخه هذا مبلِّغًا ومؤيدًا، وكررها مرارًا مزوّدة بالأمثلة والأدلة المصطنعة، فانطبعت في أذهان بعض الناس قرونًا،

وضيعت مفاتيح السبيل القويم، ثم عزّزت ذلك متابعة السيوطي لها فثبّطت صحوة العاملين، وسببت لهم نكسة ضائعية سيبويهية مزمنة. حتى إننا نحن الآن مازلنا نعاني من عقابيلها، في كثير من مصنفات النحاة المعاصرين لنا ومقولاتهم ومحاضراتهم، والمؤتمرات والندوات والأبحاث والمقالات.

ثم تفجؤك أحداث واقعية في بعض مصنفات أبي حيان، تخالف نقله ذاك وتكراره ومؤيداته، فتكاد تظن التناقض والإحالة في دخيلة نفسه وحقيقة مقاصده. والذي بدا لي منذ سنوات أنه ليس في هذا شيء من التناقض أو الإحالة، وإنما هو السبب المنهجي الثاني في تفسير موضوعنا المحدد. بدا لي هذا على غير بيّنة ودليل ملموس، فبقيت أردده في المحاضرات والمناسبات العارضة، حتى تبدّت لي الحقيقة في واقع تاريخي مؤكد.

فالذي جاء من مذهبِ أبي حيان المثبطِ كان تقليدًا لشيخه ابن الضائع، من دون تبصر أو اختبار. وقد شاعت آثاره في مصنفاته أيام الخمسينات من عمره، كما في: التذييل والتكميل. ولكنه بعد أن تعمقت تجربته بالبحث النحوي من خلال ذلك الكتاب الضخم، وبالحديث الشريف وعلومه وحقائقه ممارسة وتوظيفًا في: البحر المحيط،[٣٧] لمح تهافت ذلك التقليد وضعف قِوامه،

(٣٧) انظر منه ١: ٢٩٠ و٦: ٢٠٩ و ٢٧٩ و٨: ٢٦٧... و((أبو حيان النحوي)) ص ٤٣٦ – ٤٣٨. وقد وهم من زعم أن التذييل صُنف بعد إتمام البحر. التذييل والتكميل ١: ١٠ – ١١ من المقدمة. فأبو حيان ذكر أنه بدأ تفسير البحر في أواخر سنة ٧١٠، وهو في أول سنة ٥٧ من عمره، وقارب إنجازَه بعد ١٦ سنة إذ صار له من السنين ٧٣.

أما كتاب التذييل فقد بدأ تصنيفه سنة ٧٠٤ حين عُيّن مدرسًا للنحو في جامع الحاكم، وما ذكره في خطبة الكتاب ص ٩ – ١٠ إنما يعني به الرغبة والشروع في التفسير، ولا يعني إنجازه أو الاستمرار فيه، لأن ذلك كان خلال

واتضحت في خبرته معالم التوظيف للنصوص النبوية في الاستدلال، فتنامت شذرات ذلك النهج منتشرة بين طيات أواخر مصنفاته شاهد عدل على الاستغناء الحديثي والقصد للتوظيف.

وإنك لترى صورة هذا الشاهد العدل في كتابه «ارتشاف الضرَب من كلام العرب» – وهو مختصر مكثف للتذييل والتكميل – إذ احتج فيه أبو حيان بعدد ملحوظ بلغ ٣٤ حديثًا.(٣٨) وهذا من أبي حيان الذي أشاع مذهب الرفض والعصيان هو أمر جدير بالملاحظة والاهتمام، إذ ليس من المعهود أن يَصدر مثله عنه في كتاب مختصر جدًّا، وهو أيضًا يعني انحرافًا ظاهرًا في خط المسير، يتطلب التأمل والتفسير. والدليل التاريخي هنا يكون من جانبين:

أولهما: أن كتابه «ارتشاف الضرب» جاء بعد الانتهاء من «التذييل والتكميل»، وما ورد فيه من تثبيط وعصيان. قال في خطبته، بعدما ذكر من ذلك الانتهاء: «رأيت أن أجرد أحكامه عارية، إلاّ في النادر، من الاستدلال والتعليل».(٣٩) فهو مرحلة تاريخية متأخرة من مصنفات أبي حيان، تحمل التجربتين النحوية والحديثية، وتقيم بينهما مهارة استدلالية ناضجة متميزة. وهذا أمرٌ جِدّ مستقيم في تاريخ الرجال المتابعين لاستقصاء البحث والمناهج العلمية الفضلى.

تدريسه التفسير في قبة السلطان الملك المنصور بين سنوات ٧١٠ و ٧٢٦ على عهد سيف الدين أرْغون. انظر البحر ١: ٣ و ٨: ٣٥٧ و«أبو حيان النحوي» ص ١٩٠.

(٣٨) انظر بناء الجملة في الحديث النبوي في الصحيحين ص ٦٩٢.

(٣٩) الارتشاف ١: ٣.

والدليل الثاني: أنه صنّف بعد ذلك «منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك» تفسيرًا للألفية في أواخر سنواته مع كتبه المتأخرة أيضًا،[٤٠] كالبحر والارتشاف والتدريب، وكان ناضج الخبرة والتجارب , فراح يؤكد فيه مذهبه الجديد ويكثر من الاحتجاج بالأحاديث،[٤١] مع أنه كتاب مختصر وموجز أيضًا كما صرح غير مرة.[٤٢] وقد تبيّن تأخّر كتابه هذا بأمرين: أحدهما أن الكتاب لم يتمّ تأليفه، إذ وصل فيه إلى باب «أفعل التفضيل»، والآخر أنه ذكر تاريخ إنجاز نصفه الأول، فكان قريبًا من نهاية سنة ٧٣٧،[٤٣] أي: بعد ٣٠ سنة من «التذييل». ومعنى هذا أن صفحات النصف الثاني كانت تكتب في العقد الأخير من حياته، وقد تجاوز الثمانين، ولم يتيسر له الإتمام.

بيد أن أبا حيان – والحق يقال – لم يلتزم مذهب ابن مالك برُمّته، وإنما استفاد منه تسويغ البحث والتنقيب للعمل بما يخالف ابن الضائع، فانصرف عن متابعة ما تقتضيه المقولات الضائعية ومجاهلها التيهاء. ولهذا تراه، مع استكثاره من الشواهد النبوية، ينتقد ابنَ مالك في «منهج السالك»،[٤٤] لبنائه بعض القواعد على أثر لم يصح أنه من لفظ الرسول، ويستبعد بعض ما نُسب

(٤٠) أبو حيان النحوي ص ١٢٥.

(٤١) انظر منهج السالك ص ١٧٧ و ٢٠٦ و ٣٠٢ و ٣٠٦ و ٣٦٦...

(٤٢) المصدر السابق ص ٧ و ١٠ و ١١ و ٢٩ و ٤٥ و ٦٣ و ٩٩ و ١٢٣ و٢٥٥ و٣٨٩ وأبو حيان النحوي ص ١٣١.

(٤٣) منهج السالك ص ٢٣١.

(٤٤) ص ١ – ٢ من نفس المصدر. وقال ابن الطيب الفاسي: بل رأيت الاستشهاد بالحديث في كلام أبي حيان نفسه مرارًا، ولا سيما في الصرف. إلاّ أنه لا يقر له عماد. فهو في كل حين في اجتهاد. تحرير الرواية في تقرير الكفاية ص ٩٩.

إلى النبي ﷺ لأسباب يذكرها في مواضعها بالتفصيل. وكأنه يمهد السبيل لما سيأتي به الشاطبي.

هذا شأن القطب الأول في رحى الشبهات الضائعية، قد انتهى إلى ما رأيتم من الإقرار مع الاعتدال. وكذلك تجد أمر القطب الثاني – وهو السيوطي – لأنه كان مقتديًا جدًّا بأبي حيان يراه «نحويَّ عصره ولغويَّه ومفسِّره ومحدِّثه ومقرئه ومؤرِّخه وأديبه».(٤٥) وقد ائتم به في أعماله النحوية بشكل ظاهر للعِيان، فكانت مصنفاته المشهورة في ذلك اختصارًا وجمعًا لما خلفه أبو حيان.(٤٦) ولذا رأيناه ينقل عنه أقواله في «الاقتراح»، لتثبيت مذهب ابن الضائع، ويزيد عليها بعض الأدلة التي أشرنا إليها فيما مضى.

كان هذا في المراحل الأولى من حياة تصنيفاته، ثم مارس البحث النحوي أيضًا وتابع علوم الحديث وروايته، حتى أصبح إمام المحدّثين والنحاة في عصره، فلمس الضعف والتهافت فيما كان منه في «الاقتراح»، وصار يصل كثيرًا من النصوص النبوية بالاستدلال النحوي، ليقيم خبرة احتجاجية معتدلة تشبه ما انتهى إليه أبوحيان. ولذا تجد له في «همع الهوامع» ١٣٢ حديث شريف بين شواهده، وهو عدد كبير بالنسبة إلى التوجيهات الضائعية.

والدليل على تقدم «الاقتراح» في التصنيف، وتأخر «الهمع» عنه زمنيًّا، أنك تقف في الثاني على عبارات تذكر ما كان في الأول، مشيرًا إليه باسمه ذلك أو بأن عنوانه «في أصول النحو».(٤٧) فهو في رحلته النحوية الحديثية

(٤٥) بغية الوعاة ١: ٢٨٠.
(٤٦) نفسه ١: ٢٨٢.
(٤٧) الهمع ١: ١٦٠.

تعدلت خطواته واعتدلت في النظر إلى الاحتجاج، وأصبح للحديث الشريف مكان ظاهر عنده. ولكنه في الوقت نفسه لم يجارِ ابن مالك في مجمل مذهبه أيضًا، ولبث يختار ما يوافق بعض الأصول، ويستبعد ما يخالفها.(٤٨) وهو في هذا، كما ترى، يسير على هدي أبي حيان بمرحلتيه، ومظاهرًا ما فصّله الشاطبي في مذهبه.

وكذلك كانت مراحل حيوات كثير من أخلاف السيوطي، تَشغلهم المقولات الضائعية بما فيها من بريق وزخارف، وتضع في سبيلهم العثرات والمتاريس، وتُثير في قلوبهم الظلمات والمتاهات، وتشجع ما في نفوسهم من كسل عن البحث والتنقيب، وقصور عن امتحان المسلَّمات المتهافتة، فينصرفون عن الخوض في هذه العوالم المخوفة، والتصدي للمجاهيل المرتقبة، قولاً وفعلاً وتوجيهًا للآخرين. فإذا تيسر لهم بعدُ عَرَضًا أو قصدًا أن يتابعوا البحث والتبصر في الأمور، واختبار الأقوال المختلفة بالتقويم العلمي السديد، انقشعت عن عيونهم وقلوبهم الأوهام والأباطيل، وانفتحت لهم أبواب الحقيقة، ودخلوا أبهاء مجامع الكلم، ينهلون منها ما يناسب الخبرة والمهارة والتجارب مما يقصدون. وإلاّ لبثوا يرزحون تحت نير الأضاليل الضائعية وقيود التثبيط والإرجاف.

ونحن – إياي وإياكم وإياكنّ، أيها الزملاء والزميلات في هذا الخندق النحوي الكريم – مررنا بهذه التجربة التاريخية كأنها قدر مقدور، وتحمّلنا معًا شرر ما أطلقته حول المسيرة الاحتجاجية، نتخبط في ظلماتها عقودنا الأولى في الدرس النحوي، ونتلمس بصيص نور يفتح أعيننا، فنجدنا غارقين في سحب

(٤٨) نفسه ٢: ٧٢ و ٨٦ – ٨٧.

المفتريات المسيطرة على الساحة، في الجامعات والمعاهد والمؤتمرات والصحف والمجلات المحكّمة.

ولما يسر الله ﷻ لنا مجالات المتابعة للبحث الجادّ الوفي، وتتبعنا جذور الشبهات بالفحص والتقويم، انكشف عنا الغطاء فإذا بصرنا يومئذ حديد، يبدد الأراجيف والمتاريس والمثبطات، ويطلق لنا عِنان الاستغناء بالأحاديث الكريمة والتوظيف لها في الحقول النحوية المتعددة.

أما من استسلم للضباب والسحب والأضاليل والأراجيف، ولم يحمّل نفسه أعباء الدرس والتمحيص، فقد لبث في الأخاديد يردد أصداء الشبهات، ويعرقل مسيرة التقويم والتسديد، وينعى علينا وعلى كل نابه ما نغني به الاستدلال النحوي، من حجج وشواهد وأمثلة نبوية مكرمة توسع الأفق وتمد الأفهام والأقلام والألسنة بالفصاحة الرائقة والبيان الواقعي الآنيّ، بعيدًا عن ضرائر الشعر وتصنع النحاة لتعابير غثيثة في التاريخ النحوي المديد.

فرحم الله ابن مالك وطيَّب آخرته ومُقامه في أعلى عِلِّيِّين، لِما خدم به سُنّة نبينا ﷺ وأزال عنها ما تكدّس في سبيلها النحوي خلال القرون، من تخرصات وافتراضات ومفتريات، ونقّس عن العربية ما كانت ترزح فيه، وأضاء للناس منارات تهديهم بين ظلمات الرفض والدس والتضليل. فلقد فتح أعين الناس وقلوبهم للخوض في غمار البحث والتنقيب، ليكتشف كل منهم ما يسدد خطاه ويزيل عنه ذلة التقليد.

ومع ذلك، فلسنا نزعم أن صنيعه هذا صبغ الدارسين والباحثين بالألوان التي تلبّسها، فصاروا نماذج عن شخصيته الاحتجاجية. نعم لسنا ندعي هذا، ولا نقدّر جهوده لمثل هذا الزعم المتبادر، بل لأنه اقتحم المتاهات بجرأة وخبرة،

وشجع العقول على التفتح والاختبار، فكان منها ما يقرب منه كثيرًا أو قليلاً، ويهز صرح الأباطيل والتُّرّهات بتجارب احتجاجية نبوية، تعلي منارة البحث العلمي، وترمم ما خلفته القرون من تقصير قدماء النحاة، وتخاذل أنصار ابن الضائع وأتباعه في المسيرة النحوية.

لقد ضيع هذا المرجِف أجيالاً من النحاة، وصرفهم عن جادة الصواب، بما أثار من العجاج والأضاليل، فمنهم من نجا بجلده يواجه الحقائق بجد واقتدار، ومنهم من لبث يجتر مقولات باطل الأباطيل. ونحن قد ساهمنا مع بعض الزملاء بمقولات ودراسات وأبحاث وأعمال في إثارة القضية من جديد، لتبديد الظلمات وإدحاض بعض الأراجيف وكشف شيء من سحب المثبطات، فوجّهنا الأنظار إلى سبل الصواب، وشجعنا على متابعة السعي في توظيف الأحاديث الشريفة، لخدمة الدرس النحوي الكريم، ولغة القرآن العظيم. فعسى أن نكون قد طمسنا معالم التُّرّهات المصطنعة، وضيّعنا صاحبها وصانعها ومَن لفّ لِفّه, وجعلنا أراجيفه في مَضيَعة من ألوان ما نَشر في التاريخ النحوي.

أما الدراسات والأبحاث التي نشرها زملاؤنا الأكارم ومن قبلهم في هذه السبيل فقد وضعت القضية في قفص الاتهام، وراحت توجه إليها أحكام الاستحقاق للتهم آونة، وأصابع التبرئة أحيانًا، مع أكف الضراعة والاستعطاف إلى الجمهور الكريم. وهكذا لبثت القضية أربعة عشر قرنًا على تلك الحال في صفوف الفئات المترافعة، تنتظر البتّ النهائي بين شقاشق اللسان وتقاطع الأفهام، دون أن تجد ومضة أمل أو رجاء،[٤٩] وكادت تُطوى في سجل مجاهيل الختام وتيهاء الاتهام.

(٤٩) الاحتجاج ص ٢١٤.

ذلك لأن الباحثين والدارسين الكرام جعلوها قضية جدلية تتقارع فيها المقولات والحجج والأدلة والبراهين، وكأنهم أرادوها أن تبقى حبيس القفص تتلفت يمنة ويسرة وشمالاً وجنوبًا، بين جدران المراحل البدائية والجزائية والجنائية والاستئناف والتمييز، كما فُرض علينا في قاعات القضاء المستورد، إلى يوم يبعثون. ومن ثَم اضطربت المسألة في نفوس الناس، وصار لديهم إحساس بأنها قضية ميئوس منها، ولا خلاص لها من الجدل العقيم. فلا حاجة إلى متابعة ما سيكون في شأنها.

وفي هذه الدُّوّامات المتلاطمة، ما استطاع واحد من النظّارة أن يدخل قوس العدالة بحميّة ووفاء، ليختم أفواه المترافعين، ويقطع قول كل خطيب بوضع الحكم العملي، وينقذ سنّة الرسول ﷺ من أروقة القضاء وقاعات الجدل والخصام، والاستعطاف والرشوة والشهادات المصنوعة، شأن ما نعرفه اليوم في محاكم بلاد المسلمين عامة، من أنظمة قضائية مستوردة بالقهر والتهريب، هي مقابر حتمية للقضايا، ومنابر ابتزاز وسمسرة وتزوير وظلم وتعسف وتحطيم لكل نصفة وعدل وضراعة ورجاء.

وهكذا بقيتْ أحاديث النبوة المقدسة في أتُّون الجدل النظري، تتوقع مناظرات ومناظرات من دون حل نهائي مبرم. ولذلك اندفعتُ بين الصفوف، فقطعتُ على إخوتي الأكارم بلسان الابن البارّ سلاسل جلساتهم، ونشرت منذ بضع عشرة سنة مقالة، أهزُّ بها مغاليق البصائر والأسماع والأبصار، للتدبر والهداية إلى الصواب. كان ذلك في خطاب عنوانه: «افتحوا الأبواب لأفصح من نطق

بالضاد»، تناولتُ فيه الموضوع من منظور إجرائي، قطعتْ به جهيزةُ قولَ كلِّ خطيب، وقد جاء فيه ما يلي:(٥٠)

«الظاهرة اللامعة في التاريخ الإسلامي أن المسلمين، من أيام البِعثة المباركة إلى يومنا هذا، توجّهوا إلى القرآن الكريم بالعناية والحفظ والتفقه والدراسة، في الأحكام والتجويد والصرف والنحو واللغة والمعاجم... ولذلك ترى آلاف الكتب تتكاثر حتى الآن، في فلك هذا الكتاب العظيم، وتفتح آفاقًا رحيبة في ميادين الدرس والبحث والتأليف، وتشكل مكتبة قرآنية ضخمة يعتز بها العالم. ولو أنك تتبعت الدراسات الجامعية وحدها، في بلاد العرب والمسلمين، للمست حقيقة هذه الظاهرة، في مصنفات غفيرة تناولت القرآن الكريم وعلومه المختلفة، بالدرس والتصنيف والبحث والتأليف.

وفي ميادين علوم اللغة وحدها، صدرت مؤلفات متعددة، تبحث عن الظواهر الصوتية والإعرابية والصرفية والمعجمية والبلاغية، وتعالج المواد القرآنية بروح العلم والمعرفة، لتَجْلي ما يذخر به كتابنا الحبيب من كنوز لا تنفد في شتى ميادين العلوم. وقريب من هذا ما تجده منصبًّا على الشعر والنثر العربيين، للدراسة تأريخًا وفنًّا ولغة وفكرًا وتحليلاً ونقدًا ومقارنة. فالجامعات العربية والأعجمية تشغلها هذه النصوص الفنية، وتولد لديها آفاقًا شاسعة، من الموضوعات العلمية للمعالجة والمتابعة والبحث. ومن ثَمّ كان في مكتبات العالم مصنفات كثيرة جدًّا، تتناول الأدب العربي من زواياه المختلفة، وتستخرج منه نتائج كريمة طيبة.

(٥٠) انظر ص ٨ من صحيفة البيان الصادرة في الإمارات العربية يوم الثلاثاء ١٥من تشرين الثاني لسنة ١٩٨٨ م.

وهذا كله أمر حميد، نُكبره في الدارسين والباحثين وأساطين العلم واللغة والأدب، لأنه اهتمام بأعظم الموارد الأدبية عند العرب، وتوجيه سديد يُرغِّب في البحث والتصنيف. غير أننا إذا وجهنا الأنظار إلى الحديث النبوي الشريف، من هذه الزاوية، رأيناه أقل نتاجًا مما يستحقه ويناسب مقامه الكريم. فالدراسات الجامعية والمصنفات العلمية قليل منها يتناول الآثار النبوية في حقول اللغة، كالنحو والصرف والمعجمية والأصوات والنقد والبيان.

عجيب – والله – أن نُشغَل نحن المسلمين عن هذا المنجم الثمين الكريم، من آثار حبيبنا ومنقذنا وسيدنا وأفصح من نطق بالضاد، ونتوجه أحيانًا إلى نصوص لا يُعرف قائلها، ولا منزلته في الفصاحة والبلاغة والبيان. فلقد أجمع العلماء قديمًا وحديثًا، في الشرق والغرب، على أن الحديث النبوي الشريف هو أفصح النصوص العربية وأصحها وأبلغها، بعد القرآن الكريم. فعلامَ يكون قليل الظهور في حيز الدراسة والبحث والاهتمام والاستدلال والنقد والتقويم، لدى اللغويين والنحاة والأدباء والنقاد؟

لا نريد أن نعيد إلى الأذهان موقف بعض القدماء والمتأخرين، وانصرافهم عن الاحتجاج بما روي عنه ﷺ في مجالات النحو والصرف والبيان. فلقد انتهى ذلك كله بإقرار المعاصرين من العلماء والمجامع اللغوية العربية، أن الحديث الشريف أصح رواية وإسنادًا، وأوثق لغة وتعبيرًا، وأرفع فصاحة وبيانًا، من كل ما جاء عن العرب شعرًا أو نثرًا. وبذلك انتهت تلك المشكلة، وأصبح للنص النبوي الشريف قدسيته وعروبته وأصالته.

أضف إلى ذلك أن لهذه الآثار الغالية قيمة علمية، لا يشركها فيها نص عربي إنساني آخر. ذلك أنها تتسم بالحيوية والواقعية، واتساع صور التعبير

ومستويات المخاطبين، وتعدد لهجاتهم ومواقفهم. إنه نثر فني رفيع، يجمع ألوان الحديث اليومي العابر، في المواقف المختلفة والموضوعات الشتى، خلال بضع وعشرين سنة وبيئات متعددة، تصور حياة اللغة العملية، وتمثل أساليب العرب في التعبير الآنيّ السريع، دون تقيد بوزن أو قافية، أو تقليد قاصد لأشكال من الصور والبيان. وهذا هو منتهى ما تصبو إليه الدراسات اللغوية المعاصرة، من الواقعية والسعة والاستيعاب.

بيد أن هذا الغنى لا يعفي الباحث من واجب الدراسةالعلمية، لحياة الحُفّاظ والرُّواة وجامعي الحديث ومخرجيه، لتحديد عروبتهم أو صلتهم بالعربية، لتكون للأسانيد قاعدة صلبة، تنعكس على القيمة اللغوية للآثار النبوية الشريفة، وتوثق النتائج الصادرة عن الدراسات والبحوث، وتسوغ لنا البحث والتقويم. فلْنفتح إذًا أبواب الدراسة أمام التراث النبوي الكريم، ولْنستفد من هذا المنجم الخالد منابع بحث لا تنفد، وموارد علم لا تنضب، ولْنوجِّه أنفسنا وزملاءنا والطلاب والدارسين والمؤسسات العلمية إلى هذا الميدان الغني بالعطاء.

فالباحث في التراث النبوي سيرى عديدًا من أشكال التعبير، أسماء وأفعالاً وحروفًا وتراكيب وصِيغًا، قد استُعملت بمعان خاصة لم تشر إليها المعاجم، ولم تستوعبها مقاصد اللغويين فيها، وإن كان قد ورد بعضها في مثل «غريب الحديث» لأبي عُبيد و«الفائق» للزمخشري و«النهاية» لابن الأثير. وهي زاد وفير يغني المعاجم المتداولة، ويقدم للمُعجميِّين كثيرًا مما يتطلبونه في تاريخ اللغة وفوائت القدماء.

والدارس النحوي يرى فيه أيضًا معالم وافرة للمجالات المختلفة، وميادين غنية فيها الكثير من الخواص المتميزة، تفوق أضعاف ما نثره ابن مالك في «شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح»، وتقدم ذخرًا مِطواعًا للموضوعات من مثل:

صيغ الأفعال، وأبنية الأسماء، وجموع التكسير، وتوارد المعاني على كل منها، واللهجات المختلفة، والمصطلحات والمفاهيم المستجدّة، والدلالات المتميزة، والزمن والتعدية واللزوم والتضمين في الأفعال والأسماء، والإدغام والإظهار والقلب والبدل، ونظام الجملة، والتركيب النحوي، والبيان النحوي، وبنية الأدوات ومعانيها وعملها النحوي، والأساليب النحوية كالاستفهام والجواب والنفي والتعجيب والنهي والأمر والعطف والتوكيد... وعشرات من العناوين التي لا تحتملها هذه الأسطر الضيقة الحدود.

وبذلك نفتح للعربية ودارسيها ميادين مترامية الأطراف، ونقدم نتاجًا حريًّا بالتقدير والنماء، ونتوسل إلى النبي ﷺ بخِدمات مباركة، تحمل في طياتها قليلاً من الوفاء، وكثيرًا من الحب والولاء .

قلت هذا منذ سنينَ وسنوات، ثم عرضتُ منه قبسات، في عبارات شفهية وكتابات يدوية، فصلتها في بطاح نجد، موطن الفصاحة والبيان، ومنبِت رُعاة السُّنّة، وباشرت تنفيذ ما يوجّه إليه، فكلفت طالبًا في كلية الآداب والعلوم الاجتماعية من جامعة الإمام بالقصيم، كلفته ببحث عنوانه: «أساليب التوكيد في أحاديث الموطأ»، فنال تقدير الامتياز، وكان بادرة طيبة تشجّع على المتابعة والإنجاز. وفي حفل وداعي تلك المواطنَ الطيّبة المباركة، بسطت القول في ذلك

هديّة، قدمتها إلى قيادات جامعة الإمام في القصيم، وهم يحتفلون بتكريمي أيام الوداع، قدمتها إليهم مصوغة في رجاء، أن يحققوا مضمونها بعملين اثنين:

أولهما: تشكيل لجنة من علماء الحديث والعربية، لاختيار الأحاديث التي يصح الاسشهاد بها من المصادر النبوية المطهّرة، تُجمع في كتاب متميز ميسر للتداول، خدمة للراغبين في البحث الكريم في علوم العربية، ودفعًا لاستطالات الروايات والأحكام.

والثاني: تكليف طلاب الدراسات العليا في الجامعات والمعاهد بأبحاث نحوية تأصيلاً وتحليلاً وتفريعًا وتطبيقًا، في الإعراب والصرف ومعاني الأدوات، تعتمد الاحتجاج بالحديث الشريف، لتملأ الثغرات الموروثة عن تاريخ النحو العربي.

هذه الهدية قوبلت في حينها بالحفاوة البالغة، ولم يكن عنها شيء عملي يُذكر حتى الآن فيما أعلم. فلا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم. ولما عدت إلى جامعة حلب شرعت أوجّه طلاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية إلى شق القنوات وتعبيد السبل ومد الجسور بالبحث والاستقصاء، تحقيقًا لما ابتغيته من ذلك الأمل المنشود.غير أن العقدة الضائعية الحيّانية[٥١]، كانت متأزمة مستعصية في نفوس بعض الزملاء الكرام، تحول دون موافقة المجالس العلمية على موضوعات نحوية مادتُها الحديث المشرَّف، وكانت مداولات ومحاورات ومنازعات انتهت – والحمد لله – بقبول مبدئي ضيق، على استحياء وتسليم غير نهائي.

(٥١) أي: المنسوبة إلى ابن الضائع وأبي حيان.

ثم قدّمتُ إلى مجلس الهيئة التعليمية، في كلية الآداب، اقتراحًا للسماح بتوظيف الحديث النبوي الكريم في الدراسات النحوية واللغوية، فكان إقرار مبدئي أيضًا بعد مداولة ودّيّة وحوار لطيف، مع رفعٍ لذلك إلى المجالس الجامعية والوزارية لإبداء الرأي. وقد مرّ الموضوع بين تلك المجالس، بعون الله، مرْضيًّا مقرَّرًا، وجاءت بذلك موافقة وزارة التعليم من دمشق مشكورة، ممهورة بالتقدير والاحترام، لِما هي عليه من الريادة في التعريب ورعاية عروبة اللسان وما يتعلق بها، من واقع حقول التعليم والإعلام والإعلان والتوجيه.

وبهذا فُتحت لنا الأبواب على مصاريعها، وأُطلق لنا العِنان، لنقوم بواجبات السُّنّة المشرّفة، في ميادين اللغة والإعراب والصرف والأصوات والمعجمية. وقد تسنّى لي أن أُشرف على أبحاث كثيرة في الميدان النحوي، قام بها طلاب من مختلف المراحل الدراسية العليا، وكان منها حتى الآن:

النحاة والحديث الشريف حتى القرن التاسع، أسلوب النداء في صحيح البخاري، الجموع في أحاديث الموطأ، أساليب اللزوم والتعدية في الأحاديث القدسية، أسلوب الاستفهام في أحاديث الموطأ، الحديث النبوي الشريف في معجم العين، معاني الحروف الجارة في اللؤلؤ والمرجان، الاستشهاد بالحديث في معجم «الصحاح»، مواقع الاعتراض النحوي ومقاصده في أحاديث الموطأ – دراسة تطبيقية، الصفات اللغوية في أحاديث صحيح مسلم صيغة ووظيفة ورتبة، الأفعال الناقصة في صحيح البخاري دلالة وتركيبًا وعملاً – دراسة تطبيقية، التركيب النحوي في سنن النَّسائي.

وهكذا اخترقنا بعون الله ﷻ حجب النزاع والخصام، بين أصحاب الجدل والتمحل والتعسف والحجاج، ودخلنا حَرَم العمل الكريم، بإنتاج عملي

مبارك، كان لنا فيه الريادة والاستكشاف، وشجع الزملاء في قسم اللغة العربية على المتابعة والولاء، فكان منهم إنتاج أو إشراف على عدة أبحاث من مثل:

الجملة في أسلوب القصّ النبوي – أحاديث البخاري نموذجًا، التركيب اللغوي في الحديث الشريف فيما اتفق عليه الشيخان، جوامع الكلم، غريب الحديث وأثره في علوم اللغة والبلاغة، الحديث النبوي في المعجم العربي حتى نهاية القرن الرابع، الحديث النبوي في المعجم العربي من بداية القرن الخامس إلى نهاية القرن التاسع، الاحتجاج بالحديث النبوي في شروح ألفية ابن مالك، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف.

لقد كان زملاؤنا الأكارم، منذ القرن الخامس، يطرقون باب الموضوع، بعضهم حبيس في الداخل وبعض طليق من الخارج، ويقفون محجوبًا بعضهم عن بعض متحاورين متخاصمين، حتى مضى عليهم ثمانية قرون ونيّف، وهم في شقاق واتهامات بالتجهيل والقصور والعدوان. ولم يستطيعوا القيام بحركة واحدة تبشر بشيء من الحل، للمعضلة التي اصطنعوها، وداروا من حولها يثيرون الجزئيات المتناقضة، ويلهبون عقول الناس بالحجاج والمقولات المبنية على ما اصطنعوه من الأوهام.

أما نحن فقد يسر لنا الله ﷻ أن ندفع الباب ونزيح الفريقين ونقتحم الميدان الملتهب، لنطفئ شعلة الخلاف والشقاق، وننزع فتائل الخصام والاتهام، فاستقبلتنا السُّنّة المشرَّفة بوجهها المتألق الإشراق. وبذلك أصبحت السبيل معبدة ميسرة سالكة، لكل محب باحث أو دارس. ثم شرعنا عمليًّا بعون الله ﷻ ننفذ

ما نادينا به وفتحنا أبوابه، فأنجزنا عددًا كبيرًا[٥٢]، من الأبحاث العلمية المتقنة سردنا عناوينها قبل قليل، وهي نماذج ضافية يجد فيها الزملاء تطبيقات موضوعية، تساعد على تعميق الخطوط المرسومة، وتحقق ما عجزتْ عنه القرون العشرة، بما فيها من الأعلام والعلماء وأساطين المعرفة.

وكأن ما أصدرناه من نداء وأجريناه من أعمال تجاوبت أصداؤه في أسماع الباحثين، والمشرفين على الدراسات العليا ببعض الجامعات العربية، فتوالت أبحاث طيبة تحقق ما دعونا إليه، من نحو: السير الحثيث إلى الاستشهاد بالحديث في النحو العربي، الدافع الحثيث إلى استشهاد النحاة بالحديث، دلائل التوثيق المبكر للسُّنّة والحديث، بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين.

* * *

على أنه لا بد من الإشارة أخيرًا إلى تحفّظ جدير بالاهتمام، وهو أن ما يعتمد في هذه الأبحاث من الأحاديث يجب أن يقتصر على ما جاء في «**الصحاح**» وأمثالها من مصادر السُّنّة المشرَّفة، لما جرى في اختيارها من الدقة العلمية والوسائل العملية لتلقي اللفظ والمعنى، كما ذكر الفيومي والشاطبي والدماميني والحلبي وغيرهم من المتأخرين والمعاصرين لنا.

(٥٢) هذه الجهود الطيبة سُجلت، لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة حلب، سبقًا منهجيًّا في ميادين البحث اختصّت به وحققتْه، كما كان لها من قبل السبق في أبحاث تتناول الأدوات النحوية والموضوعات الصرفية أيضًا. كان ذلك كله بفضل ما يسره الله على يديّ، وله الحمد والشكر على كل حال.

أما ما جاء في غيرها، من كتب: الأدباء والوعّاظ والقصاصين والمتصوفة، أو ما يجري تداوله في المجالس والمنتديات والمؤتمرات والندوات والمطارحات ومنابر الخطابة والوعظ والتعليم على غير تحرٍّ للرواية المطهّرة، فهو ذو شأن آخر يقتضي التثبت والتحقيق قبل إدراجه في عداد الموثقات.

ولقد أغفل المثبطون هذه الحقائق الموضوعية في قيود روايات الحديث، وخلطوا بين مستويات الأحاديث عامّة، ليُلقوا بترّهاتهم الضبابية المضلِّلة. وكلنا يعلم أن ما دخل النصوص النبوية من وضع أو تصرّف أو تغيير في المصنفات العامّة تجنب المحدّثون مزالقه، وأسسوا مناهجهم في التلقي والنقد والاختيار، وحدّدوا مصادرهم في الرواية – وهم أعلم بها – ليؤخذ عنهم من مقولات النبوّة ما هو صحيح موثق، ويترك ما كان فيه علة أو شذوذ أو تصرف شخصي بقصد أو بدونه، وهي مجموع مصنفات غفيرة، تبيّن المنزلة الحقيقية لكل نص منها بالأدلة العلمية المقرّرة.

جهود المستشرقين الألمان في دراسة اللهجات العربيّة المحكيّة وتحديات العولمة

د. ظافر يوسف(*)

١– مقدّمة:

تعدّ اللغة العربيّة بتاريخها الطويل وتراثها الحافل وثروتها اللغوية الهائلة من أقدم اللغات في العالم وأهمِّها، فقلَّما نجد لغة في العالم تتمتَّع بمثل هذا التاريخ الطويل عبر آلاف السنين، فنحن لا نعرف حتى الآن متى وُجِدت اللغة العربية أول مَرَّة، ولا كيف كان مظهرها؟ ما نعرفه أنَّ تاريخ اللغة العربية يعود إلى عصور ضاربة في القدم ترجع إلى ما قبل التاريخ، ولا سيما إذا علمنا أنَّ أقدم وثيقة مسمارية يُذكَرُ اسم العرب فيها تعود إلى سجلات الملك الآشوري سلمنصَّر الثالث Salamanassar III في معركة قرقر عام ٨٥٣ ق. م إذ يُذكرُ في التَّحالف المعادي له جندب Gindibu من بلاد العرب Arabaya الذي اشترك بـ(١٠٠٠) جمل، وجندب هو اسم علم يستعمل بكثرة في العربية الشمالية. وكذلك يرد اسم العرب مرارًا في الوثائق التي وصلتنا من عهد الملك تِغْلَت بيليصر الثالث Tiglatpilesar III الذي حكم بين عامي ٧٤٥ – ٧٢٧ ق. م، فإلى جانب Arbaya عثر على الصيغ الآشورية Arubu و Aribi للعرب(١).

(*) أستاذ النحو واللغات السامية واللغة الألمانية في جامعة حلب.

(١) ينظر كتاب Grundriss der Arabischen Phylologie, von» Wolfdietrich «Fischer, Bd. I, S.١١.

أمَّا العهد القديم «Das Alte Testament» فيُذكَرُ فيه ملوك العرب وبعض أسماء القبائل العربية، وكذلك الملك قِدَر Qedar من قبيلة جشم Gasmu العربية التي أعادت في عام ٤٤٤ ق. م بناء مدينة القدس(٢).

وإذا كان اسم العرب لا يرد قبل هذه الوثائق التاريخيَّة، فإنَّ هذا – بالتأكيد – لا يعني أنَّ وجود العرب يبدأ بهذا التاريخ، وما دام العرب قد ذُكروا في هذه الوثائق، فلا شكّ أنَّ وجودهم سابق لها. إنَّ ما نريد أن نصل إليه من هذه المقدِّمة أنَّنا إذا كنَّا نجهل العمر الحقيقي للغة العربية، فإنَّنا لا نستطيع إلاَّ أن نؤكِّد امتداد جذورها إلى قرون طويلة سابقة للميلاد، وهذا ما ذهب إليه علماء الساميّات الذين يَعُدّون اللغة العربية أقدمَ لغة ساميَّة على الإطلاق، وذلك لأنَّها اللغة الساميَّة الوحيدة التي حافظت على اللفظ الصحيح للأصوات الساميَّة، ولأنَّها اللغة الوحيدة من بين شقيقاتها التي احتفظت بظاهرة التنوين والإعراب. أضف إلى ذلك أنَّ اللغة العربية هي أغنى اللغات الساميَّة بالمفردات والثروة اللغوية، وكذلك بالنظام النحوي والصرفي والصيغ الاسمية والفعلية وغير ذلك. ولهذا السبب يُقبل المستشرقون ودارسو اللغات الساميَّة على تعلّمها وإتقان قواعدها في النحو والصرف، ليس من أجل فهمها فحسب، وإنَّما من أجل فهم اللغات الساميَّة الأخرى، وإجراء الدراسات اللغوية المقارنة فيما بينها. فالعربية لغة، جذورها ضاربة في القدم، وتاريخها متأصِّل في العراقة، وإنَّ عدم وجود آثار كتابية أو وثائق مدوَّنة من تلك الحقبة لا يعني بحال من الأحوال عدم وجود اللغة العربية، ذلك أنَّ

(٢) ينظر المصدر نفسه ص ١٠– ١١؛ وكذلك الكتاب المقدس (العهد القديم) على سبيل المثال سفر حزقيال ٢١،٢٧؛ وسفر إرميا ٢٤،٢٥.

الإنسان تكلَّم أوَّلاً ثم كتب بعد ذلك[٣]. ونطمئن إلى ذلك بوجه خاص إذا علمنا أنَّ العرب كانوا قد اشتُهِروا بالرواية الشفوية وتناقل الأخبار وتوارثها خلفًا عن سلفٍ وجيلاً بعد جيل، وقد حفظوا لنا أشعارهم وأخبارهم وأيَّامهم وأمثالهم وتراثهم عن هذا الطريق.

إنَّ المعلومات عن اللغة العربية في تلك الحقبة من الزمن مقتضبة جدًّا، ويكتنفها الغموض، بل هي بكل بساطة غير متوفِّرة أساسًا. ولعلّ طبيعة الحياة الصحراوية القبلية التي كان يعيشها العرب في شبه الجزيرة العربية، وما تقتضيه من تنقّل وترحال طلبًا للماء والمرعى هي السبب في ذلك.

٢– نشأة اللغة الفصحى:

تشير مصادر البحث إلى الطابع القبلي للحياة في عصور ما قبل الإسلام، إذ كانت القبائل العربية منتشرة في كلّ مكان من أرجاء الجزيرة العربية، وكان لكلّ قبيلة منها لهجتها الخاصّة بها، ثمَّ ما لبثت تلك اللهجات أن أخذت تتقارب فيما بينها، وتعمل فيها عوامل الامتزاج والتنقيح والاختيار إلى أن ظهر من بينها ما يسمَّى باللغة المشتركة الموحَّدة[٤]. هذه اللغة التي رأى فيها العرب قاسمًا مشتركًا يربط بينهم، ويوحِّد لسانهم، وقد استعملها الشعراء في قصائدهم وتباروا فيها في أسواقهم العامَّة ومنتدياتهم الأدبية، وتناقل الرواة بها أجود

(٣) إنَّ أقدم كتابة عربية وصلت إلينا من حقبة ما قبل الإسلام اكتُشِفت في عام ١٩٠١ في النمارة التي تقع على بعد ١٢٠ كم جنوب شرق دمشق، وهي نقش كُتِبَ على قبر الملك امرئ القيس يعود إلى عام ٣٢٨ م، ويعرف بنقش النمارة.

(٤) ينظر مشكلة العاميَّة والفصحى في تعليم اللغة العربية للأجانب/ مصطفى النحاس عبد الواحد ص٢١– ٢٥ و٥٤ – ٥٥؛ وفصول في فقه العربية/ رمضان عبد التوَّاب ص ٧٦ – ٩٥؛ ومدخل إلى فقه اللغة العربية / أحمد محمد قدور ص ٦٣ – ٦٩.

القصائد وأروع الأشعار في جميع أنحاء الجزيرة العربية، وأصبحت بذلك لغة الشعر والأدب أو ما يُعرَف بديوان العرب.

إنَّنا لا نستطيع أن نحدّد تمامًا الزمن الذي اتَّخذت فيه لغتنا العربية شكلها النهائي الذي تمثّله الفصحى. هذا الشكل الكامل النضج، سواء من حيث الإعراب والتصريف والاشتقاق، أو من حيث التنوّع الواسع في المصادر والجموع وحروف الجر والعطف وأدوات الاستثناء والتعريف والتنكير والممنوع من الصرف وغير ذلك. إنَّ هذا النظام الصوتي المتكامل، الذي اقتضى أن تحتفظ العربية بأصوات فقدتها أخواتها الساميّات من مثل الثاء والخاء والذال والظاء والضاد والغين، والنظام الصرفي الذي يحتفظ بجموع التكسير، والنظام النحويّ الذي يقوم بمجمله على الإعراب، لا نجد له مثيلاً في معظم شقيقات العربية. إنَّه لمن المؤكّد أنَّ العربية الفصحى لم تصل إلى هذه الصورة التامَّة إلاّ بعد أن مرَّت بمراحل طويلة من النمو والتطوّر، وإنْ كانت الوثائق والآثار الكتابية المحدودة التي وصلت إلينا في مرحلة متأخّرة لا تساعدنا على معرفة البدء الحقيقي للعربية الفصحى التي لا نجدها إلاّ متألّقة متداولة في أشعار ما يُعرف بالعصر الجاهلي في أواخر القرن الخامس الميلادي وأوائل السادس منه(٥).

إنَّ النقوش القليلة التي تمّ العثور عليها، والتي تعود إلى القرن السادس الميلادي من مثل نقش زبد المؤرّخ بسنة ٥١٢ للميلاد، ونقش حرَّان اللَّجا المؤرَّخ بسنة ٥٦٨ للميلاد، تُظهر أنَّ الخطّ العربيّ اكتمل في بداية القرن السادس، وأنَّ الفصحى نفسَهَا اكتملت وأخذت شكلَها النهائيّ بنصوص

(٥) ينظر العصر الجاهلي / شوقي ضيف ١١٧– ١٢١.

الشعر الجاهليّ التي يرجِع أقدمُها إلى قُرابة منتصف القرن الخامس. فمنذ هذا التاريخ تقاربت لهجات القبائل، وأصبحت هناك لغة أدبية عامَّة مشتركة بدأت تنتشر في ربوع الجزيرة العربية وهي التي تُعرف بالفصحى، وبها أخذ الشعراء ينظمون قصائدهم، وأخذ الخطباء يلقون خطبهم.

وعندما نزل بها القرآن الكريم بمعانيه الساميَّة وقيمه الرفيعة وبيانه المعجز عزَّز من مكانتها ورفع من شأنها، وأشاد بتمايزها عن غيرها من اللغات. وليس هناك من شكّ في أنَّ هذه اللغة الفصحى كان يفهمها جميع الناس في شتى القبائل العربية، ولهذا السبب نزل القرآن الكريم بها. ونستنتج من الحديث النبوي الشريف «أُنزِلَ هذا القرآن على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسَّر منه» أنَّ هناك إشارة إلى انتشار اللهجات بين القبائل، وأنَّ الرسول ﷺ كان يرخِّص قراءة القرآن بما يستغرق هذه اللهجات، لكي يقرأ كلّ بلهجته ريثما تؤاخي لهجة القرآن المشتركة بينهم(٦).

والواقع أنَّ الحديث عن اللغة العربية في ظلّ الإسلام يأخذ منحًى جديدًا، فقد أصبحت لغة الدين والدولة، والعلم والأدب، وبها وُضعت آلاف المصنَّفات والكتب في مختلف مجالات العلم والمعرفة، وإليها تُرجمت خلاصة علوم اليونان والهند والفرس إلى أن أصبحت الركن الأساسيّ في بناء الأمَّة العربية والعامل الأوَّل في التعبير عن مقوِّماتها الفكرية والعلمية والثقافية والحضارية.

٣– توصيف الواقع اللغويّ الراهن في الوطن العربيّ:

ليس هناك بقعة في العالم المعاصر تشبه البقعة العربية في غناها اللغوي وتنوعها الحضاريّ والثقافيّ والفُلكلوريّ، فقد عايشت المنطقة العربية عبر الزمن

(٦) ينظر القراءات الشاذّة وتوجيهها النحوي/ محمود الصغير ص ١٨، ٢١.

مختلف العهود والحضارات، وجاورت وخالطت عددًا كبيرًا من الشعوب والأعراق، وقد ترك هذا التجاور والاختلاط – بالتأكيد – أثرَه في الواقع اللغويّ، فكان هذا سببًا مباشرًا في نشوء الازدواجية اللغوية، ومن يدقِّق النظر في الواقع اللغوي الراهن يجد فيه استمرارًا للواقع اللغوي التاريخي الذي كان سائدًا منذ تَكَوُّنِ اللغة العربية الموحَّدة في شبه الجزيرة العربية التي اصطلحنا على تسميتها بالفصحى إلى جانب لهجات القبائل، فما زالت الازدواجية اللغوية على حالها، وما زال هناك لغتان أو على الأصح مستويان لغويان يتميَّز أحدهما من الآخر تميزًا واضحًا، فالمستوى الأوَّل: هو المستوى الرسمي الذي تمثِّله اللغة العربية الفصحى، بقواعدها المعروفة في الأصوات والنحو والصرف(٧). ويستعمل هذا المستوى في التعامل الرسمي والتعليم والبحث العلميّ وفي الكتابات الأدبية والمحاضرات العلمية والثقافية، والعبادات والإعلام.....إلخ. ومما تجدر الإشارة إليه هنا أنَّ هذا المستوى هو الذي نلجأ إليه عند الكتابة، أو كما يسمِّيه البعض باللغة المكتوبة.

أمَّا المستوى الثاني فهو المستوى الذي نستعمله في حياتنا اليوميَّة خارج نطاق التعامل الرسميّ، ونستعمل فيه لهجتَنا المحلِّية التي تعلَّمناها في البيت أو الشارع، وفي هذا المستوى تجري جميع عمليات التفاهم والتعامل الشفهي، وهو الذي يُطلق عليه بعضهم اسم اللغة المنطوقة أو المحكية. لقد كان هذان المستويان سائدين منذ نشأة اللغة العربية وتكوُّنها، فأفراد القبائل العربية كانوا قديمًا يتكلَّمون بلهجاتهم

(٧) مع الاعتراف بحقيقة واحدة وهي أنَّ اللغة العربية التي نستعملها اليوم بوصفها «اللغة الفصحى» ليست تلك اللغة التي وضع لها النحاة والصرفيون القواعد المعروفة، لأنَّ مادتها تغيَّرت تغيُّرًا كبيرًا، وهي مستمرَّة في التغيُّر على ألسنة الناطقين بها، ما دامت الحياة متغيِّرة.

المحلية في موضع سكناهم، وينظمون أشعارهم باللغة الفصحى التي يتوجَّهون بها إلى سائر القبائل على تباعد مضاربهم وتنوّع منازلهم، على النحو الذي هو سائد اليوم تمامًا.

٤– رأي المستشرقين الألمان بالازدواجية اللغوية العربية:

يرى المستشرقون الألمان أنَّ اللغة العربية تظهر بوضوح في مستويي تطوّر مختلفين:

أ – اللغة الفصحى أو كما يسمّونها العربية القديمة.

ب – اللهجات المحليَّة أو كما يسمّونها العربية الجديدة.

فالعربية الفصحى لها نمط لغوي قديم جدًّا يمكن مقارنته باللغة الأكّاديّة من نواحٍ كثيرة، ومنها الإعراب الذي تخلَّت عنه الأكّادية فيما بعد، وهي تظهر لنا بما يمكن تسميته بالعربية الكلاسيكية، وهي لغة ذات معايير وقواعد قياسية ثابتة تصل أقدم نصوصها ووثائقها إلى عصر ما قبل الإسلام.

إنَّ الشعر العربيّ القديم الذي جمعه اللغويون العرب ودوّنوه في بداية القرن الثامن الميلاديّ، والذي ترجع روايته إلى النصف الأوَّل من القرن السادس، يُعَدّ، مع القرآن الكريم، الذي تنزَّل بين سنتي ٦١٠ – ٦٣٢م، نمطًا نموذجيًّا للغة العربية الفصحى. وقد استند لغويّو القرنين الثامن والتاسع الميلاديين إلى القرآن الكريم والشعر العربيّ في وضع قواعد اللغة العربية الكلاسيكية، ونظام نحوها وصرفها، حتى غدت مهيَّأة لتصبح لغة الثقافة والحضارة الإسلاميَّة على مرِّ العصور.

أمَّا اللهجات المحلِّيّة أو ما يُسمَّى بالعربية الجديدة فهي تشبه في نشأتها ونمطها اللغويّ التطوُّرَ الذي حصل داخل اللغة الآرامية تمامًا، وهي تواجهنا في

المقام الأوَّل كلهجات عربية محكية في العصر الحاضر، يعود نمطها اللغويّ إلى عصور قديمة تصل إلى القرن التاسع الميلاديّ عندما كان لكل قبيلة لهجتها.

٥– نشأة اللهجات العربية المحليّة:

إنّ السؤال الذي يطرح نفسه: متى نشأت اللهجات العربية المحلِّيّة (العربية الجديدة)؟ ومتى توقَّفت العربية الفصحى عن أن تكون لغةً محكيَّة في الحياة اليومية، لتقتصر في الاستعمال على الأدب والعلم وإدارة الدولة، وتبقى حيَّة في التعامل الرسميّ فقط؟ وللإجابة عن هذين التساؤلين نبادر إلى القول: إنَّه لمن الصعب جدًّا إعطاء حكم دقيق حولهما، لأنَّ المصادر والوثائق الكتابية القليلة التي وصلتنا من مرحلة ما قبل الإسلام وما بعده بقليل لا تقدِّم لنا صورة واضحة أبدًا، ولا تعطينا إجابة شافية عن الواقع اللغوي الحقيقيّ في تلك الحقبة، وذلك بسبب خصوصيات ضبط الكتابة العربية Orthographie، ويسوق لنا المستشرقون الألمان رأيين مختلفين أو فرضيَّتين حول هذا الموضوع، وهما:

١– الفرضيّة الأولى: تقول بأنَّ الازدواجيَّة اللغويَّة كانت موجودة على حَدٍّ سواء في معظم مدن الجزيرة العربية مثل مكَّة وغيرها، وكذلك عند القبائل العربية البدوية في عصر الرسول محمّد ﷺ، وربَّما قبله بأزمنة، إذ كانت هناك اللهجات المحليَّة التي اصطلحنا على تسميتها بنمط العربية الجديدة، أيّ العربية التي يُنطق بها دون نهايات إعرابية. أمَّا اللغة الفصحى فكانت تقتصر على الشعر، وهي تمثِّل نمط العربية القديمة، وهذه تُكتسب وفق تقاليد معيَّنة، وهي تختلف قليلاً أو كثيرًا عن لغة الحياة اليوميَّة المتداولة.

ويمثِّل هذه الفرضية عدد من المستشرقين الألمان أمثال أوغست فيشر وكارل فوللرس وأنتون شبيتالر وهانس فير وغيرهم، الذين يستندون قبل كلّ شيء إلى

طريقة ضبط الكتابة العربية Orthographie التي تَكتب – كما هو معروف – الحروف فقط، وتهتمّ جزئيًّا بالحركات الطويلة، وتهمل تمامًا كتابة الحركات القصيرة. فلو كانت اللغة العربية الفصحى (نمط العربية القديمة) هي السائدة فعلاً حتَّى نهاية القرن السابع الميلاديّ سيادةً مطلقة، لَوَجَبَ أن تكتب منطقيًّا النهايات الإعرابيَّة في حالة تنكير الاسم (-un,-in,-an) وكذلك علامة التأنيث (-at) بما يناسبها من علامات، كما يحدث حقيقة في اللغة العربية الجنوبية (Altsuedarabisch). والواقع أنَّ النقوش العربية التي وصلت إلينا من حقبة ما قبل الإسلام، لم تُكتَبْ فيها علامة التنوين (-n) ولا علامة التأنيث (-t)، وهذا ما يمكن تفسيره ببساطة بأنَّ طريقة الكتابة العربية تثبت بوضوح انتشار نمط العربية الجديدة، أي اللهجات المحليَّة، والدليل على ذلك كتابة علامة التأنيث في نهاية الكلمة في ذلك الوقت بالهاء (-ah) أو (-a) بالوقف، وليس بـ (-atu) أو (-atun) أبدًا[٨].

٢– الفرضية الثانية: وتنصّ على أنَّه كانت هناك لغة واحدة في زمن الرسول محمّد ﷺ والعقود التي تليه، وهي اللغة العربية الفصحى (نمط اللغة العربية القديمة). وكانت هذه اللغة تُستعمل في الشعر والحياة اليوميَّة على حدٍّ سواء، ولم يكن هناك اختلاف بين اللغة التي نعرفها من القرآن الكريم والشعر الجاهلي وبين اللغة المحكية في ذلك الوقت.

أمَّا اللهجات المحليَّة (نمط العربية الجديدة) فنشأت بعد الفتح الإسلاميّ لبلاد الشرق الأدنى وشمال إفريقية، وإيجاد نظام الخلافة, ودخول شعوب هذه

(٨) ينظر كتاب Handbuch der Arabischen Dialekte, von W.» Fischer und O. Jastrow, S. ١٦«.

البلدان في الإسلام. ونتيجة للاحتكاك الذي حصل بين العربية وبين لغات الشعوب التي كانت تقطن هذه المناطق كالآراميّة واليونانيّة والقبطيّة والبربريّة والرومانيّة، توقَّفت اللغة العربية الفصحى (نمط العربية القديمة) عن أن تكون لغة محكيّة، وعندها فقط نشأت اللهجات المحليّة (نمط العربية الجديدة). ويمثِّل هذه الفرضية كلّ من تيودور نولدكه ويوهان فوك، ويوسوا بلاو وغيرهم. فيرى نولدكه مثلاً أنَّ عملية ضبط الكتابة العربية Orthographie وُضِعَتْ في الأساس لتطابق لفظ اللهجات المحليَّة (نمط العربية الجديدة) من حيث عدم كتابة النهايات الإعرابية (-n) وعدم كتابة علامة التأنيث (-at) ممَّا يمكن تفسيره بأنَّ كلّ كلمة لم تكن تُكتب في شكلها السياقي، وإنّما منفصلة عن غيرها في وضعية الوقف (Pausalform)، وهكذا فإنَّ المرء كان يكتب – كما يرى نولدكه– لفظ كلّ كلمة في وضعية الوقف مفصولة عن السياق الذي تقع فيه. وهذه الفرضية نجدها مطابقةً لتقاليد اللغويين العرب التي لا تقرّ إلاَّ بوجود شكل واحد للغة، وهو اللغة العربية الفصحى (الكلاسيكية) بنمطها اللغوي القديم. أمَّا اللهجات المحليَّة (النمط اللغوي الجديد للعربية) فما هي برأيهم إلاَّ لهجات محكيَّة لا يمكن أن تكون أكثر من وسائل تعبير خاطئة أو عاميَّة فاسدة نشأت بعد اعتناق غير العرب الإسلام، واختلاط الشعوب بعضها ببعض خارج الجزيرة العربية.

إنَّ اللحظة الحاسمة في ولادة اللهجات المحلِّيَّة (نمط العربية الجديدة) كانت في اختفاء حركات الإعراب القصيرة من أواخر الكلمات، وباختفائها تكون الأسماء قد فقدت كامل نظام تصريفها الإعرابيّ. ويمكن أن نستنتج من كتابة أسماء الأعلام العربية في نقوش الأنباط الآرامية أنَّ نظام الإعراب والحركات

الإعرابية كان قد بدأ يفقد وظيفته في المدة الواقعة بين ٣٠٠ ق. م – ٣٠٠ بعد الميلاد في اللغة العربية الفصحى (نمط اللغة العربية القديمة) وتحطَّم تمامًا في نهاية هذه المرحلة. ولهذا السبب فإنَّ اللهجات المحليَّة يمكن أن تكون قديمة جدًّا، مثلها مثل أقدم وثائق الشعر العربي القديم الذي وصلنا على أنَّه يمثِّل النموذج الأعلى للغة العربية الفصحى.

وتظهر آثار اللهجات المحليّة الجديدة في كتابات القرنين التاسع والعاشر الميلاديين في الخروج عن القواعد المقررة وظهور الانحرافات اللغوية التي تخالف الاستعمال اللغوي، وهذا يبيِّن لنا أنَّ شكل اللهجات العربية الحالي قد تكوَّن في هذين القرنين، وبدأ منذ ذلك الحين تدفّق السيل الغزير من الرسائل والمصنَّفات التي تعالج أخطاء الشعب اللغوية تحت ما يُسمَّى بكتب لحن العوام، هذه الكتب التي تُعدّ مصدرًا هامًّا للبحث في اللهجات العربية المحليَّة. وما يشار إليه ها هنا أنَّ هذا النوع من المصنَّفات لم يظهر لأنَّ الشعب لم يكن يتكلَّم في حياته اليوميَّة اللغة العربية الفصحى، بل لأنَّ استعمال اللهجات العربية الجديدة كان قد تسرَّب إلى لغة الكتابة أيضًا. إنَّ مثل هذا النوع من «العربية ذات الأخطاء» بنظر اللغويين العرب، تتمثَّل في مجموعة كبيرة من النصوص التي صنِّفها عدد من المؤلِّفين الذين لم يكونوا يتقنون اللغة العربية الفصحى جيِّدًا، وبسبب وقوع هذه النصوص بين اللغة السليمة قواعديًا (الفصحى) وبين اللهجات المحكية، تصنَّف على أنَّها من العربية المتوسِّطة[٩].

ومهما يكن الأمر فإنَّ الغموض مازال يحيط بالأسباب الحقيقيَّة التي أدَّت

(٩) ينظر: Handbuch der Arabischen Dialekte, W. Fischer u. O. Jastrow, S.١٨.

إلى نشوء اللهجات العربية المحليَّة، وتنوُّعِها بهذا الشكل الفريد من نوعه في العالم، ومازلنا نجهل أسباب التطوُّر التي حصلت في كلّ لهجة على حدة، والعوامل التي أسهمت في توجيهِها هذه الوُجْهَة أو تلك. إنَّ اللهجات المحليَّة العربية تُظهِرُ على كلّ حال الاتِّجاهَ للتَّكيُّف بعضها مع بعض، وتستجيب باستمرار للتَّأثير المتزايد فيها من اللغة العربية الفصحى. فمتى يأتي اليوم الذي تزول فيه الفروق بين هذه اللهجات، وتصبح فيه موحَّدة؟

٦– دراسة اللَّهجات العربيَّة في الجامعات الألمانيَّة:

لا بدَّ من الإشارة في البداية إلى أنَّ ألمانية بدأت بدراسة اللغة العربية في مرحلة مبكرة نسبيًّا ترجع إلى العصور الوسطى، وكان ياكوب كريستمان J. Christmann (١٥٥٤– ١٦١٣) أوَّل من حاول تدريس اللغة العربية ونشرها في ألمانية، فقد وضع كراسًا لتعليم كتابة الحروف العربية، وترجم أجزاءً من الإنجيل إلى العربية للتمرّن على القراءة، وصنَّف فهرسًا موجزًا لمجموعة من المخطوطات العربية التي كانت في حوزة أحد النبلاء الألمان. ثمّ ما لبثت الدراسات العربية أن نشطت فيما بعد، وقد كان لكلّ من فرايتاك Freitag، وكاسباري Caspari، ونولدكه Noeldeke، وبرجشتراسر Bergstraesser، وكارل بروكلمان، وغيرهم دور بارز في تطوير الدراسات العربية في ألمانيا وإغنائها، وقد أظهر المستشرقون الألمان القدامى اهتمامًا كبيرًا بالتراث العربيّ وقاموا بتحقيقه ونشروا عشرات الكتب منه. وقد تعدَّدت الاتجاهات التي سارت بها دراسات اللغة العربية وطرق تعليمها(١٠).

(١٠) إنَّ ما تجدر الإشارة إليه هنا أنَّ معظم الجامعات الألمانية التي تقوم بتدريس اللغة العربية تبدأ بالفصحى أوَّلاً، إذ يتلقَّى الدارسون قواعد اللغة العربية الفصحى، ويتعلَّمون قراءة نصوص التراث وتحليلها، ثمَّ تأتي بعد ذلك مرحلة دراسة اللهجات لمن يريد. والاستثناء الوحيد في ذلك هو جامعة أمستردام في هولندا، إذ تبدأ دراسة اللغة العربية فيها بدراسة اللهجة المصرية لعدد من الفصول الدراسيَّة، ثمَّ بعد ذلك تأتي دراسة اللغة الفصحى.

أمَّا ما يسمَّى بعلم اللهجات العربيَّة أو بArabische Dialektologie فالمعروف أنَّ للبلدان الناطقة بالألمانية فيه تقاليد عريقة، تعود جذورها إلى أكثر من مئة سنة خلت، فإلى Stumme وSpitta وKampffmeyers وSocin وReinhardt تُنسب أولى الأعمال التي دُوِّنت حول بعض اللهجات العربية. فمنذ ذلك الحين بدأ المستشرقون الألمان بالاهتمام باللهجات العربية، وقد ازداد هذا الاهتمام بعد الحرب العالمية الثانية خاصَّة، مع التقدّم التقني الهائل الذي حقَّقته وسائل الاتِّصال، وسهولة الحركة والانتقال بين البلدان، وتشجيع مراكز البحث العلمي على القيام بأبحاث ميدانية في البلاد العربية. واستطاع هذا العلم أن ينهض على قدميه في السنوات الأخيرة، وأن يحقِّق تقدّمًا كبيرًا، فبعد أن كانت نقاط صغيرة فقط مضاءة في خضم بحر اللهجات الكبير، توسعت الدراسات في أيَّامنا هذه حتى شملت لهجات محلية كثيرة(١١). ولعلّ أهمّ جامعتين في ألمانية مختصَّتين حاليًا بالبحث في اللهجات العربية هما جامعتا إرلنغن Erlangen وهايدلبرغ Heidelberg، فهما تهتمان بالعديد من مشاريع دراسة اللهجات في البلاد العربية(١٢).

إنَّ الهدف الذي يسعى علم اللهجات العربية في ألمانية Arabische Dialektologie إلى تحقيقه، ليس زرع بذور الشقاق بين الناطقين بالعربية، ولا الدعوة إلى الترويج لاستعمال اللهجات العامية بدلاً من الفصحى أبدًا. إنّ ما

(١١) ينظر على سبيل المثال فهرس كتاب Arabische Dialektgeographie, von P. Behnstedt u. M. Woidich ففيه أسماء المئات من الكتب التي تدرس اللهجات العربية.

(١٢) تقوم الجامعتان حاليًا بالعديد من المشاريع لدراسة اللهجات العربية في كلّ من فلسطين والمغرب وتونس ولبنان وسورية، فعلى سبيل المثال نذكر الدراسة التي تعدّ حول لهجة «محردة» في سورية، ولهجة «صور» في لبنان.

يهدف إليه حقيقة هو دراسة هذه اللهجات المحلِّية التي يتكلّمها الناطقون بها دراسة علمية موثّقة كما هي في وضعها المنطوق، إذ غالبًا ما تُجرى هذه الدراسات على شكل أبحاث ميدانية يقوم فيها الباحثون بإعداد عدد كبير من التسجيلات الصَّوتية للناطقين بهذه اللهجة أو تلك، ثمَّ يبدؤون بعد ذلك بدراستها، فيصفون أوَّلاً نظامها الصَّوتي وما فيها من أصوات وحركات، ثمَّ ينتقلون بعد ذلك إلى دراسة نظامها الصَّرفي والنحويّ وما فيها من ضمائر وأسماء وأفعال وكلمات مميِّزة لها، وأخيرًا يختمون هذه الدراسة بنشر النصوص التي قاموا بتسجيلها وترجمتها إلى لغتهم، ومن ثمّ إعداد قوائم بالمفردات والثروة اللغوية الواردة في هذه النصوص. إنَّ أهمّ ما يتَّسم به علم اللهجات العربية في ألمانية هو هذه الأبحاث الميدانية الوصفية الدقيقة التي يقوم بها.

ومن هذا المنطلق تقسم اللهجات العربية إلى خمس مجموعات كبيرة، تتميّز كلّ منها بعدد من الخصائص والسمات المشتركة في الأصوات والنحو والصرف والمفردات، وهي:

١- لهجات بلاد الشام (سورية ولبنان وفلسطين والأردن).

٢- لهجات العراق وبلاد الرافدين.

٣- لهجات اليمن والجزيرة العربية.

٤- لهجات وادي النيل (مصر والسودان).

٥- لهجات المغرب العربيّ وشمال أفريقية.

إنَّ كل مجموعة من هذه المجموعات الكبيرة تقسم بدورها إلى مجموعات أصغر، لها سمات مشتركة تميّزها من غيرها، وكلّ مجموعة من هذه المجموعات التي هي أصغر تقسم بدورها إلى عدد كبير من اللهجات التي تصنَّف تحتها، أو تنتمي إليها. فمن المعروف أن لكلّ مدينة لهجة خاصَّة بها، وهي تتميّز من غيرها، وكثيرًا ما يكون في المدينة الواحدة أو المنطقة الواحدة أكثر من لهجة،

فلهجات بعض المدن السورية مثل دمشق أو حلب أو حمص أو دير الزور أو غيرها ليست واحدة، ولكلّ منها خصوصيَّة محدَّدة، وإن كانت تصبّ في الإطار العام في مجموعة اللهجات السورية.

ولو أخذنا نتائج الأبحاث التي أُعدَّت حول اللهجات في سورية مثلاً، لتبيَّن لنا أنَّ سورية هي ملتقى اللهجات العربية حقيقة، ففيها ستّ مجموعات لهجيَّة كبيرة، نذكر منها على سبيل المثال مجموعة اللهجات الشاميَّة الحضريَّة، وهي تشمل في الواقع، إضافةً إلى لهجات سورية، بعض اللهجات اللبنانية وجزءًا من اللهجات الفلسطينيَّة. ويتفرَّع عن هذه المجموعة الكبيرة أكثر من خمس وعشرين لهجة في سورية فقط. وتأتي بعدها مجموعة كبيرة ثانية تشمل اللهجات البدوية التي تربط سورية بالسعودية والأردن والعراق. أمَّا المجموعة الثالثة فهي لهجات حوران التي تشبه اللهجات الفلسطينيَّة الريفيَّة إلى حدّ بعيد، والعنصر البدوي فيها واضح تمامًا. وهناك مجموعات لهجيَّة صغيرة مردّها إلى الطبقة العربية الأولى، أي إلى العرب الذين استوطنوا المنطقة قبل الإسلام، وتوجد هذه اللهجات في المنطقة الممتدَّة من القريتين إلى القامشلي، وبعضها يقترب من اللهجات العربية الأناضولية كلهجة مدينة ماردين، وبعضها مختلط باللهجات البدوية كلهجة مدينة دير الزور(١٣).

أمَّا الفروق الأساسيَّة بين هذه اللهجات فتخرج عن موضوع بحثنا، ويحتاج توضيحها إلى دراسة مستقلّة، ونكتفي هنا بالإشارة على سبيل المثال إلى أنَّ الفارق الحاسم بين لهجات الحضر ولهجات البدو على المستوى الصَّوتي يكمن في

(١٣) ينظر الأطلس اللغوي لسورية الذي وضعه الباحث الألماني بيتر بنشتيد باللغة الألمانية وعنوانه: Sprachatlas von Syrien (Kartenband + Beiheft), Peter Behnstedt, Harrassowitz Verlag, ١٩٩٧. إضافةً إلى الحوار الذي أجريته معه، ونشر في صحيفة الحياة، العدد ١٢٩٣٣ تاريخ ١٩٩٨/٨/١.

طريقة نطق حرفي القاف والكاف، وتختصّ اللهجات البدويَّة بأنَّها مازالت تحتفظ بالتَّمييز بين المذكَّر والمؤنَّث عند جمع الأفعال والضمائر، فهي مازالت تستعمل (هُمْ) للمذكَّر و(هُنَّ) للمؤنَّث، على النَّقيض من أغلب اللهجات الحضرية التي تكتفي بـ (هِنَّ) للاثنين معًا.

إنَّ البحث في اللهجات العربية في ألمانية قد قطع أشواطًا متقدِّمة، فقد أُسِّست في عام ١٩٩٣ الجمعيَّة الدولية للهجات العربية التي تُعرف باسم AIDA (Association Internationale de Dialectologie Arabe) وعقدت مؤتمرها الأوَّل في باريس بحضور عدد كبير من المستشرقين والمشتغلين باللهجات العربية، ثمَّ توالى بعد ذلك عقدُ المؤتمرات تباعًا بمعدَّل مرَّة كلّ سنتين تقريبًا، ليُعقَدَ حتَّى الآن سبعة مؤتمرات(١٤).

وقد عكف علماء اللهجات الألمان منذ وقت مبكِّر نسبيًّا على وضع الأطالس اللغوية (وهي خرائط يبيَّن عليها توزّع اللهجات المحليَّة، والاختلافات فيما بينها في الأصوات والصرف والثروة اللغوية). فوضع برجشتراسر Bergstraesser في عام ١٩١٥ أطلسًا لغويًّا لسورية وفلسطين، حاول فيه أن يوزِّع اللهجات المحليَّة على الخرائط حسب طريقة نطقها في كل من سورية وفلسطين. ومع اتصاف هذا الأطلس اللغويّ بالبدائية فإنَّه يبقى له فضل السبق

(١٤) وهي: المؤتمر الأول في باريس عام ١٩٩٣، والمؤتمر الثاني في كامبرج عام ١٩٩٥، والمؤتمر الثالث في مالطا عام ١٩٩٧،والمؤتمر الرابع في مراكش عام ١٩٩٩، والمؤتمر الخامس في كادس (إسبانية) عام ٢٠٠٢، والمؤتمر السادس في تونس عام ٢٠٠٤، والمؤتمر السابع في فيينا (النمسا) عام ٢٠٠٦.

(١٥) ينظر: Sprachatlas von Syrien und Palaestina, G. Bergstraesser. In: ZDPV XXXVIII,١٦٩-٢٢٢; sowieArabische Dialekgeographie, von Peter Behnstedt, u. Manfred Woidich, Brill. Leiden. Boston ٢٠٠٥, S. ٤-٧.

التاريخي[١٥]. ثمَّ توالت بعد ذلك سلسلة من الأطالس اللغويَّة التي يظهر فيها التوزّع اللغوي للهجات المحليَّة الموجودة في البلاد العربية المعدّة لها، فكان هناك أطلس لغويّ شامل لمصر، أعدّهPeter Behnstedt و Manfred Woidisch في عام ١٩٨٥. وكان هناك أطلس لغويّ لشمال اليمن، وآخر لتونس، وأيضًا للمغرب[١٦]. إلاَّ أنَّ أهمّ أطلس لغويّ شامل أُعدّ حتَّى الآن كان من نصيب سورية، فقد احتاج الباحث بيتر بنشتيد إلى أكثر من عشر سنوات للإعداد لهذا الأطلس اللغوي الذي صدر في عام ١٩٩٧ بعد إقامة في سورية استغرقت خمس سنوات (١٩٨٥ – ١٩٩٠) أمضاها الباحث في جمع مادّة البحث، ورصد جميع اللهجات والمجموعات اللغوية الموجودة في جميع المناطق والقرى السورية، لتبدأ بعدها المرحلة الثانية، وهي مرحلة رسم الخرائط بالحاسوب وتوزيع الموادّ اللغوية عليها. وقد عمد في هذا الأطلس اللغوي إلى وضع خرائط كبيرة شاملة لجميع المناطق السورية، بلغ عددها /٥١٨/ خريطة تتوزَّع على ١٠٣٧ صفحة، وحدَّد عليها الاختلافات والفروق في نطق الحروف والأصوات، وأشار إلى التباين والتنوّع في الصيغ الصرفية ومفردات الثروة اللغويّة[١٧].

٧– تحديَّات الازدواجيّة اللغوية في عصر العولمة:

الازدواجيّة اللغويّة ظاهرة طبيعيّة، وهي موجودة في كلّ اللغات، وليس هناك لغة واحدة في العالم يكتب فيها ناطقوها كما يتكلَّمون، وإنَّما الفارق بين لغة الكتابة واللهجات المحكيّة قد يتَّسع أو يضيق وفقًا لطبيعة اللغة وصعوبة قواعدها ومعطيات واقعها الاجتماعيّ والسياسيّ والفكريّ والثقافيّ.

---

(١٦) ينظر Arabische Dialektgeographie (Eine Eifuehrung), von Peter Behnstedt, u. Manfred Woidich, S. ٥-٧.

(١٧) ينظر : Sprachatlas von Syrien (Kartenband + Beiheft), Peter Behnstedt, Harrassowitz Verlag, ١٩٩٧.

والواقع أنَّ البون الشاسع بين لغتنا الفصحى ولهجاتها المحكيَّة مردّه إلى أنَّ الطفل يكتسب اللغة المحكيَّة في البيت أوَّلاً مع الحليب الذي يرضعه، إذ ينمو وينشأ ويترعرع مع هذه اللغة، ثمَّ يبدأ بعد ذلك بتعلّم الفصحى ويتلقَّى بعض مبادئ القراءة والكتابة بها في المدرسة، بعد أن يكون عمره قد أصبح خمس أو ستّ سنوات على الأقلّ، عن طريق التَّلقين وشرح قواعد النحو النظريّة التي لا تُقدَّم له في أغلب الأحيان على أمثل وجه.

إنَّ الازدواجيَّة اللغوية الموجودة في البلاد العربية تختلف عن الازدواجيّة اللغوية الموجودة في البلاد الأخرى، لأنَّه ليس هناك بقعة في العالم مرَّت بالظروف والأحوال والمؤثِّرات نفسها، التي مرّت بها المنطقة العربية، فالتطوّر الذي حدث داخل اللغة العربية، وامتداد الرقعة الجغرافية للوطن العربيّ واتِّساعها، وتنوّع الشعوب والأعراق فيها، فضلاً عن التَّاريخ المديد للعربية[١٨]، والمراحل والعصور الطويلة التي مرَّت على المنطقة بكلّ ما فيها من مآسٍ ومحن وأحداث جسام، كلّ ذلك أدَّى إلى توسيع الهوَّة بين اللغة الفصحى ولهجاتها المحكية وتعميق هذا التباعد بينهما. فالازدواجيَّة اللغوية كانت موجودة في العربية منذ عهودها الأولى، ومازالت موجودة فيها على الدوام، ولم تفارقها عبر الزمن، ويبدو أنَّها قدَرُنا الذي لا مفرَّ منه، إذ علينا أن نسلّم بهذا القدَر، فنستعمل الفصحى للكتابة والتعامل الرسميّ، ونستعمل اللهجات المحكيَّة للحياة اليوميَّة

(١٨) يقسم المستشرق الألماني فيشر اللغة العربية إلى أربع مراحل أساسية وهي: ١- مرحلة ما قبل الكلاسيكيَّة. ٢- مرحلة اللهجات العربية القديمة. ٣- المرحلة الكلاسيكيَّة. ٤- مرحلة ما بعد الكلاسيكية. ينظر كتاب: Grundriss der Arabischen Phylologie, von Wolfdietrich Fischer, Bd. I, S. ٣٦ – ٥٠.

والمواقف غير الرسميّة.

إنَّ اللهجات العربية المحكيَّة لم تتحوَّل أبدًا إلى لغة مكتوبة، ولا يمكن أن تتحوَّل، لأنَّ نظام الكتابة المتداول الذي يُهمل كتابة الحركات لا يساعد على ذلك أبدًا، أضف إلى ذلك أنَّ هناك حركاتٍ في اللهجات المحليَّة غير متوفّرة في العربية الفصحى مثل: /e/ و/o/ وغيرها من الحركات المركّبة. ولهذا السبب بقيت اللهجات العربية المحلية وستبقى محصورة في نطاق الاستعمال بالأحاديث والتَّعابير الشفوية وفي المواقف الحياتية اليوميّة بصورة أساسية(١٩). إنَّ كل الدعوات التي طُرحت من أجل إحلال العاميَّات محلّ الفصحى لم تنجح، ولن تنجح لأنَّ هذه العاميّات عاجزة عن أن تفي بكل حاجات العقل والنفس، وأن تنهض برصدها وتتبّعها ثمّ بالتعبير الجمالي عنها. إنَّها عاجزة عن أن تُنشئ أدبًا له أفكارُهُ ومثلُهُ، لأنَّ أكثر المثقَّفين والدارسين على الساحة العربية غير مقتنعين بمثل هذه الدعوات، ولم يلقُوا إليها آذانًا صاغية(٢٠).

(١٩) إنَّ الاستثناء الوحيد الذي حصل في هذا المجال هو اللغة المالطية التي طوَّرت لهجتها المحليَّة العربية إلى لغة رسميَّة مكتوبة مبتعدة في ذلك عن اللغة العربية الفصحى.

(٢٠) ارتبطت الدعوة إلى العاميَّة في بداية عهدها في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العِشرين بالمستعمر الأجنبي أوَّلاً، كما هو الحال في كلٍّ من الجزائر ومصر ولبنان. فقد قام المهندس الإنكليزي بمصر ويلكوكس في عام ١٨٩٣ بإلقاء محاضرة دعا فيها إلى إحلال العاميَّة محلّ الفصحى في الكتابة والتأليف. ثم ما لبثت هذه الدعوة أن انتقلت فيما بعد إلى أبناء الوطن المحلِّيين في بعض الأقطار العربيَّة من أمثال سلامة موسى في مصر الذي ربط دعوته إلى هجر الفصحى بدعوته العامَّة إلى إصلاح المجتمع وتقدّم الأمَّة، وسعيد عقل في لبنان الذي حاول أن يطابق بين الكلمة المنطوقة والرمز المكتوب، فدعا إلى إبدال الأحرف العربية باللاتينية وانتهى به الأمر في خاتمة المطاف إلى أنَّ اللغة الفصحى لغة ميِّتة.

لقد اتَّخذ الهجوم على اللغة الفصحى في بعض الأقطار العربية عدَّة أشكال نجملها فيما يلي:

١- التشكيك في اللغة الفصحى وعدم قدرتها على مواكبة حاجات العصر، فهي لا تصلح للعلم، وليست لغة تكنولوجيا، وإنَّها لغة الكتب الصفراء، وعلينا لذلك أن نستعمل اللغات

لقد حُسمت مسألة الصراع بين دعاة العاميّة وأنصار الفصحى لمصلحة الفصحى، ولا أعتقد أنَّه كان في الواقع صراعًا بما تحمله هذه الكلمة من معنى، وإنَّما كانت نزوة أو محاولة من بعض ضعاف النفوس لترسيخ واقع يسوده التخلّف والانحطاط، وتنتشر فيه الأميَّة والجهل، وينشب فيه الطامع مخالبه.

ليست المشكلة في الازدواجية اللغوية الهوَّةَ الواسعةَ بين الفصحى والعاميَّة، بل انتشار الأميّة في مختلف أرجاء الوطن العربيّ. صحيح أنّ هناك فارقًا كبيرًا بين وجهي هذه اللغة المنطوق والمكتوب، ولكنَّ هناك مستويات انتقالية مختلفة أيضًا، يمكن أن نطلق عليها اسم العربية المتوسِّطة، وهي تقع بين الفصحى ولهجاتها العاميَّة. إنَّ حلَّ مشكلة الازدواجية اللغوية لا يكمن بتبسيط قواعد اللغة الفصحى، ومحاولة تجديد النحو، وإنَّما يكون بنشر التعليم في كافة المناطق وتطوير طرائقه ومناهج تدريسه، لأنَّ من يعيش في محيط تسود فيه اللغة الفصحى، ويألف التعاملَ والقراءة ومتابعة برامج التلفزة وأفلام السينما ونشرات الأخبار بها، يستطيع – دون شكّ – التعايش معها بكلّ سهولة ويسر، وتصبح عندها اللهجة المحليّة مجرّد وسيلة

الأجنبية كالإنكليزيَّة والفرنسيَّة. (نذكّر هنا بالقرار الوزاري الذي كان قد صدر عام ١٨٨٩ في مصر والقاضي بأن تكون لغة التعليم في المدارس المصرية اللغة الإنكليزية).

٢– اتِّهامها بالجمود والتَّعقيد والبداوة، وإلقاء مسؤوليَّات التَّخلُّف والانحطاط عليها.

٣– الدعوة إلى إبدالها بالعاميَّة التي تتمتَّع بمزايا الحيويَّة والسهولة والمرونة والقدرة على التَّعبير عن مطالب الحياة العصرية، فهي لغة الحياة وهي تصلح لتثقيف الجماهير وتعليم الأميِّين.

٤– التَّنفير من اللغة الفصحى بدعوى الصُّعوبة في النطق والأصوات والنَّحو والصَّرف، والقصور عن أداء رسالتها في هذا الزَّمن الذي تتعاقب فيه الأحداث، وتتدفَّق المعلومات تدفقًا متسارعًا.

إنَّ من يمعن النظر في هذه الدعاوى والاحتجاجات يجد أنَّها لا تصمد أمام المناقشة، ويسهُل عليه ردّها لهشاشتها وسطحيّتها وعدم جدواها في الإقناع، فلا تحتاج قدرة اللغة العربية على التعبير وعلى نقل مصطلحات العلوم وألفاظ الحضارة إلى إثبات. فأين الترجمات التي تمَّت في العصر العباسيّ الأوَّل؟ ومَن الذي استوعب المعارف العلميَّة التي كانت لدى اليونان والهنود والفرس وغيرهم؟

ينظر : مشكلة العامية والفصحى ص ٧٤.

تعبير ممجوجة لا ترقى إلى مستوى التعامل الراقي.

إنَّ الهوَّة السحيقة بين اللغة الفصحى ولهجاتها المحكية في عصرنا الراهن بدأت تتقلَّص تدريجيًّا بتأثير انتشار التعليم وتراجع الأميّة، والدور المتنامي لوسائل الإعلام ومحطَّات التّلفزة والفضائيّات، ممّا يساهم في تبادل الأدوار، فبعد أن كانت اللهجات المحكيّة تهدِّد اللغة الفصحى بسبب انتشار الجهل والأميَّة والتقوقع وعدم توفّر إمكانات التواصل والتلاقي، أصبحت الفصحى في أيّامنا هذه هي التي تهدّد اللهجات المحكية، وتضيِّق عليها الخناق بسبب التقدّم الهائل في وسائل الاتّصال وتقنية الحصول على المعلومات والأفكار، فقد زالت الحدود والحواجز، وأصبح التواصل بين بلدان المشرق العربيّ ومغربه ميسَّرًا، فنحن نشاهد في كلّ يوم على الفضائيّات ومحطَّات البث المرئيّ البرامج التي يتبادل فيها المتحاورون الآراء باللغة الفصحى من كلّ بقاع الوطن العربيّ الكبير بكل سهولة ويسر.

٨– مقترحات وتوصيات:

وفي نهاية هذا البحث لا بدّ من أن نتقدّم ببعض المقترحات والتوصيات التي نعتقد أنَّها يمكن أن ترتقي باللهجات المحلية إلى مرتبة الفصحى، وتقلّص الفروق الكبيرة بينهما، وهي:

١– نشر التعليم في كافة أرجاء الوطن العربي وبين مختلف الفئات، وضرورة التخلّص من الأميّة لأنَّ من يقرأ كلّ يومٍ باللغة الفصحى لن يجد بالتأكيد صعوبة في إتقان هذه اللغة، ولن يعاني من هذه الهوَّة بين وجهي اللغة المنطوق والمكتوب.

٢– إعادة النظر في مناهج تعليم اللغة العربية في المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية وتطوير طرائق تعليم اللغة العربية بما يتناسب والتطوّرات الحاصلة في ميادين العلوم المختلفة، مستفيدين في ذلك من التقنيات المتطوّرة في عصر العولمة، ومن المناهج الحديثة لتعليم اللغات الأجنبية الغنيّة بالصور والخرائط والأشكال المختلفة والمجسَّمات، إضافةً إلى أشرطة التسجيل الصوتية والمرئيَّة.

٣– العمل على أن تكون جميع البرامج والأفلام والمسلسلات والمسرحيَّات

التي تقدّمها وسائل الإعلام المرئيّ والمسموع باللغة العربية الفصحى، لأنّ ظاهرة المسلسل المِصريّ أو البرامج التي تقدّم بالعاميَّة تسهم إلى حدّ بعيد في تعميق حالة الازدواجية اللغوية، وكذلك الأمر في المسلسلات والأفلام الأجنبيّة التي تُعرَض بدون ترجمة شفوية. فكل مجالات التلفزة والسينما يجب أن تكون محجوزة للفصحى وتؤدَّى بها. وهنا يشار إلى أنَّ وسائل الإعلام ساهمت دون شكّ في تقريب الفصحى من جماهير العاميَّة.

٤– تشجيع دراسة اللهجات المحلية: لا بدّ من تشجيع الأبحاث حول اللهجات المحلية، إذ لا يجوز أن نترك البحث في هذا المجال حكرًا على المستشرقين وعلماء اللهجات الأجانب، لأنَّ اللهجات في الواقع هي ضروب محلّية من اللغة الرسمية أو النموذجية أو الفصحى. ولهذا فنطاقها محدود، وهي لا تصلح للاستعمال إلاّ في مناطق انتشارها، ولا يمكن أن نصوغ بها كتابًا علميًّا قابلاً للفهم من قبل جميع الناطقين بالعربية، وليس هناك أية فائدة من اتّساع مجالها، ولولا وجود اللغة الفصحى لما استطاع العرب أن يفهم بعضهم بعضًا. إنَّ دراسة اللهجات يمكن أن تقدّم لنا مادّة غنية للبحث العلميّ، فربَّما نستطيع عن طريقها أن نفهم الكثير من تاريخ هذه اللغة وما طرأ عليها من تغييرات صوتية وصرفية ودلالية، وما دخلها من كلمات معرَّبة أو أعجميّة، لأنَّ اللهجات – كما نعلم – مملوءة بالكلمات الدخيلة من شقيقات العربية كالأكاديّة والآراميّة والعبريّة والسريانيّة أو من غيرها من اللغات كاليونانيّة والفارسيّة والتركيّة...إلخ.

كما أنَّ دراسة اللهجات المحليَّة قد تساعدنا على معرفة تاريخ تعريب بعض الأقطار العربية وعلى معرفة أصل بعض القرى أو المناطق أو الأقاليم عن طريق تحليل الكلام ورصد المفردات المستعملة. وتبيّن لنا الأطالس اللغوية أنَّه لا يوجد حدّ فاصل بين منطقة لهجية وأخرى، بل هناك مناطق انتقالية ليس في قطر واحد

فحسب، وإنَّما بين قطر عربيّ وآخر. ويفضَّل في هذا المجال أن تُجرى أبحاث ميدانية تُجمع فيها الألفاظ العاميَّة الموجودة في لهجاتنا المحليَّة، وأن تُدرس هذه الألفاظ بعد ذلك، فتردّ إلى أصلها الفصيح لمعرفة كيفيَّة وصول هذه الكلمات إلى شكلها الحالي، ومن ثمّ تعميم نتائج هذه الأبحاث على البلاد العربية من أجل تقريب هذه اللهجات بعضها من بعض.

٥- الاستفادة من التقدّم المذهل الذي وصلت إليه برامج الحواسيب الإلكترونية وشبكات الإنترنت في عصر المعلوماتية، وتوظيف هذه الإمكانات والمعطيات في معالجة اللغة العربية ولهجاتها المحليّة، وفي إجراء البحوث الصوتية والصرفية والنحوية والأسلوبية والدلالية.

وأخيرًا فإنَّ اللغة العربية الفصحى هي إحدى مقوّمات وجودنا الإنسانيّ والحضاريّ، وهي هويتنا التي تميّزنا من الآخرين، وهي الوعاء الذي يحتوي تراثنا بمختلف صوره التاريخيّة والفكريّة والدينيّة والثقافيّة وغيرها، وعن طريقها حُفظ ماضي الأمَّة العربية كلَّه، وعن طريقها تلقَّينا وسنتلقَّى الموروثات الحضارية وآخر منجزات العصر. وهي التي تربط المشرق العربيّ بمغربه بأواصر التفاهم والتجاوب، وتجعل من أقطار وطننا العربيّ الكبير وحدة فكرية وثقافية، ينتقل بها الكتاب العربيّ من المحيط إلى الخليج إلى وادي الرافدين رسول فكر وثقافة وعلم وأدب.

المصادر والمراجع:

١- العربية:

-صحيفة الحياة، العدد ١٢٩٣٣ تاريخ ١٩٩٨/٨/١.
- العصر الجاهلي / شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، القاهرة ط٣، ١٩٦٠.
- فصول في فقه العربية / رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة ط٢، ١٩٨٣.
- القراءات الشاذّة وتوجيهها النحويّ / محمود أحمد الصغير، دار الفكر بدمشق، ط١، ١٩٩٩.
- الكتاب المقدّس.

– مدخل إلى فقه اللغة العربية / أحمد محمد قدور، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٣.

– مشكلة العاميَّة والفصحى في تعليم اللغة العربية للأجانب/ مصطفى النحاس عبد الواحد، الخرطوم ١٩٧٧.

٢– الأجنبية:

- Arabische Dialektgeographie (Eine Eifuehrung), von Peter Behnstedt, u. Manfred Woidich, Brill. Leiden. Boston ٢٠٠٥.
- Grundriss der Arabischen Phylologie, von -Wolfdietrich Fischer, Bd. I, Reichert Verlag, Wiesbaden, ١٩٨٢.
- Handbuch der Arabischen Dialekte, von W. -Fischer und O. Jastrow, Harrassowitz. Wiesbaden ١٩٨٠.
- Sprachatlas von Syrien (Kartenband + Beiheft),-Peter Behnstedt, Harrassowitz Verlag, Wiesbaden ١٩٩٧.

أثر أمالي ابن الحاجب في مغني اللبيب
ممّا لم يصرّح به ابن هشام

الدكتور عمر مصطفى(*)

جرت عادة النحويين على أن ينقل بعضهم عن بعض، إما للردّ على غيره، أو موافقته، أو تقوية رأي معين، وهذا ما جعل كتبهم تغص بالنقول، غير أنَّ عزو هذه الآراء إلى أصحابها ظاهرٌ في مناهجهم في التأليف، وقليله خلاف ذلك، إذ ثمة مَن يذكر رأيًا لنحويٍّ معروف، ولا ينسبه إليه، ولا تسويغ لهذا عندهم، وأقلُّ منه أن يذكر الرأي منسوبًا إلى بعضهم كما يقولون، حتى أصبح هذا الأمر ظاهرة طبيعية في التأليف في علوم اللغة العربية، وقلما نجد أحدًا سلم منه.

ولا شكَّ أنَّ الوقوف على هذه الظاهرة يحتاج إلى تأنٍ وتروٍ كبيرين، حتى يستطيع الباحث أن يتبيَّن الأسباب التي أدت إلى شيوعها بين علماء العربية، خصوصًا لأنهم يشدِّدون النكير على من يفعل ذلك.

فإذا أضفنا إلى غياب الأسباب الحقيقية وراء هذا الأمر ما هو متَّفق عليه بينهم في ذكر آراء مختلفة لنحاة مختلفين دون التصريح بأسمائهم كانت المسألة بيّنة في أنَّ المصنِّف لم يسلم من هذا، بل يُعدُّ مثالاً واضحًا لما ذهبنا إليه.

وكتابه المغني يعجُّ بمثل هذه الأمور، وقد وقفت على عدد كبير من النقول التي لم تُعز إلى أصحابها، ولكنّ اختياري وقع على ابن الحاجب، لأن المصنِّف أكثر من النقل عنه بعزو وبلا عزو.

(*) قسم اللغة العربية كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة دمشق.

وهذا اضطرني إلى عرض مادة المغني بتمامها على أمالي ابن الحاجب، ذلك أن منهج المصنِّف لا يقوم على النقل باللفظ، بل على التلخيص والمزج بين كلامه وكلام أحد النحويين الذين يفيد منهم، وحشدِ عددٍ من الآراء في سياق واحد، وهذا يُجهد الباحث في الوقوف على ما لكلّ نحوي، نُقل عنه في المغني.

وهذا البحث سيُعنى بآراء ابن الحاجب في الأمالي التي نقلها المصنِّف بلا تصريح، دون الوقوف المتأني على ما له من المصرّح به، لأن ذلك ليس من أغراضه، وهو إلى جانب ذلك متوافر في الدراسات التي تناولت المصنِّف ومؤلفاته، وسأرغب عن ذكر المواضع التي اضطرب فيها كلام المصنِّف في النقل عنه مصرّحًا.

وسأختار من ذلك ما يوضح ما أردته، ويُسهم في تقديم الأدلة على ما ذهبت إليه، مراعيًا ترتيب المغني نفسه في ذكر هذه المواضع.

قال المصنِّف في سياق كلامه على بيت المتنبي:

أحيا، وأيسرُ ما قاسيتُ ما قتلا والبين جارَ على ضعفي وما عدلا

«أحيا: فعل مضارع، والأصل أأحيا؟ فحذفت همزة الاستفهام، والواو للحال، والمعنى التعجب من حياته، يقول: كيف أحيا وأقل شيء قاسيته قد قتل غيري؟».

وكلامه هذا هو أحد وجهين، ذكرهما ابن الحاجب[1].

وأحد وجهي «إنَّ» المكسورة المشددة أن تكون حرف جواب بمعنى

(١) المغني ص١٧، والأمالي ص٦٢٥ ، وجاء في شرح ديوان المتنبي المنسوب إلى العكبري ١٦٢/٣قوله: قال أبو الفتح: أخبر عن نفسه فقال: أنا أعيش وأيسر ما قاسيتُ ما قتل، ويحتمل وجهًا آخر، وهو أن يكون في معنى أفعل التي للتفضيل، أي أشدّ ما يكون في الإنسان، وأيسر ما قاسيت شيء قاتل... وإذا حمل على هذا الوجه فقد حذف المضاف إليه... وقال هبة الله بن علي الشجري: أحيا فعلُ المتكلم، والجملة التي هي أيسر إلخ في موضع النصب على الحال من المضمر في أحيا انظر أمالي ابن الشجري ٣٥٠/١.

«نعم»[٢]، وقد استُدلّ على ذلك بقول الشاعر:

ويقُلن: شيبٌ قد علا ك، وقد كبرتَ، فقلتُ: إنَّهْ

قال المصنِّف: «ورُدَّ[٣] بأنّا لا نسلم أن الهاء للسكت، بل هي ضميرٌ منصوب بها، والخبر محذوف، أي إنه كذلك»[٤].

وهذا ردّ ابن الحاجب في الأمالي، قال: «فهي مثلُ نعم. والهاء في قوله: إنّه، هاءُ السكت، على أنّها قليلة في الاستعمال مع احتمال أن تكون في البيت إنّ المؤكدة، وتكون الهاءُ اسمَها ويكون الخبر محذوفًا، أي: إنه كذلك، لأنّ ما تقدّم يدلّ عليه من قوله: ويقلنَ شيبٌ قد علاك وقد كبرت، فقال: إنه كذلك، أي: إنّ الأمرَ كذلك»[٥].

قال المصنِّف في أثناء كلامه على قراءة من قرأ: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾[٦]: وعن المبِّرد أنه[٧]، حمل على ذلك قراءة من قرأ ﴿إنّ هذان

(٢) انظر الجمل المنسوب إلى الخليل ص١٥٨، والكتاب ١٥١/٣.

(٣) الوجهان في المنتخب لكراع النمل ص ٣٤٢.

(٤) المغني ص٤٤، والأمالي ص٣٥٤.

(٥) الأمالي ص٣٥٤.

(٦) سورة طه، الآية٦٣.

(٧) ورد في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢١/٢ قوله: «قال بشر بن هلال «إنّ» بمعنى الابتداء والإيجاب، ألا ترى أنّها تعمل فيما يليها ولا تعمل فيما بعد الذي بعدها فترفع الخبر ولا تنصبه كما تنصب الاسم، فكان مجاز ﴿إنّ هذان لساحران﴾ مجاز كلامين، مخرجُه: إنّه أي نعم، ثم قلت: هذان ساحران». ونقله الزجاج في معاني القرآن ٣٦٣/٣ قال: «ويحتجون بأنّ اللام أصلها أن تقع في الابتداء، وأنّ وقوعها في الخبر جائز، وينشدون في ذلك : خالي لأنت، ومن جريرٌ خاله...». ونقله الزمخشري في الكشاف ٥٤٣/٢ قال: «وقد أعجب به أبو إسحاق». ونقله أيضًا ابن خالويه عن المبرد؛ انظر أمالي ابن الحاجب ص١٧٥.

لساحران﴾، واعتُرض بأمرين[٨]:

أحدهما: أن مجيء إنّ بمعنى نعم شاذ، حتى قيل: إنه لم يثبت.

والثاني: أن اللام لا تدخل في خبر المبتدأ، وأجيب[٩] عن هذا بأنها لام زائدة، وليست للابتداء[١٠]، أو بأنها داخلة على مبتدأ محذوف، أي لهما ساحران[١١]، أو بأنها دخلت بعد «إنّ» هذه لشبهها بـ«إنْ» المؤكدة لفظًا كما قال:

ورَجِّ الفتى للخير ما إنْ رأيتَهُ على السِّنِّ خيرًا لا يزالُ يزيدُ

فزاد «إنْ» بعد «ما» المصدرية لشبهها في اللفظ بما النافية، ويضعف الأول أن زيادةَ اللام في الخبر خاصةٌ بالشعر، والثاني أن الجمع بين لام التوكيد وحذف المبتدأ كالجمع بين متنافيين.

«وقيل[١٢]: اسم «إنّ» ضمير الشأن، وهذا أيضًا ضعيف، لأن الموضوع لتقوية الكلام لا يُناسبه الحذف، والمسموع من حذفه شاذٌّ، إلا في باب «أنّ» المفتوحة إذا خُفِّفت، فاستسهلوه لوروده في كلامٍ، بُني على التخفيف، فحُذف تبعًا لحذف النون، ولأنه لو ذُكر لوجب التشديد؛ إذ الضمائر تردُّ الأشياء إلى أصولها، ألا ترى أن من يقول: «لَدُ»، و«لم يكُ»، و«والله»، يقول: «لدُنك»، و«لم يكنه»، و«بك لأفعلن»، ثم يردُ إشكال دخول اللام».

(٨) أمالي ابن الحاجب ص ١٥٧.

(٩) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢٢/٢.

(١٠) انظر معاني القرآن للأخفش، ص١٢٠.

(١١) وهو ظاهر مذهب الزجاج كما في معاني القرآن ٣٦٣/٣.

(١٢) ذكره الزجاج نقلاً عن النحويين القدماء في معاني القرآن وإعرابه ٣٦٢/٣.

وقيل: هذان اسمها، ثم اختلف، فقيل[١٣]: جاءت على لغة بَلْحارث بن كعب في إجراء المثنّى بالألف دائمًا، كقوله:

قــد بلغــا في المجــد غايتاهــا

واختار هذا الوجه ابن مالكٍ[١٤]. وقيل[١٥]: هذان مَبْنِيّ لدلالته على معنى الإشارة، وإن قول الأكثرين هذين جرًا ونصبًا ليس إعرابًا أيضًا[١٦]، واختاره ابن الحاجب[١٧]، قلت: وعلى هذا فقراءة {هذان} أقْيَسُ؛ إذ الأصل في المبني ألاّ تختلف صيغُه، مع أن فيها مناسبة لألف ساحران، وعكسه الياء في ﴿إحدى ابنتيّ هاتين﴾ فهي هنا أرجح لمناسبة ياء ابنتي، وقيل: لما اجتمعت ألف هذا وألف التثنية

(١٣) انظر الجمل المنسوب إلى الخليل، ص١٥٧، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢١/٢ عن أبي الخطاب، وفي معاني القرآن للفراء ١٨٤/٢، وهو اختيار الزجاج في أحد قوليه في معاني القرآن ٣٦٢/٣، ٣٦٤ عن أبي عبيدة عن أبي الخطاب، ومعاني القرآن للأخفش، ص١٢١، ٤٤٤، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ص١٠٤، وتلقين المتعلم من النحو لابن قتيبة أيضًا ص ١٣٧.

(١٤) شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح لابن مالك ص٩٧.

(١٥) نُسب هذا الرأي لابن كيسان؛ انظر خبره في إنباه الرواة ٥٨/٣، وانظر أمالي ابن الحاجب ج٢، ص١٥٧.

(١٦) قال الفراء في معاني القرآن ١٨٤/٢: «والوجه الآخر أن تقول: وجدت الألف من «هذا» دعامة وليست بلام فعل، فلمّا ثنيت زدت عليها نونًا، ثم تركت الألف ثابتة على حالها لا تزول على كلّ حال، كما قالت العرب «الذي» ثمّ زادوا نونًا تدلّ على الجِماع»، ونقله عنه الزجاج في معانيه ٣٦٣/٣.

(١٧) أمالي ابن الحاجب ص١٥٧، والظاهر أن ابن هشام اتكأ على ما نقله ابن الحاجب في مناقشته لأقوال النحاة في هذه المسألة.

في التقدير قدّر بعضهم سقوط ألف التثنية فلم تقبل ألف «هذا» التغيير.

وهذا الذي قاله المصنِّف ذكره ابن الحاجب في أماليه(١٨)، فأورد قول الزجَّاج ثم ردّ عليه، وقد نقله بلا تصريح.

«أم» قد تردُ محتملة للاتصال والانقطاع، من ذلك قول المتنبي:

أُحادٌ أمْ سداسٌ في أُحادِ لُيَيْلتُنا المنوطةُ بالتّنادي؟

قال المصنِّف: «فإن قدّرْتها فيه متصلة فالمعنى أنه استطال الليلة فشكّ: أواحدةٌ هي أم ست اجتمعت في واحدة، فطلبَ التعيين... وعلى هذا فيكون قد حذف الهمزة قبل «أحاد»، ويكون تقديم الخبر وهو «أحاد» على المبتدأ، وهو «ليلتنا» تقديمًا واجبًا؛ لكونه المقصودَ بالاستفهام مع «سُداس»(١٩).

وهذا وما بعده مستلّ من أمالي ابن الحاجب بتصرف يسير(٢٠).

ومنهج المصنِّف ظاهر في مزج كلامه بكلام غيره، حتى يصعب الفصل بينهما، إلا بمراجعة ما يأخذ منه مراجعة حرفية إن صحت العبارة، وعرْضِ نصِّه في قول من الأقوال على غيره، حتى يتبيّن المزج الذي يقصده، ويسعى وراءه.

ثم عقّب المصنِّف على البيت السابق بقوله: «واعلم أن هذا البيت اشتمل على لحناتٍ: استعمال «أُحاد وسداس» بمعنى «واحدة وست»، وإنما هما بمعنى

(١٨) المغني ص٤٥، والأمالي ص١٥٧– ١٥٨.

(١٩) ورد في شرح ديوان المتنبي المنسوب إلى العكبري ٣٥٣/١: قوله: أحاد: يريد أأحاد؟ فحذف همزة الاستفهام، وليس هو بالفصيح، وإنما يقع في الشعر ضرورة، ولا يقال: زيدٌ أبوك أم عمرو؟

(٢٠) المغني ص٥٣، والأمالي ص٦٧٦.

«واحدة واحدة وست ست»، واستعمال «سُداس» وأكثرهم[٢١] يأباه، ويخص العددَ المعدول بما دون الخمسة[٢٢]، وتصغير ليلة على «لييلة»، وإنما صغرتها العرب على «لييْلية» بزيادة الياء على غير قياس».

والاعتراض الأوّل لابن الحاجب. قال في الأمالي: «وقوله: أحادٌ، يعني به واحدةً، استعمل لفظةَ أحاد في غير ما وضع له، وكذلك سداس، وإنما أراد واحدة أم ست في واحدة.

---

(٢١) ورد في أدب الكاتب لابن قتيبة ص٥٦٦: «ويُقال: أُحاد و ثُناء وثُلاث ورُباع كلّ ذلك لا ينصرف ولم نسمع فيما جاوز ذلك شيئًا على هذا البناء غير قول الكميت:

..... خصالاً عُشارا

وأجري هذا المجرى».

قال أبو بكر بن الأنباري في المذكّر والمؤنّث ٢٤٦/٢: «ومن قال: ادخلوا ثُلاث ثلاثَ ورُباع رُباع لم يقل: ادخلوا خُماس خُماس، ولا سُداس سُداس؛ لأنّ هذا غير موجود في كلام العرب. قال الفراء: العرب لا تجاوز «رباع» غير أنّ الكميت قال:

فلم يستريثوك حتى رميتَ فوق الرجال خِصالاً عشارا

فجعل «عُشار» على مخرج «ثُلاث»، وهذا مما لا يُقاس عليه».

وورد في شرح الديوان المنسوب إلى العكبري ٣٥٣/١: «قوله: «أحاد» اختُلف في هذا اختلافًا كثيرًا، والمشهور أنّ هذا البناء لا يكون إلاّ إلى الأربعة، نحو: أحاد وثناء وثلاث ورباع، وجاء في الشاذ إلى عشار... وقال قوم: لا يستعمل أحاد في موضع الواحد، لا يُقال: هو أحاد، وإنّما يُقال: جاؤوا أحاد أحاد. وسداس: نادر غريب، ولا يُستعمل في موضع ستة».

(٢٢) ظاهر كلام المبرد والزجاج أنه مستعمل مقيس من موحد إلى عُشار؛ انظر المقتضب ٣٨٠/٣، وما ينصرف وما لا ينصرف ص٥٩، وشرح الكافية للرضي ٢٤٧/١.

وأحاد وسداس عند من أثبته ليس موضوعًا لواحد وستة، وإنّما هو موضوع لواحد واحد وستة ستة، كقولك: جاءَ القومُ أحادَ وسداسَ، أي: واحدًا واحدًا وستةً ستة، وأمّا استعمال أحاد بمعنى واحد مفرد، وسداس بمعنى ست فغير معروف»[٢٣].

المصنِّف يرى أنّ «إذ» في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[٢٤] للتعليل، وأن الجمهور لا يثبتون لها ذلك.

ما ذكره المصنف ذكره ابن الحاجب في الأمالي[٢٥].

قال المصنِّف في شرحه لبيت المتنبي:

أمنَ ازديارَكِ في الدُّجى الرُّقباءُ إذْ حيثُ كنتِ من الظّلامِ ضياءُ

«أمن» فعل ماض، فهو مفتوح الآخر، لا مكسوره على أنه حرف جر كما توهَّم شخص، ادّعى الأدب في زماننا، وأصرَّ على ذلك. و«الازديار» أبلغ من الزيارة كما أن الاكتساب أبلغ من الكسب؛ لأن الافتعال للتصرف، والدال بدَل عن التاء، و«في»: متعلقة به، لا بـ«أمنَ»؛ لأن المعنى: أنهم أمنوا دائمًا أن تزوري في الدجى، و«إذ»: إما تعليل أو ظرف مُبدَل من محل «في الدجى»، و«ضياء»: مبتدأ خبره «حيث»[٢٦]، وابتدئ بالنكرة لتقدم خبرها عليها ظرفًا، ولأنها موصوفة في المعنى؛ لأن «من الظلام» صفة لها في الأصل، فلما قدَّمت عليها صارت حالاً منها، و«من»: للبدل، وهي متعلقة بمحذوف،

(٢٣) المغني ص٥٣، والأمالي ص٦٧٧.

(٢٤) سورة الزخرف الآية ٣٩.

(٢٥) المغني ص٨٧، والأمالي ص١٤٢و١٤٣.

(٢٦) حكاه في شرح ديوان المتنبي المنسوب إلى العكبري ١٢/١.

و«كان»: تامة، وهي وفاعلها خفضٌ بإضافة «حيث»، والمعنى: إذِ الضياءُ حاصلٌ في كل موضع حصلتِ فيه بدلاً من الظلام».

ما ذكره المصنِّف في البيت تلخيصٌ لقول ابن الحاجب فيه[٢٧].

وقد اختُلف في ناصب «إذا» ،أهو شرطها أم جوابها، فأما الذين قالوا إنه ما في جوابها من فعل أو شبهه، فيَرِدُ عليهم أمور ذكرها المصنِّف، غير أنه أخذ قسمًا وافرًا منها من ابن الحاجب بلا تصريح.

ومن جملة الأمور التي ردّ بها المصنِّف، وقد نقلها بلا تصريح قولُه: «إن الشرط والجزاء عبارة عن جملتين تربط بينهما الأداة، وعلى قولهم تصير الجملتان واحدة؛ لأن الظرف عندهم من جملة الجواب، والمعمول داخل في جملة عامله».

وهو اعتراض ابن الحاجب[٢٨].

وقوله: «إنه يلزمهم في نحو: «إذا جئتني اليوم أكرمتك غدًا»، أن يعمل «أكرمتك» في ظرفين متضادين، وذلك باطل عقلاً؛ إذ الحدث الواحد المعين لا يقع بتمامه في زمانين، وقصدًا؛ إذ المرادُ وقوعُ الإكرام في الغد لا في اليوم».

وهذا أيضًا اعتراض ابن الحاجب في الأمالي[٢٩].

وقد ذكر المصنِّف لحرفية «على» تسعة معان، والمعنى التاسع نقله من ابن الحاجب[٣٠] مع شواهده وتعليقاته عليها بلا عزو، وهذا دأبه، لكنَّ أمره مع ابن الحاجب كان ظاهرًا.

---

(٢٧) المغني ص٩١، والأمالي ص٦٢٧-٦٣٠ .

(٢٨) المغني ص٩٩، والأمالي ص١٨٦.

(٢٩) المصدران السابقان ص٩٩-١٠٠، وص١٨٧.

(٣٠) المصدران السابقان ص١٤٤-١٤٦، وص٤٥٣-٤٥٤.

ومما يُؤخذ على المصنِّف أنه حين يذكر معاني الأدوات يبخل بخلاً شديدًا بالإفصاح عن مصادره، مع أن الذي ذكره فيها ليس له، وهذا أمر ظاهر، لا خلاف فيه، لكنه يوحي بكلامه بأنه أوّلُ من تكلّم على هذه المسائل.

ففي كلامه على معاني «على» حين تكون حرفًا ذكر لها تسعة معانٍ، أغلبها ذكره ابن الحاجب، لكن المصنِّف لم يُشر إليه ألبتة.

تقع «كذلك» بعد الجمل كثيرًا صفة في المعنى، فتكون نعتًا لمصدر أو حالاً، قال المصنِّف: «فإن قلت: فكيف اجتمعت مع «مثل» في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾[٣١]، و«مثلُ» في المعنى نعتٌ لمصدر «قال» المحذوف، كما أن «كذلك» نعت له، ولا يتعدى عامل واحد لمتعلقين بمعنى واحد، لا تقول: «ضربت زيدًا عمرًا»[٣٢]، ولا يكون «مثل» تأكيدًا لـ«كذلك»؛ لأنه أبينُ منه، كما لا يكون «زيد» من قولك: «هذا زيدٌ يفعل كذا» توكيدًا لـ«هذا» لذلك».

وهذان الوجه والاعتراض مأخوذان من ابن الحاجب[٣٣].

وفي السياق ذاته قال المصنِّف: «ولا خبرًا لمحذوف بتقدير: الأمرُ كذلك؛ لما يؤدي إليه من عدم ارتباط ما بعده بما قبله»[٣٤].

---

(٣١) البقرة، الآية ١١٢.

(٣٢) أمالي ابن الشجري ١٦٩/٣.

(٣٣) المغني ص١٧٨، والأمالي ص١٧٦.

(٣٤) قال ابن الشجري في الأمالي ١٦٩/٣: «وأقول: لا يجوز أن يكون موضع الكاف في الموضعين رفعًا كما زعم –يعني مكي– لأنّك إذا قدرتها مبتدأ احتاجت إلى عائد من الجملة، وليس في الجملة عائد». وجوّزه ابن الحاجب في الأمالي ص١٧٨ قال: «ولا يلزم نفي الارتباط، لأنّ أمره بوجود «كذلك» وعدمه على سواء، لأنّه معمولٌ له في الحقيقة».

غير أن ابن الحاجب جوّز هذا الوجه بقوله: «ولا يلزم نفي الارتباط، لأنّ أمره بوجود «كذلك» وعدمه على سواء، لأنّه معمولٌ له في الحقيقة»[٣٥].

وهذا لا يجري عليه قولهم: إنه من القواعد العامة التي لا تحتاج إلى توثيق، أو معرفة صاحبها، لأنها بمنزلة الأشياء التي لا تُنسب إلى شخص بعينه، وهذا لو سلم لا يلغي التوثيق، وذلك بالقياس إلى منهجه الذي اتبعه، فهو قد عزا شيئًا مشابهًا لما أغفله حين أراد الردَّ على من ذكره. وهذا كثير في المغني.

على أن الكلام الذي أغفل المصنِّف ذكر صاحبه لا يُعدّ في القواعد العامة، لأنه ليس كذلك، وليس مشتركًا بين النحويين، ولو كان عامًا؛ لكان عند الآخرين، بيد أنه نقله بلا عزو، وإغارته عليه ظاهرة، وهو ليس له، وهذا في المغني كثير أيضًا.

قال المصنِّف في سياق كلامه على قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾[٣٦]: «وقال المبرِّد[٣٧]: التقدير: قل لهم أقيموا يقيموا، والجزم في جواب «أقيموا» المقدر، لا في جواب «قل»».

ويردُّه[٣٨] أنّ الجواب لابدَّ أن يخالف المجاب: إما في الفعل والفاعل، نحو: «ائتني أكرمكَ»، أو في الفعل، نحو: «أسلمْ تدخُلِ الجنة»، أو في الفاعل، نحو: «قُمْ أقُمْ»، ولا يجوز أن يتوافقا فيهما، وأيضًا فإن الأمر المقدر للمواجهة، ويقيموا للغيبة».

---

(٣٥) المغني ص١٧٨، والأمالي ص١٧٨.

(٣٦) سورة إبراهيم، الآية ٣١.

(٣٧) نقل العكبري هذا الوجه عن المبرّد في التبيان ٦٨/٢، ونقله ابن الحاجب عن أبي علي الفارسي، وردّه من وجهين، ذكرهما المصنِّف بلا عزو.

(٣٨) وجها الردّ في التبيان لأبي البقاء العكبري ص٧٧٠.

هذا ردّ ابن الحاجب، نقله المصنِّف بلا عزو[٣٩].

ثم قال المصنِّف: «ثم اختلف هؤلاء في مطلوب ﴿يدعو﴾ على أربعة أقوال:

أحدها[٤٠]: أنها لا مطلوب لها، وأن الوقف عليها، وأنها إنما جاءت توكيدًا لـ﴿يدعو﴾ في قوله: ﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ﴾[٤١]، وفي هذا القول دعوى خلاف الأصل مرتين؛ إذ الأصلُ عدمُ التوكيد، والأصل ألا يُفصلَ المؤكد من توكيده، ولاسيما في التوكيد اللفظي».

وهذا ردّ ابن الحاجب[٤٢].

ابن خروف ردّ على مُدّعي[٤٣] اسمية «لما» بجواز أن يُقال «لما أكرمتني أمسِ أكرمتك اليوم»، لأنها إذا قُدِّرت ظرفًا كان عاملها الجواب، والواقع في «اليوم» لا يكون في «الأمس».

قال المصنِّف: «والجواب أن هذا مثلُ ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾[٤٤]، والشرط لا يكون إلا مستقبلاً، ولكن المعنى: إن ثبت أني كنت قلته، وكذا هنا المعنى: لما ثبت اليومَ إكرامُكَ لي أمس أكرمتك».

وهذا توجيه ابن الحاجب في الآية[٤٥].

---

(٣٩) المغني ص٢٢٣، الأمالي ص٢٣٥.

(٤٠) انظر معاني القرآن للفراء ٢١٨/٢.

(٤١) سورة الحج، الآية ١٢.

(٤٢) المغني ص٢٢٩–٢٣٠، والأمالي ص١١٩، قال: «إنّ التأكيد اللفظي لا يُفصل بينه وبين مؤكده بالجمل». وانظر معاني القرآن للفرَّاء ٢١٨/٢.

(٤٣) ومنهم ابن السراج والفارسي وابن جني وابن مالك كما في المغني ٢٤٣/١.

(٤٤) المائدة، الآية١١٦.

(٤٥) المغني ص٢٧٢، والأمالي ص٢١٩.

ومن الآيات التي ساقها المصنِّف على الدلالة على «ما» المصدرية غير الزمانية قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾(٤٦)، قال: «وليست هذه بمعنى «الذي»، لأن الذي سقاه لهم الغنم، وإنما الأجر على السّقي الذي هو فعله، لا على الغنم، فإن ذهبت تقدر أجر السقي الذي سقيته لنا؛ فذلك تكلُّفٌ لا مُحوج إليه».

وهذا ما قرره ابن الحاجب، وعنه أخذ المصنِّف(٤٧)، أخذًا يكاد يكون بنصه في بعض المواضع.

ولا شك أن بعض الأقوال التي أخذها ابن هشام عن ابن الحاجب لم تكن له في الاختيار، وما جعلني أذكر أنه أخذها من الحاجب لا من غيره أن التشابه مع ابن الحاجب كان كبيرًا في طريقة عرضها وترتيب أفكارها، وكذا ترتيب الردود عليها وغير ذلك مما يمكن أن يُذكر في سياقها.

وخير مثال على ذلك أن ما سبق ذكره لم يكن لابن الحاجب على وجه الخصوص، بل ذكره العكبري، وقد سبقهما إليها الباقولي، وأبو البركات الأنباري(٤٨).

قال المصنِّف: «السادس(٤٩): مرادفة «عن»، نحو ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾(٥٠)، ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾(٥١)، وقيل: هي في هذه للابتداء لتفيد

(٤٦) القصص، الآية٢٥.

(٤٧) المغني ص٢٩٣، والأمالي ص٢٧٥.

(٤٨) في كشف المشكلات وإيضاح المعضلات ١٩٧/٢، والبيان في غريب إعراب القرآن ١٩٢/٢.

(٤٩) من معاني «من»، وذكره سيبويه ٢٢٧/٤، والفراء في معاني القرآن ١٨٦/٢، ٤١٨، ١٨٧/٣، وابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص٥١٥، وفي أدب الكاتب، ص٥٠٨، وكراع النمل في المنتخب ص٣٣٧، وابن الحاجب في الأمالي ص٢٥٣.

(٥٠) الزمر، الآية٢٢.

(٥١) الأنبياء، الآية٩٧.

أن ما بعد ذلك من العذاب أشدُّ، وكأنّ هذا القائل يعلِّق معناه بـ«ويل»، مثل ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾(٥٢)، ولا يصحّ كونه تعليقًا صناعيًّا للفصل بالخبر».

والقائل هو ابن الحاجب(٥٣).

ومن عادة المصنِّف أنه يذكر في دبر كل مبحث مسائل تتعلق به، ومما ذكره عند الانتهاء من الكلام على «من» قولُه: «مسألة ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾(٥٤) «من» للابتداء(٥٥)، والظرف صفة لـ«شهوة»، أي: شهوة مبتدأة من دونهن(٥٦)، قيل: أو للمقابلة كـ«خُذ هذا منْ دون هذا»، أي: اجعله عوضًا منه(٥٧)، وهذا يرجع إلى معنى البدل الذي تقدم، ويردُّه أنه لا يصح التصريح به ولا بالعوض مكانها هنا».

وهذه تخريجات ابن الحاجب(٥٨).

قال المصنِّف في أثناء كلامه على أنواع التنوين: «وأما تنوين «رجل» ونحوه من المعربات فتنوين تمكين، لا تنوين تنكير، كما قد يتوهم بعض الطلبة، ولهذا لو سميت به رجلاً بقي ذلك التنوين بعينه مع زوال التنكير».

وهذا كلام ابن الحاجب(٥٩).

---

(٥٢) ص، الآية٢٧.

(٥٣) المغني ص٣٠٩، الأمالي ص٢٥٣.

(٥٤) الأعراف، الآية٨١.

(٥٥) الأمالي ص٢٥٩.

(٥٦) قال في الأمالي ص٢٥٩: أي تأخذون في ابتداء هذا الفعل من غير النساء.

(٥٧) قال في الأمالي ص٢٥٩: «أو على معنى المقابلة، أي: تجعلون هذا عوضًا عن هذا، كما تقول: خذ هذا من دون هذا، أي: اجعله عوضًا منه».

(٥٨) المغني ص٣١٤، والأمالي ص٢٥٩.

(٥٩) المصدران السابقان ص٣٢٤-٣٢٥، وص٨٧٦ .

قال المصنِّف في سياق كلامه على حكم الجمل بعد المعارف وبعد النكرات: «ومنه[٦٠] ﴿حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾[٦١]، وإنما أعيد ذكر «الأهل»، لأنه لو قيل: «استطعماهم» مع أن المراد وصف «القرية»؛ لزم خلو الصفة من ضمير الموصوف، ولو قيل «استطعماها» كان مجازًا، ولهذا كان هذا الوجه أولى من أن تقدر الجملة جوابًا لـ«إذا»؛ لأن تكرار الظاهر يَعرى حينئذ عن هذا المعنى، وأيضًا فلأنّ الجواب في قصة الغلام ﴿قال أقتلتَ﴾[٦٢]، لا قوله: «فقتله»، لأن الماضي المقرون بالفاء لا يكون جوابًا، فليكن «قال» في هذه الآية أيضًا جوابًا».

هذا هو توجيه ابن الحاجب في الآية، وعليه اتّكأ المصنِّف بلا عزو[٦٣].

قال المصنِّف في سياق كلامه على مسألة عطف الاسمية على الفعلية وبالعكس: «فيه ثلاثة أقوال: أحدها: الجواز مطلقًا، وهو المفهوم من قول النحويين في باب الاشتغال في مثل «قام زيدٌ وعَمْرًا أكرمته»: إن نصب «عمرًا» أرجح، لأن تناسب الجملتين المتعاطفتين أولى من تخالفهما».

وهذا ما ذكره ابن الحاجب في هذا السياق[٦٤].

قال المصنِّف في سياق تعقيبه على إعراب «كلالة» في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ﴾[٦٥]: «والصواب في الآية أنّ «كلالة» بتقدير

(٦٠) أي من النوع الأول، وهو أن تكون الجملة صفة إن كانت مرتبطة بنكرة محضة.

(٦١) سورة الكهف: الآية ٧٧.

(٦٢) سورة الكهف: الآية ٧٤.

(٦٣) المغني ص٤٠٥، والأمالي ص٢١٧.

(٦٤) المصدران السابقان ص٤٥٥، وص٥٠٦، وانظر الانتصار لسيبويه على المبرد لابن ولاد ص٦٠-٦١، والجمل للزجاجي ص٤٠، والأمالي لابن الحاجب ص٥٠٦، وشرح الكافية للرضي ١/١٧٥، و٤٦٥ فما بعد.

(٦٥) سورة النساء: الآية ١٢.

مضاف، أي ذا كلالة، وهو إما حال من ضمير «يورث» فكان ناقصة، و«يورث» خبر، أو تامة فـ«يورث» صفة[٦٦]، وإما خبر فـ«يورث» صفة، ومن فسّر «الكلالة» بالميت[٦٧] الذي لم يترك ولدًا ولا والدًا فهي أيضًا حال أو خبر[٦٨]، ولكن لا يحتاج إلى تقدير مضاف، ومن فسرها بالقرابة فهي مفعول لأجله».

وهذه الأوجه وتوجيهها ذكرها ابن الحاجب في أماليه[٦٩].

قال المصنِّف: «الحادي عشر[٧٠]: قول بعضهم[٧١] في ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾[٧٢]: إن «هو» ضمير الشأن، و«أن يعمر»: مبتدأ، و«بمزحزحه»: خبر[٧٣]، ولو كان كذلك لم يدخل الباء في الخبر»[٧٤].

ذكره ابن الحاجب في أحد أقواله في الأمالي، ثم قال: «وحسن دخول الباء لأن المعنى معنى النفي»[٧٥].

---

(٦٦) قال ابن الحاجب في الأمالي ص١٥٠: «والأولى في «كان» أن تكون تامة على معنى: وإن حدث أو وقع».

(٦٧) نسب الزجاجي هذا التفسير إلى بعض العلماء في الأمالي ص١٥.

(٦٨) ذكر الأخفش هذين الوجهين في معاني القرآن ص٢٥٠-٢٥١، وانظر معاني القرآن للزجاج ٢٥/٢.

(٦٩) المغني، ص٢، والأمالي، ص١٥٠.

(٧٠) من أمثلة الجهة الثانية، وهي أن يراعي المعرب معنى صحيحًا، ولا ينظر في صحته في الصناعة.

(٧١) حكاه الزجاج عن بعضهم في معاني القرآن ١٧٩/١، وذكره ابن الحاجب في أحد أقواله في الأمالي ص٢٣٨.

(٧٢) سورة البقرة: الآية ٩٦.

(٧٣) وهو ظاهر تقدير الفراء، انظر معاني القرآن ٥١/١.

(٧٤) هذا ردّ الزجاج في معاني القرآن ١٧٩/١.

(٧٥) المغني ص١٥، والأمالي ص٢٣٧، وانظر معاني القرآن للفرَّاء ٥١/١.

قال المصنِّف: «الحادي عشر[٧٦]: قولُ الجماعة[٧٧] في قوله تعالى: ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[٧٨]: إن فيه حذف مضافين، والمعنى «علمت ضعفاء الجن أن لو كان رؤساؤهم»، وهذا معنى حسن، إلا أن فيه دعوى حذف مضافين لم يظهر الدليلُ عليهما، والأَولى[٧٩] أنّ «تبيّن» بمعنى «وضح»، و«أن وصلتها» بدلُ اشتمال من الجن، أي: وضح للناس أن الجن لو كانوا... إلخ».

ذكر ذلك ابن الحاجب في الأمالي[٨٠].

قال المصنِّف: «الثالث عشر: قول مكي[٨١] وغيره[٨٢] في قوله تعالى: ﴿وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٨٣]، إن «زهرة» حال من الهاء في «به» أو من «ما»، وإن التنوين حذف

(٧٦) من أمثلة الجهة الرابعة، وهي أن يخرج على الأمور البعيدة والأوجه الضعيفة، ويترك الوجه القريب والقويّ.

(٧٧) حكاه ابن الحاجب في الأمالي ص٢٧٤.

(٧٨) سورة سبأ: الآية ١٤.

(٧٩) ذكره الزجاج عن بعضهم في معاني القرآن ٢٤٧/٤، وقال فيه ابن الحاجب في الأمالي، ص٢٧٤ «فتقديرٌ مستغنىً عنه».

(٨٠) المغني، ص٢٥، والأمالي، ص٢٧٤، قال أبو عبيدة في مجاز القرآن ١٤٥/٢-١٤٦: «مجازه مجاز المختصر الذي فيه ضمير، لأنّ «تبيّنت» في موضع «أبانت الجنّ للناس أن لو كانوا يعلمون الغيب لما كانوا في العذاب، وقد مات سليمان صلّى الله عليه».

(٨١) مشكل إعراب القرآن ٣٠/٢، وحكاه عنه العكبري في التبيان ص٩٠٩، ثم قال: «وفيه نظر».

(٨٢) وابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن، ص٥١٥، وفي أدب الكاتب له، ص٥٠٨، وكراع النمل في المنتخب ص٣٣٧.

(٨٣) سورة طه: الآية ١٣١.

للساكنين[٨٤] مثل قوله:

... ... ولا ذاكر اللهَ إلا قليلا[٨٥]

وإن جر «الحياة» على أنه بدل من «ما»[٨٦].

والصواب أن «زهرة» مفعول بتقدير جعلنا لهم أو أتيناهم[٨٧]، ودليلُ ذلك ذكر التمتيع، أو بتقدير «أذمُ»، لأن المقام يقتضيه، أو بتقدير «أعني»[٨٨] بيانًا لـ«ما» أو للضمير، أو بدل من أزواج[٨٩]، إما بتقدير ذوي زهرة، أو على أنهم جُعلوا نفس الزهرة مجازًا للمبالغة[٩٠]، وقال الفرَّاء: «هو تمييز لـ«ما» أو للهاء»[٩١]، وهذا على مذهب الكوفيين في تعريف التمييز.

---

(٨٤) كذا حكى سيبويه عن عيسى بن عمر في الكتاب ١٦٩/١، وقال الأخفش في معاني القرآن ص٩١: «وهو قبيح».

(٨٥) البيت لأبي الأسود الدؤلي، وصدره: «فألفيْته غير مُستعتِبٍ»، وهو في الكتاب ١٦٩/١، ومعاني القرآن للفرَّاء ٢٠٢/٢، ومعاني القرآن للأخفش ص٩١، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٣٠٧/١، والإيضاح في شرح المفصّل لابن الحاجب ٣٣٢/١.

(٨٦) قال في الأمالي ص٢٣١–٢٣٢: «يوجب حذف التنوين لالتقاء الساكنين وهو ضعيف، ويوجب أن تكون (الحياة الدنيا) بدلاً من (ما) وهو خلاف الظاهر، ولذلك جعلُه حالاً من «ما» أو من الضمير لا يُجابه ما تقدم بعينه من الضعف المتقدم».

(٨٧) هذا تقدير الزجاج في معاني القرآن ٣٨٠/٣، وذكره العكبري في التبيان ص٩٠٩، وانظر أمالي ابن الحاجب ص٢٣١.

(٨٨) ذكر ذلك العكبري في التبيان ص٩٠٩.

(٨٩) الأمالي ص٢٣١، وقد ذكره العكبري في التبيان ص٩٠٩.

(٩٠) ذكره العكبري في التبيان ٩٠٩، وهذه التخريجات ذكرها ابن الحاجب في الأمالي، ص٢٣١.

(٩١) معاني القرآن ٢٠٢/٢.

وقيل: بدل من «ما»، ورُدَّ[٩٢] بأن «لنفْتنهم» من صلة «متْعنا»، فيلزم الفصل بين أبعاض الصّلة بأجنبي، وبأن الموصول لا يتبع قبل كماله صلته، وبأنه لا يقال: «مررت بزيد أخاك» على البدل[٩٣]، لأن العامل في المبدل منه لا يتوجه إليه بنفسه.

وقيل[٩٤]: من الهاء، وفيه ما ذكر، وزيادةُ الإبدالِ من العائد، وبعضهم يمنعه بناء على أن المبدل منه في نيّة الطّرح[٩٥]، فيبقى الموصول بلا عائد في التقدير».

كل ذلك مأخوذ من ابن الحاجب في الأمالي[٩٦].

وقد أكثر المصنِّف في المغني من قوله: «وقيل»، أو «وقالوا»، وليس لما استقرَّ عليه مذهبه في هذا من تفسير إلا أنه عمد إلى إغفال من نقل عنهم مرتضيًا آراءهم، يدلُّ عليه قوله السابق.

فإذا قيل: هذا لا يحتاج إلى ذكر أعلام من ذهب هذا المذهب، قلنا: لو كان الأمر على ما هو عليه، أو موحيًا بما ذهبوا إليه، لما قال ذلك مرات كثيرة، حتى استوى في كتابه منهجًا ثابتًا، بل كان قد اكتفى بذكر الكلام على بابه، كما فعل في كثير من المسائل.

وما يؤكّد هذا أنه يلتزم هذا المنهج في الآراء التي لا يقوى على ردِّها، أو لا يريد

---

(٩٢) ذكره العكبري في التبيان عن بعضهم، ص٩٠٩، وذكره ابن الحاجب في الأمالي، ص٢٣١.

(٩٣) الأمالي، ص٢٣١.

(٩٤) ذكره العكبري في التبيان، ص٩٠٩.

(٩٥) قال في المقتضب ٤/٤٠٠: «والمعنى الصحيح أنّ البدل والمبدل منه موجودان معًا، لم يوضعا على أن يسقط أحدهما إلاّ في بدل الغلط، فإنّ المبدل منه بمنزلة ما ليس في الكلام».

(٩٦) المغني ص٢٦-٢٧، والأمالي ص٢٣١.

ردَّها، أو ارتضاها بلا تعقيب، أو لا مناص أمامه من ذكرها، وسبب التصريح باسم النحوي للردّ عليه في المقام الأول عنده، وكذا الردّ بكلامه على غيره.

قال المصنِّف: «وقد يكون الموضع لا يتخرج إلا على وجه مرجوح، فلا حرج على مخرّجه، كقراءة ابن عامر وعاصم ﴿وكذلكَ نُجّي المؤمنينَ﴾(٩٧) فقيل(٩٨): الفعل ماض مبني للمفعول، وفيه ضعف من جهات: إسكان آخر الماضي، وإنابة ضمير المصدر مع أنه مفهوم من الفعل، وإنابة غير المفعول به مع وجوده، وقيل(٩٩): مضارع، أصله «ننجِي» بسكون ثانيه، وفيه ضعف، لأن النون عند الجيم تخفى ولا تدغم(١٠٠)، وقد زعم قوم أنها أدغمت فيها قليلاً وأن منه «أترجّ وإجّاصة وإجّانة»، وقيل: مضارع، وأصله «ننجّي» بفتح ثانيه وتشديد ثالثه، ثم حذفت النون الثانية، ويضعفه أنه لا يجوز في مضارع «نبّأتُ ونقّبت ونزّلت» ونحوهن إذا ابتدأت بالنون أن تحذف النون الثانية إلا في ندور كقراءة بعضهم ﴿ونُزِّلُ الملائكةَ تَنزيلا﴾(١٠١).

(٩٧) الأنبياء، الآية٨٨، وانظر النشر في القراءات العشر ص٧٠٣.

(٩٨) قاله الفراء في معاني القرآن ٢/٢١٠، وخرّجه على إضمار مصدر، ونوى به الرفع لينوب عن الفاعل.

وقال الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٣/٣٦: «لا وجه له»، وقال في ٣/٤٠٣: «وهذا خطأ بإجماع النحويين كلهم، لا يجوز «ضُرِبَ زيدًا»، تريد «ضرب الضرب زيدًا»، لأنّك إذا قلتَ: «ضُرِبَ زيدٌ» فقد علم أنّه الذي ضربه ضربٌ، فلا فائدة في إضماره وإقامته مع الفاعل».

ونقل ابن الحاجب هذا الوجه في الأمالي ص٢٠٣، وقال: «لا يظهر فيه وجه مستقيم»، ثمّ اعترضه من وجوه. والظاهر أنّ المصنِّف عوّل عليه فيما ذكره.

(٩٩) قال الخليل في الجمل المنسوب إليه ص٢٢٨: «أدغم إحدى النونين في الأخرى»، وذكر ذلك ابن الحاجب في الأمالي ص٢٠٣، وضعّفه.

(١٠٠) الأمالي، ص٢٠٣.

(١٠١) الفرقان، الآية٢٥، وانظر النشر في القراءات العشر ص٧٠٣.

وهذه الاعتراضات والردود أخذها المصنِّف عن ابن الحاجب بلا عزو[١٠٢].

قال المصنِّف: «مسألة ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾[١٠٣]، تحتمل «كان» الأوجه الثلاثة، فعلى الناقصة: الخبرُ إما «لبشر»، و«وحيًا» استثناء مفرغ من الأحوال، فمعناه موحيًا موحىً، أو «من وراء حجاب»، بتقدير: أو موصّلاً ذلك من وراء حجاب، و«أو يرسل» بتقدير أو إرسالاً، أي أو ذا إرسال، وإما «وحيًا» والتفريغُ في الإخبار، أي: ما كان تكليمهم إلا إيحاءً أو إيصالاً من وراء حجاب أو إرسالاً، وجُعل ذلك تكليمًا على حذف مضاف، و«لبشر» على هذا تبيين، وعلى التمام والزيادة فالتفريغُ في الأحوال المقدرة في الضمير المستتر في «لبشر».

والظاهر أنّ المصنِّف قد استلّ هذه الأوجه من الأمالي بلا عزو[١٠٤].

ومن تنبيهات المصنِّف قوله: «وقد يحتمل الموضع أكثر من وجه، ويوجد ما يرجح كلاً منها، فينظر في أولاها كقوله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾[١٠٥]، فإنّ الموعد محتمل للمصدر، ويشهد له ﴿لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ﴾، وللزمان ويشهد له ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾[١٠٦]، وللمكان ويشهد له ﴿مَكَانًا سُوًى﴾، وإذا أعرب «مكانًا» بدلاً منه لا ظرفًا لـ«نخلفه» تعيّن ذلك».

وهذه الاحتمالات ذكرها ابن الحاجب مفصّلة، واختار الأوّل[١٠٧].

---

(١٠٢) المغني ص٢٨– ٢٩، والأمالي ص٢٠٣.

(١٠٣) سورة الشورى: الآية٥١.

(١٠٤) المغني ص٣١، والأمالي ص٢٢٧–٢٢٨.

(١٠٥) سورة طه: الآية ٥٨.

(١٠٦) سورة طه: الآية ٥٩.

(١٠٧) المغني ص٦٣–٦٤، والأمالي ص٢٤٦–٢٤٧.

ومن أمثلة الجهة التاسعة[١٠٨] قول المصنِّف: «ألا يتأمل عند وجود المشتبهات، ولذلك أمثلة: أحدها: نحو «زيدٌ أحصى ذهْنًا»، و«عمرو أحصى مالاً»، فإن الأول على أن «أحصى» اسمُ تفضيل، والمنصوب تمييز مثل «أحسن وجهًا»، والثاني على أن «أحصى» فعلٌ ماض، والمنصوب مفعول مثل: ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[١٠٩].

ومن الوهم قولُ بعضهم[١١٠] في ﴿أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾[١١١]: إنه من الأول، فإن «الأمد» ليس مُحصيًا بل مُحصىً، وشرط التمييز المنصوب بعد «أفعل» كونُه فاعلاً في المعنى[١١٢] كـ«زيدٌ أكثرُ مالاً»، بخلاف «مالُ زيدٍ أكثرُ مالٍ».

وهذا ردّ ابن الحاجب في الأمالي[١١٣].

قال المصنِّف: «وأما قول الزمخشري في قول الله عزّ وجل: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾[١١٤]: إنه يجوز أن يكون تقديره: «هو في آذانهم وقر»، فحذف المبتدأ، أو «في آذانهم منه وقر»، والجملة خبر «الذين»، مع إمكان أن يكون لا حذف فيه، فوجهُه أنه لما رأى ما قبل هذه الجملة وما بعدها حديثًا في القرآن قدّر ما بينهما كذلك، ولا يمكن أن يكون حديثًا في القرآن إلا على ذلك،

(١٠٨) وهي: ألا يتأمل عند وجود المشتبهات.

(١٠٩) سورة الجن: الآية ٢٨.

(١١٠) وهو الفراء في معاني القرآن ١٣٦/٢، وأجاز الزجاج الوجهين في معاني القرآن وإعرابه ٢٧١/٣.

(١١١) سورة الكهف: الآية ١٢.

(١١٢) الأمالي ص٢٧٧.

(١١٣) المغني ص٦٧، والأمالي ص٢٧٧.

(١١٤) سورة فصلت: الآية٤٤.

اللهم إلا أن يقدر عطف «الذين» على «الذين»، و«وقر» على «هدى»، فيلزم العطف على معمولي عاملين».

وهذا بتمامه ذكره ابن الحاجب(١١٥).

قال المصنِّف في كلامه على حذف أداة الاستثناء: «لا أعلم أنَّ أحدًا أجازه، إلا أنَّ السهيلي قال في قوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ﴾(١١٦) الآية: لا يتعلق الاستثناء بـ﴿فاعل﴾؛ إذ لم ينه عن أن يصل ﴿إلا أن يشاء الله﴾ بقوله ذلك، ولا بالنهي؛ لأنك إذا قلت: أنت مَنهيٌ عن أن تقوم، إلا أن يشاء الله فلستَ بمنهي، فقد سلّطْته على أن يقوم ويقول: شاء الله ذلك، وتأويلُ ذلك أن الأصل «إلا قائلاً إلا أن يشاء الله»، وحذف القول كثير، فتضمن كلامه حذف أداة الاستثناء والمستثنى جميعًا.

الصوابُ أن الاستثناء مفرَّغ، وأن المستثنى مصدر أو حال، أي: إلا قولاً مصحوبًا بأنْ يشاء الله، أو إلا متلبسًا بأن يشاء الله، وقد علم أنه لا يكون القول مصحوبًا بذلك إلا مع حرف الاستثناء، فطوي ذكره لذلك، وعليهما فالباء محذوفة من «أنْ»(١١٧)، وقال بعضهم: يجوز أن يكون ﴿أن يشاء الله﴾ كلمة تأبيد، أي: لا تقولنّه أبدًا، كما قيل في ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾(١١٨)، لأن عودَهم في ملّتهم مما لا يشاؤه الله سبحانه.

---

(١١٥) المغني ص٧١، والأمالي ص١٥٤-١٥٥.

(١١٦) سورة الكهف، الآية ٢٣.

(١١٧) قال الفراء في معاني القرآن ٤٧٢/١: «المعنى: لا تقولنّ لشيء: إني فاعل ذلك غدًا إلاّ بالاستثناء، إلاّ أن تقول: إن شاء الله». وقال في ١٣٨/٢: «إلاّ أن تقول: إن شاء الله ويكون مع القول، ولا تقولنّه إلاّ أن يشاء الله». وهو يجعل «أن» على نية الخفض. انظر ١٧٨/١، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٧٨/٣.

(١١٨) الأعراف: الآية ٨٩.

وجوّز الزمخشري[١١٩] أن يكون المعنى: ولا تقولن ذلك إلا أن يشاء الله أن تقوله بأن يأذن لك فيه.

ولما قاله مُبعِد، وهو أنّ ذلك معلوم في كلّ أمر ونهي، ومُبطلٌ، وهو أنه يقتضي النهي عن قول: إني فاعل ذلك غدًا مطلقًا، وبهذا يرد أيضًا قول مَنْ زعم أن الاستثناء منقطع، وقول من زعم أن ﴿إلا أن يشاء الله﴾ كنايةٌ عن التأبيد».

وما ذكره المصنِّف من آراء وردود في الآية مستلٌّ من الأمالي بتصرّف يسير بلا عزو[١٢٠].

والغريب أن المصنِّف لم يصرّح باسم من اتكأ عليه فيما يريد، واكتفى بقوله: «وقال بعضهم»، وهذا منهجه في المغني كلِّه، فهو يأبى التصريح بمن أفاد منهم، ولا يذكرهم إلا حيث يردّ عليهم.

غير أنه لما أراد الردّ على الزمخشري ذكره مصرّحًا، وهذا ديدنه في ردوده، لكنَّ ردّه عليه يكون حيث يسكت عنه أبو حيان، فإذا ردّ عليه، تركه، وردّ على أبي حيان، وهذا الضرب من الردود في المغني كثير.

وعند عرض المغني على غيره من المصنَّفات تطالعنا أمور واضحة، منها أنّ صاحبه ذكر كلامًا كثيرًا نقع عليه في غيره، وهذا ما وجدته في الأمالي، إذ الكلام الذي ذكره المصنِّف ذكره ابن الحاجب، وهذا كثير، ولا يحتاج إلى دليل.

---

(١١٩) قال الزمخشري في الكشاف ٢/٢٨٣: «وتعلقه بالنهي على وجهين أحدهما: ولا تقولن ذلك القول إلا أن يشاء الله أن تقوله بأن يأذن لك فيه، والثاني: ولا تقولنه إلا بأن يشاء الله، أي: إلا بمشيئة الله، وهو في موضع الحال، يعني: إلا ملتبسًا بمشيئة الله قائلاً: إن شاء الله، وفيه وجه ثالث، وهو: أن يكون ﴿أن يشاء الله﴾ في معنى كلمة تأبيد، كأنه قيل: ولا تقولنه أبدًا».

(١٢٠) المغني ص١٠٥-١٠٦، والأمالي ص١٩٦- ١٩٧.

الخاتمة:

وخلاصة الكلام أن المصنِّف أخذ كثيرًا من أقوال النحويين بلا عزو، وقد تبيّن ذلك واضحًا في نقله عن ابن الحاجب بلا تصريح، ولكنه استطاع أن يمزج كلامهم بكلامه مزجًا، يصعب فيه التمييز بينهما إلا بعرض المغني على غيره من الكتب الأخرى عرضًا تفصيليًّا، وهذا ممّا يشهد له بقدرته على هذا المنهج الذي يكاد يكون قد انفرد به.

وما يدلّ على ذلك أن المغني على ما فيه من فوائد جمة يكاد يخلو من المصادر، ولاسيما إذا ما قوبل بغيره من المصنَّفات النحوية، وأغرب من هذا أن صاحبه ما كان يذكر أحدًا إلا وفي نفسه حبُّ الردِّ عليه، أو في سبيل الردّ على آخر، فالتصريح باسم من ينقل عنه كان قليلاً جدًا وضمن منهج معين، وليس على إطلاقه كما هو الحال عند غيره.

ومهما يكن؛ فالمصنِّف استطاع من خلال هذا المنهج أن يختط لنفسه طريقًا خاصة به، إذ تحرّى الدقَّة ما أمكنه ذلك، واختار من المذاهب ما يقوّي رأيه، وكان أسلوبه في المزج بين الأقوال غاية في التميُّز، فكان الفصل بينها أمرًا، لا يكاد يطاق، وبه تميَّز أسلوبه من أساليب غيره، وبه انفرد صاحبه عن غيره من المتأخرين.

وما يميِّز المصنِّف أيضًا أنه أفاد كثيرًا من غيره، ومزج بين كثير من الآراء، دون أن يفصل بين كلامه وكلامهم، أو بين كلام أحد منهم وآخر، وأصبح ما ذكره جزءًا من كلامه، وهو ليس كذلك، إلا أن قدرته على المزج المحكم، وصنعه لبعض المحاكمات، ومنهجه المسبوك في مناقشة الآراء والردود، وإتيانه ببعض الآراء متفرّدًا بها، وإلماحاته الذهنية الدقيقة، جعلت الباحثين يلتفتون إلى ذلك مغفلين تبيان مصادره، وهو أمر لا يؤثر في منزلته النحوية، أو في ما قاله فيه بعض أقرانه أو معاصريه.

المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم.
٢- «أثر مصنفات ابن مالك في مغني اللبيب مما لم يصرح به ابن هشام»، الدكتور نبيل أبو عمشة، **مجلة جامعة دمشق**، المجلد٢٠، العدد(٣+٤)، سنة٢٠٠٤م.
٣- أدب الكاتب لابن قتيبة، تحقيق د.محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م.
٤- الأضداد لأبي بكر بن الأنباري، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٨م.
٥- أمالي ابن الحاجب، تح د.فخر صالح سليمان قدارة، دار عمار، عمان، دار الجيل، بيروت.
٦- أمالي الزجاجي، تح عبد السّلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.
أمالي ابن الشجري، حيدر آباد ١٣٤٩هـ، طبعة مصورة، دار الجليل، بيروت.
٧- إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٦هـ.
٨- الانتصار لسيبويه على المبرد لابن ولاد التميمي تح د.زهير عبد المحسن سلطاني، مؤسسة الرسالة،بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
٩- الإيضاح في شرح المفصل لابن الحاجب، تح موسى العليلي، مطبعة العاني بغداد.
١٠- البحر المحيط لأبي حيان، إعداد إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.
١١- البيان في غريب إعراب القرآن لأبي البركات الأنباري، تحقيق د.طه عبد الحميد طه، الهيئة المصرية العامة،١٩٧٠م.
١٢- التبيان في إعراب القرآن (إملاء ما منّ به الرحمن) لأبي البقاء العكبري، تح علي محمد البجاوي، طبع إحياء الكتب العربية.

١٣- الانتصار لسيبويه على المبرد لابن ولاد التميمي، تحقيق د.زهير عبد المحسن سلطاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
١٤- تأويل مُشكل القرآن لابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، ٢٠٠٦م.
١٥- تلقين المتعلم من النحو لابن قتيبة، تح عبد الله الناصير، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
١٦- الجمل في النحو المنسوب إلى الخليل، تح د.فخر الدين قباوة، ط٥، ١٩٩٥م.
١٧- الزاهر في معاني كلمات النّاس لأبي بكر بن الأنباري، تحقيق د.حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
١٨- شرح ديوان المتنبي المنسوب للعكبري، تح مصطفى السقا وزملائه، مطبعة مصطفى الحلبي، ٣٩١هـ
١٩- شرح الكافية للرضي، الشركة الصحافية العثمانية، إستانبول.
٢٠- شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح لابن مالك، تح محمد فؤاد عبد الباقي، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.
٢١- كتاب سيبويه، تح عبد السلام هارون، عالم الكتب، ط٣، ٩٨٣هـ.
٢٢- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ٣٩٢هـ.
٢٣- كشف المشكلات وإيضاح المعضلات للباقولي، تح د.محمد أحمد الدالي، طبع مجمع اللغة العربية، ١٩٩٤م.
٢٤- ما ينصرف وما لا ينصرف للزجاج، تح د.هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٠م.
٢٥- مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تح محمّد فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨١م.
٢٦- المذكّر والمؤنّث لأبي بكر بن الأنباري، تح محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، الجزء الأوّل ١٩٨١م، الجزء الثاني ١٩٩٩م.

٢٧- معاني القرآن للأخفش، تح د٠فائز فارس، دار البشير، ١٤٠١هـ.
٢٨- معاني القرآن للفرَّاء، تح أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، ود.عبد الفتاح إسماعيل شلبي، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
٢٩- معاني القرآن وإعرابه للزجاج، تح عبد الفتاح شلبي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.
٣٠- المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري، تح د.علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
٣١- المقتضب للمبرد، تح محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب.
٣٢- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري، تح د.مازن المبارك، والأستاذ علي حمد الله، دار الفكر، ط١، ١٩٩٤م.
٣٣- المنتخب من غريب كلام العرب لكراع النمل، تح د.يحيى مراد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٥م.
٣٤- النشر في القراءات العشر لابن الجزري، أشرف على تصحيحه علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت.

المقالات والآراء

كتاب «مسالك التراث في النحو والصرف»

تعريف ونقد

بقلم: د. مازن المبارك(*)

في

النحو والصرف

خلاصات - موضوعات- فصول
للناشئين - للمدرسين- للمختصّين
بفهارس متنوعة وشواهد رفيعة

تأليف
الأستاذ ياسين طربوش

قدّم له:
الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

اعتنى به:
الدكتور أيمن الشوّا

اشرف عليه واعتنى به
سماح عثمان حمشو

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

مسالك النحو والصرف

د. مازن المبارك(*)

صدر كتاب «مسالك النحو والصرف» لمؤلِّفه الأستاذ ياسين طربوش – رحمه الله – بعد انتظار طويل وشوق من تلاميذ المؤلِّف وأصدقائه وعارفي فضله وعلمه؛ فلقد كانوا يعرفون أنه يؤلِّف كتابًا في النحو بذل فيه الكثير من وقته وجهده، ولكنّ المنيَّة عاجلته قبل أن يخرجه.

والأستاذ ياسين طربوش معروف بين زملائه وأصدقائه وتلامذته بغزارة علمه ودقة عمله وعلوّ همّته وشدّة انضباطه، ولقد عرفته – رحمه الله – حين كنت في أوائل الأربعينيات من القرن الماضي طالبًا في مدرسة التجهيز الأولى بدمشق (ثانوية جودة الهاشمي) حيث درست عليه شهرًا أو شهرين ثم نقلت إدارة المدرسة من الشعبة التي يدرّس فيها أربعة طلاب إلى شعبة أخرى، بحجة ضرورة المساواة بين عدد الطلاب في الشعب كلها، وكنت أنا واحدًا من الطلاب المنقولين.

ثم عرفته بعد سنين في الحياة العامّة، ثم في كلية الآداب بجامعة دمشق حين درّس محاضرًا في قسم اللغة العربية، ثم في الجامعة الليبيّة حيث زرته ولبيّت دعوته إلى بيته، ولقد رأيت فيه في كل مراحل حياته ما رأيت فيه يوم عرفته أول مرة من فضائل الخلق والعلم.

(*) عضو مجمع اللغة العربية.

كان الأستاذ ياسين طربوش – رحمه الله – معلّمًا ناجحًا ومرشدًا مربيًا، قدوة في حبّه للعلم ونشره، وغيرة على اللغة العربية، ورغبة في العمل على ما ينفع الناس. وكان حريصًا على أن يترك بين أيدي الناشئين والمدرّسين والمختصيّن كتابًا يحقق رغبته في تيسير العربية للدارسين ولكن المنيّة عاجلته سنة ١٩٧٧م وكتابه مازال بين يديه لم يتمّه، ورجونا أن يخرج الكتاب على نقصه لأننا نعرف علم الأستاذ طربوش، ونعرف كيف يهجم في كل موضوع نحويّ على اللّب المفيد في وضوح وتركيز قلّ أن عرفناهما عند غيره من نظرائه.

وصدر اليوم كتابه في جزأين يضمّان (١٢٦٧) صحيفة ومعهما جزء يتمّ العدد به (١٣٦٣) صحيفة للفهارس التي ضمت الآيات القرآنية وقراءاتها، والأحاديث النبوية، والأمثال والشواهد الشعرية والمصادر والموضوعات.

كان منهج الكتاب على ما توقّعه عارفو الأستاذ طربوش فريدًا بين الكتب فرادة مؤلِّفه بين المعلّمين والمؤلفين، إذ قدّم النحو والصرف والإملاء في حلقات بلغت (١٧) سبع عشرة حلقة، وضع لها منهجًا التزمه فيها، وهو منهج يقوم على البدء ببيت من الشعر الذي يُستشهد به، يفسّر ألفاظه ثم يشرح معناه ثم يعربه مفرداتٍ وجملاً، ويحلّل بعد ذلك موضوعات النحو المتصلة بالبيت فيشرحها ويبيّن أحكامها وقواعدها، ويورد شواهدها من القرآن الكريم والشعر، ويخرّجها ويفسّرها.. يقوم بذلك كلّه بأمانة لا يترك معها كلمة ولا رأيًا ولا قولاً إلا منسوبًا إلى مصدره ومعزوًّا إلى قائله، سواء أكان ذلك في المتن أم في الحواشي.

وقد تكون الموضوعات المتصلة بالبيت في حاجة إلى شرح طويل يخشى المؤلِّف معه الإثقال على القارئ فيلجأ إلى تأجيل تتمة الموضوع إلى مناسبة ثانية في حلقة ثانية من حلقات الكتاب.

وكتاب «مسالك التراث» كتاب غزير المادة العلمية، كثير الفوائد اللغوية والنحوية والصرفية، أشهد أنه يحقق كثيرًا من طموح مؤلفه رحمه الله، فقد كان همّه أن يقرِّب الكنوز النفيسة من التراث النحوي إلى الطلاب، وأن ييسّر عليهم الوصول إلى المراجع الأصيلة، وأن يعرض النحو بطريقة عصريّة عقليّة تتفّق وثقافة العصر الحديث، إنه كان توّاقًا إلى أن يرى جيل الناشئين متقدّمًا للّحاق بركب الأمم عاملاً على خدمة الأغراض الوطنية والقومية والإنسانية كما قال في مقدمة كتابه. **ولكن الأسف يملأ النفس** حين نرى في الكتاب ما لا يتناسب وجهد المؤلف!

أما الفهارس فقد صُنعت على شكل شبكة يزيغ فيها البصر، وكأنها موضوعة لطلاب المدارس الابتدائية، هذا من حيث الشكل، وأما من حيث المضمون:

ففي فهرس الموضوعات كانت تأتي كلمة (مسائل)! ومن أين للقارئ أن يعرف مضمونها وهي تتكرر في كل حلقة غير مرّة؟ ومن أين للقارئ أن يعرف ما حشاها المؤلف به من نظرات وآراء وفوائد؟! إن المؤلف كما سبق أن بيّنت تناول الموضوع الواحد في حلقتين، وكان على الفهرس أن يجمع بالأرقام ما تفرّق في صحائف الكتاب من الموضوعات، كان عليه أن يلمّ الجزئيات المتفرّقة من الموضوع الواحد في مكان واحد من الفهرس لتسهل العودة إلى الموضوع بكل ما يتصل به من جزئيات وتتمّات، وبذلك يسهل على الطالب

أن يعرف مواضع الموضوع الواحد كلّها في الكتاب كلّه. إن طبيعة الموضوع وطريقة عرضه في الكتاب هما ما يجب أن يخضع له الفهرس، وليس الفهرس واحدًا في طريقة إخراجه في جميع الكتب.

إن كتاب الأستاذ طربوش كتاب نفيس مُلئ علمًا وحُشي بالفوائد في علوم العربية، وهي تكاد تكون ضائعة في الفهرس لا يستطيع القارئ أن يصل إليها إلا بالبحث في الكتاب نفسه!

كما أن المفهرس اتّبع أمرًا عجيبًا في فهرسته الآيات القرآنية، فهو في فهرس الآيات يضع اسم السورة غير مسبوق بكلمة (سورة) فيقول: البقرة – آل عمران – النساء ...، وأما في فهرس القراءات القرآنية فقد أثبت – كما يجب – كلمة سورة قبل اسمها فقال: سورة الفاتحة، سورة البقرة...

وأعجب من هذا أنه يقطع الآية بشكل لم نره في كتاب ولا فهرس من قبل! إنه يورد بعض الآيات على الشكل الآتي:

- الذي خلقكم والذين من. (ص ١٢٧٢)
- يا موسى لن نؤمن لك حتى. (ص ١٢٧٣)
- ولما جاءهم كتاب من عند. (ص ١٢٧٣)
- ألم تعلم أن الله على. (ص ١٢٧٣)
- ولا تلقوا بأيديكم إلى. (ص ١٢٧٤)
- ولأمة مؤمنة خير من. (ص ١٢٧٤)

وهكذا يقطع الآية وحرف الجرّ في آخرها!! وجاء بعضها ناقصًا كما في قوله (ما أغنى ماليه) ص ١٣٠٣ والصواب: ﴿ما أغنى عنّي ماليه﴾.

لقد قرأت معظم الكتاب قراءة سرد سريع لا قراءة بحث وتدقيق فوقفت فيه على عدد كبير من إسقاط (الضرب) الكلمة الأخيرة من صدر أبيات بلغت نحوًا من خمسين بيتًا!! وعلى عدد أكبر من خطأ معظمه خطأ مطبعة. وإذا كنت أقدّم اليوم هذه القائمة من الأخطاء فلست أدّعي أنها كل ما وقع في الكتاب، ولكن على أمل أن يعيد الذين أخرجوه وأشرفوا على طباعته نظرهم فيه ليتمّوا عملهم باستدراك ما وقع في الكتاب من خطأ ثم لينشروها في ورقات يلحقونها بالكتاب ليتحقق النفع به على النحو الذي أراده مؤلفه رحمه الله وأجزل مثوبته.

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
خ	١٤	الإعراب	لها من الإعراب
٣١	١٠	تعرف	تعرب
٤٤	١٧	المفعول به	المفعول له
٦٣	١٣	البنا	للبنا
٧٣	قبل الأخير في الشطر الثاني	وباء	وياء
٧٩	ح١	العذر	الغدر
٩٢	١٤	واديين	وادِين
١٦٦	٧	عدمها	عدمه
١٦٩	البيت:		

ومستبدل من بعد غضبى فأحِر به بطول فقر وأحريا

وللبيت روايات مختلفة؛ فقد رُوي مزاحَفًا (به بطول) ورُوي سليمًا (من طول)، وروي (غضبى) بالباء الموحدة، ورُوي (غضيا) بالياء. وهو في المغني غيره في ابن عقيل. وللنحويين فيه أقوال كثيرة فصّلها البغدادي في (شرح أبيات المغني ٦/ ٣٩).

١٧٠ ٩ الآية «...جزاء سيئة.» ولابدّ من إتمامها « بمثلها » لأنه يتحدث عن تعليق الباء!

١٧٢ ١ وإن مُدَّت الأيدي إلى الزاد. سقطت منه تتمته وهي: لم أكن.

١٧٥ ٩ سقطت منه كلمة (عظمه) بعد لأجبر

١٧٦ ٧ يجب جرّه. يجب جزمه.

١٨٢ ١٢ فآلة التعريف عنها حائده فليس في تعريفها من فائدة

كتب كل شطر في سطر وجاء أحدهما وكأنه عنوان، وجاء الثاني من أول السطر!!

٢٠٩ ٧ المشارهة المشابهة

٢٢٧ ٢ إذا اسودّ جنح الليل فلتأت. سقطت منه: ولتكن.

٦ فقلت ادع أخرى وارفع الصوت. سقطت منه: جَهرةً.

٢٣٣ الأخير وقفا وقعا

٢٣٦ ٤ أحجاج لا تعطِ العصاة. سقطت منه: مُناهم.

٢٣٨ ٢ وضعت (من) في الشطر الثاني وهي في الأول.

٢٤٠ ٦ غضبت علي لأن شربت. سقطت منه: بجزّةٍ.

٢٤٠ ٨ إلى الشرّ دعّاء وللشرّ. سقطت منه: جالبُ.

٢٤٧	٣	الشطر الثاني من بيت اليازجي ليس صحيحًا! أما الفاعل. صوابه: أما لفاعلٍ.	
٢٤٩	٩	إذا فاقد فتخاء فرخين.	سقطت تتمته: رجَّعتْ.
٢٥٩	١٥	في محل رفع.	في محل رفع مبتدأ.
٢٦٣	٨	ممن عاش.	سقطت تتمته: كدّا.
٢٧٤	الأخير	بهمذا	بهذا
٢٧٧	٥	فدًى لبني ذهل بن شيبان.	سقطت تتمته: ناقتي.
٢٨٢	١١	ليت شعري عن خليلي.	سقطت تتمته: ما الّذي.
٢٨٨	٦	محاجتُها حبَّ الألى كنّ.	سقطت تتمته: قبلها.
٢٨٩	٨	أسرب القطا هل من يعير.	سقطت تتمته: جناحه.
٢٩٤	٤	بما لستما من أهل الخيانة والغدر.	الصواب بحذف (من)
	٩	واصل خليلك ما لتواصل.	الشطر ناقص ولعله: ما التواصل ممكن
٣٠٢	١	أن تشبه.	أي تشبه.
٣٠٤	١	لئن كان برد الماء هيمان.	سقطت تتمته: صاديًا.
٣٠٥	ح١	جاء فيها: والمعنى أقسم بالله أن أزور ليلى ماشيًا حافيًا كما يزور الناس بيت الله.!! شرحًا لقول الشاعر:	
		عليّ إذا ما زرت ليلى بخفية زيارة بيت الله رجلان حافيا	
		على حين أن المعنى: عليّ نذر لله تعالى إذا تحققت لي زيارة ليلى في السرّ أن أحجّ لله تعالى حافيًا ماشيًا.	
٣٠٦	قبل الأخير	عيسى بن عمرو.	عيسى بن عمر.
٣٠٩	١٤	أحد المضارعة.	أحد أحرف المضارعة.
٣١٦	٢	زادت كلمة (شامت) في الشطر الأول.	

٣١٧	٢	زادت كلمة (شامت) في صدر البيت.	
٣١٧	١٦	ضمير رفع.	ضمير رفع اسمها.
	١٧	والنون عوض؟	عوض عن ماذا ؟
٣٤٨	قبل الأخير	لولا الحياء وباقي الدين.	سقطت تتمته: عبتكما.
٣٥٠	٧	لأودى كل ذي.	سقطت تتمته: مِقةٍ

٣٥١ السطران الأخيران عكست فيهما القاعدة. قال «ما تدخل عليه الفاء قد يكون مبتدأ نحو (أما زيد فمجتهد) أو خبرًا نحو (أما في الدار فزيد) أو جملة شرط كقوله تعالى ﴿فأما إن كان من المقرّبين فروحٌ﴾ أو اسمًا منصوبًا لفظًا أو محلاّ بفعل مذكور بعد الفاء كقوله تعالى ﴿وأما السائل فلا تنهر. وأما بنعمة ربك فحدّث﴾. أو اسمًا منصوبًا بمحذوف يفسّره ما بعد الفاء نحو (وأما زيدًا فأعنه) أو ظرفًا نحو (أما اليومَ فهنِّئ زيدًا) وكل ما عدّده ليس هو ما تدخل عليه الفاء كما ذكر، بل هو ما يفصل به بين (أما) والفاء. **فالصواب:** وما يفصل بين (أما) والفاء قد يكون...

٣٥٣	٧	للرمّاني	للفارقي (وكذلك ذكر مرّتين في الحاشية ٢ و٣)
	السطر الأخير	منحوب	منحوت
٣٥٧	السطر الأخير	وتشرق بالقول الذي قد.	سقطت تتمته وهي: أذعته
٣٥٨	٢	تجنّب صديقًا مثل ما واحذر.	سقطت تتمته وهي: الذي
٣٥٩	٩	زادت في البيت كلمة (في)	
٣٦٤	قبل الأخير	قالت له:	قلت له.
٣٦٩	٥	سيناء.	سينا.

٣٧٤	١١	إليه	والمضاف إليه.
٣٧٤	١٤	من	من أرمى
٣٧٨	٨	عدَّ	عِدْ (قال: يعدّ معتلاً لأن العبرة في الأصل لا الحذف).
٣٨٠	٣ من الأسفل	تبلت فؤادك في المنام.	سقطت تتمته وهي: خريدة.
	٣ من الأسفل	في المنامِ	في المنامِ
٣٩٢	٨	... ما إن أنتم ذهبٌ ولا صريفًا.	ولا صريفٌ.
٣٩٥	الحاشية	إنّ الذين.	إنِ الذين.
٣٩٦	١٤	... فلا شيء على الأرض.	سقطت تتمته وهي: باقيًا.
٤٠٠	١٠	... نادى كل مولى.	سقطت تتمته وهي: قرابةً.
٤٠٤	١	ذات صريح بيون.	ذات مُترَعٍ بَيونِ.
	ح١	لو أن بين وبينك بئر.	لو أن بيني وبينك بئرًا.
٤٠٧	١٠	إن لم يمكن العامل عليه.	إن لم يمكن تسليط العامل عليه.
٤١٧	١٢	... لنا فهجت.	سقطت تتمته وهي: رسيسا.
٤٢٦	١٠	واستقبلت قمر السماء.	سقطت تتمته وهي: بوجهها.
٤٢٧	١	... إطراق الشجاع ولو.	سقطت تتمته وهي: رأى.
	١	لصحَّحا.	لصمَّما.
	٣	في كلتَ رجليها سلامى.	سقطت تتمته وهي: واحده.

	١٢	رابَ.	رابِ.
٤٢٩	١	... وخليلي واجدي.	سقطت تتمته وهي: عَضُدا.
	١٣	أو عبد الله.	أو عبدا الله.
٤٣٨	١٧	غداة	غدانة
٤٣٨	١٧	خزف.	الخزف (كما في ص ٣٩٢).
٤٤٠	١٠	قرابه.	قرابةً.
٤٤٥	١	وحذفو.	وحذفوا
٤٥٣	٢	ضمير مستتر.	والفاعل ضمير مستتر.
٤٦٣	١	صفة.	صرفه.
	١٤	...حيص	سقطت تتمته: حيص بيصِ
٤٦٤	٨	وأبا حسن لها.	ولا أبا حسن لها.
٤٦٧	١٢	إن تخلَّ.	إن تخلّى.
٤٧٣	٤من الأسفل	عكلاً وما.	تتمته: جَرَمتْ.
٤٧٣	الأخير	يسؤك وينؤك.	يسوءك وينوءك.
٤٧٤	٥	... يسعى المرء مسعاة.	سقطت تتمته وهي: جدّهِ
	الحاشية	الرماني	الفارقي.
٤٧٥	٩	ويلحق بهم.	ويلحق بهما.
٤٧٨	٢	لا زدناكم.	لا ذدناكم. (وكذلك في السطر٣).
٤٨٠	٩	لكان للمحذوف جوابين.	جوابان.
٤٨٤	٣	... العهد يا عرو.	سقطت تتمته وهي: فاغتبط.
	٦	... شريكك في.	سقطت تتمته وهي: الغنى.
٤٩٢	١٠	... أم نووا.	سقطت تتمته وهي: ظعنا

٤٩٤	١	... مفارقة الأحباب	سقطت تتمته وهي: ما وجدت.
	الأخير	... مردى.	سقطت تتمته وهي: حروبٍ.
	الأخير	إذا خُور.	خَوَرٌ
٤٩٧	١١	إلاّ بك النصر.	سقطت تتمته وهي: يُرتجى
٥٠٢	١٢	الخِدرَ خدرَ.	سقطت تتمته وهي:عُنيزة
٥٠٤	٣من الأسفل	وأم أنكل.	ولم أنكل.
٥١٨	٨ و٩	ضمير جوازًا.	ضمير مستتر جوازًا.
٥٢١	٤من الأسفل	سلحبا.	اسلحبًا.
٥٢٨	١٢	خيرًا يره. هل هاء الضمير هاء سكت؟! وهي ضمير يعود على	
٥٣٥	١٩	(مثقال ذرة)، وكتبت فوقها ضمة في المصحف.	
٥٣٨	٢	... وارفع الصوت.	سقطت تتمته وهي: جَهْرةً.
٥٣٩	الأخير	وعن قيس.. فُجهل.	وعن قيضٍ ببيداءَ مَجهل.
٥٤٢	الأخير	... مرّت الطير.	سقطت تتمته وهي: سُنَّحًا.
٥٤٣	٥	استعمل.	استعل (من الاستعلاء)
٥٤٤	٥:	... الحيّ حيث.	سقطت تتمته وهي: وجدتهم.
٥٤٥	٤ من الأسفل	صدقان	صديقان
٥٥٠	٦	... من أجل	سقطت تتمته وهي: هالكٍ
٥٦٣	الحاشية ٤	... أنّ حموها	أنّي حموها
٥٦٥	١٠	... فوارس من ذهل	سقطت تتمته وهي: وإخوتهم
٥٦٩	٣	مبهمين.	مبهمان.
	٨	الخيل	الخليل.
٥٧٧	٣ من الأسفل	... الأموات قد.	سقطت تتمته وهي: ضَمنت

٥٨٩	٨	الضمير المسند إلى الضمير	الفعل المسند ...
٥٩٦	١١	أخبرها	أخبرنا
٦٠٨	الأخير	القاعدة على الوصل والشاهد القرآني بالفصل إذ القرآن لا يقاس على خطّه.	
٦٠٩	٢	القاعدة على الوصل والشاهد القرآني بالفصل إذ القرآن لا يقاس على خطّه.	
٦٢٥	٨	أوخذ وأوكل.	أُؤخذ وأُؤكل (فعلا أمر)
٦٣٢	الحاشية	وهيم.	وهم
٦٣٣	٣	تألف البيت من ثلاث جمل كما ظهر في إعراب جمله!! والذي في إعراب جمله ص ٥٩١ أربع جمل!	
٦٣٦	٣	الجملة التي تنقطع عما قبلها بعد حرف استئناف.. وكقوله تعالى﴿فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً﴾ (سورة الجن: الآية ١٣) أي فهو لا يخاف. ومعنى ذلك أن جملة لا يخاف خبر (هو) والجملة من المبتدأ والخبر جواب الشرط الجازم المقترن بالفاء فهو في محل جزم وليس استئنافًا.	
٦٣٦	١٤	الاسم والموصول.	الاسم الموصول.
٦٤٢	١٠	الصل.	الوصل.
٦٤٤	٣	الدهرِ.	الدهرَ.
٦٤٥	٣	بخلاف قوله تعالى ﴿وَمَا تُنْفِقُوا...﴾ هذه (ما) شرطية لا حاجة لذكرها مع النافية!	
٦٤٥	٧	أوقات نحو!.	
٦٤٦	١	جمع تسع معان.	جمع عشرة معان (كما في البيتين)

٦٤٦	٢	سبعة.	تسعة
٦٤٨	٩	فضلاً مَن.	فضلاً على من
٦٤٨	١٢	معينين.	معنيين
٦٥٠	١٢	(ماذا نأته)	(من ذا نأته)
٦٥٢	٣	غروبها. وقفت قرب...	غروبها. وقد يكون المنوب عنه مكانًا نحو وقفت قربَ...
	١٨	وإلاّ غيارها.	ثُمَّ غيارها.
٦٥٣	٢	في الدارُ.	في الدّارِ
	٧	خُلفا.	خَلفا
٦٥٤	٥ من الأسفل	حتى) حتى في (متى).	(إلى، حتى) في (متى)
٦٥٧	٣ من الأسفل	(أخرجتها من كمي).	(أخرجتها متى كمّي)
٦٦٢	٤ من الأسفل	إذا.	إذ
٦٦٢	الأخير	إذا ما أتيت...	إذ ما أتيت.
٦٦٣	١٢	لما بينهما وبين	لما بينها وبين
٦٦٥	٧	البيت مدوّر، وكذلك في ص ٦٧٤	
٦٦٦	٨	عايس.	عانس
٦٦٨	٣ من الأسفل	ظننت زيد...	ظننت زيدًا...
٦٧٠	٥ من الأسفل	الثانية أي الفعلية.	الثانية أي النافية.
٦٧٠	٣ من الأسفل:	﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾	ينبغي حذف الآية لأن «ما» فيها ليست نافية.
٦٧٥	٢	...أنتما في.	أنت في السّدْ
	٥	خوصها.	خواصّها
٦٧٦	٢	البيت مدوّر كما ذكرنا سابقًا في ص ٦٧٥ وص	

٧٠٦ و٧١٣ و٧٣٠

	٣	طلقة.	طلقه.
٦٨٨	١٢	شاعر.	شاع وكذلك الأمر في ص ٦٩٣ س ٣ من الأسفل
٦٩٤	٤	حَسُنُ.	حَسَنُ
٦٩٧	٥ من الأسفل: السطر قبل الأخير	وفعْلة نحو ضحْكة. مء طاء.	وفُعَلة نحو ضُحَكة. معطاء.
٦٩٩	٥	الثامنة.	السادسة.
٧٠٤	٥	ضروب بنصل السيف سوق.	سقطت تتمته وهي: سِمانها
	٩	ما ليس مجيهِ.	منجيَهُ
٧٠٥	٢	المعطي.	المعطى
٧٠٦	١٤	ينفعكم.	يعرفكم
٧٠٨	٧	ضاربًا عمرو.	ضاربا عمرو
٧٠٨	١٧	الجعدث.	الجعد
٧١٢	٥	وكلا الرأيان.	وكلا الرأيين
	٩	مَن – أي أفضل مَن	مِن في الموضعين.
	١٢	يتعيَّن تكون.	يتعيّن بكون
٧١٢	قبل الأخير	أبو مِن	أبو مَن
٧١٤	الحاشية ٢	يعمى ماضيه وعم.	في المعجم: وعم مثل وعَد وورِث.
٧٢٣	الحاشية ٢	على الأحسنُ	على الذي أحسنُ
٧٢٤	١	يا فتي.	يا فتى
٧٢٥	١٢	متعلِّقاً.	متعلَّقًا
٧٢٥	الأخير	كأنها.	كأنه

٧٢٩	١١	إذا.	إذْ.
٧٣١	١٣	لأن الخبرين يجمعهما خبرًا واحدًا	بجمعهما...
٣٧٥	٣ من الأسفل:	وعليه.	ويليه
٧٣٨	٧:	غيره متفق عليه.	غير متَّفق عليه.
٧٣٩	١٤:	لا يقال.	لا يقاس.
٧٤٦	٤ من الأسفل	واحد.	واحدًا
٧٤٩	٤	اسم الفعال.	اسم الفاعل

٧٥٠ إعراب الجمل: ما وخبرها استئنافية. جملة أحرى خبر (ما). يصحح وضع الخطوط تحت الجمل، وهي خمس جمل.

٧٥٣ ١٧ الآية ليس فيها باء زائدة، والأَوْلى الاستشهاد بقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ الأحقاف/ ٣٣، وكذلك هي في ص ٧٧١.

٧٥٥	١	البيت مدوّر.	
٧٥٨	٨	وسام.	واسم.
٧٧١	٧	ربداؤ تُجفل.	ربداءُ تَجفَل. وكذلك ٧٧٨ س ١٤
	١٥	الحل.	الحال.
٧٧٦	٨	يغتفر.	يغفرون
٧٨١	١١	البيت مدوّر	(اشتعال الرّ أسِ شيبًا...)
٧٨٧	٨	ميتهَ.	ميتةٍ
٧٩١	٤ من الأسفل	فلا يثني.	فلا يُثنى
٧٩٣	١	سامًا.	اسمًا
٧٩٨	٧	بطُل العجب.	بطَل العجب.

٨٠٠	٦	غضبي.. بطول وكذلك ٨٣٣ س٤ .انظر ما سبق في التعليق على ص ١٦٩	
٨٢٤	الأخير	الحَمَّى.	الحُمَّى
٨٢٦	١٦	لاء التبرئة.	لا التبرئة.
٨٣٠	٥	قَصِد.	قُصد.
٨٣٢	الأخير	أحسن بزيد.	أحسن بالسماء
٨٣٣	٢١	ثُمَّ.	تَمَّ
٨٣٣	٤ من الأسفل	من غير ثلاث	من ذي ثلاث
		لا الجامدة.	لا الجامد
٨٣٤	١٧	ممن هذه اللام.	عن هذه اللام
	١٨	وإن مالكَ.	وإن مالكٌ
٨٣٦	٦	لا هولنك.	لا يهولنَّك
٨٣٧	١٥	ولا لذّ.	ولا لذّات
٨٣٨	١٢	فتُلفى.	فتلغى
	١٨	إسقاطَ.	إسقاطُ
٨٤٠	٩	وليهم	ولهم
٨٤١	هذه الصفحة تكرار للصفحة ٨٤٠، وسقطت صفحة كان يجب أن تأتي موضعها!		
٨٤٤	١٤	عند.	عنه.
٨٤٤	حاشية ١	هرّة.	حُرَّة.
٨٤٥	١٥	أن الضاربه.	أنا الضاربه
٨٤٦	١٠	بغيرها النهي.	بغيرها، والنهي...
٨٤٨	١٦	وأما عمرًا.	وأما عمرٌو
٨٥٠	الحاشية	تركونه.	تركوه

٨٥٤	٨	أداة.	أداء
	٩	زيد عند فزره!	زيد عندي فزره
٨٥٥	٨	ما كنت.	ما كانت
	٩	والمجرور لا يجرّ.	والمجرور بما لا يجرّ..
٨٦٣	١٩	أي أن حرف جر.	أي إنّ (من) حرف جر..
٨٧٠	٩	عن أمن اللبس.	عند أمن اللبس.
٨٧١	١	لبعد عن.	لبعدها عن
٨٧٢	٧	لم يخزني يوم.	سقطت تتمته وهي: مشهدٍ
٨٧٣	٨	عتدي.	عندي.
٨٧٧	١٤	الرزيّة أي الرزيّة.	الرزيّة أي الرزيئة.
٨٨٠	٢	تقلب عن أختها أختيها.	عن إحدى أختيها.
٨٨٢	٤	أحدوا.	أجدّوا
٨٨٣	٤	فمت اث.	قمت
٨٨٤	١٣	عنَ فعل.	عين فعل
٨٩٠	١	في موضع.	في مواضع
٨٩٢	١	مخصومة.	لخصومة
٨٩٢	١٤	مجازية.	مَجازيَّةُ
٨٩٣	الحاشية:	الخلفاء.	الخلعاء
٩٠١	١١	تخطئ.	تحظى
	١٦	أليّوق.	أليّون
٩٠٥	١٤	بخُلا.	بخِلا
	١٥	الشريط.	الشرط
٩١٠	٥	قائلين.	باكين

٩١١	٣	لا تضجرون.	لا تضجرَن
٩١١	٧	زعَماً	زعْمًا
٩١١	حاشية٢	معلومة.	معلومه
	حاشية ٢	غير ميماً.	غير ميميّ
٩١٢	١٠	جواباً	جوابًا وكذلك في س ١٨
٩١٢	١٦	المؤمنين.	المشركين
٩١٣	٦	سخبت	سحبت
٩٢٢	١	جملة المسند إليه وتكون مبتدأ وفاعلاً! والمعروف كما في المثال الذي أورده أن الإعراب للمصدر وليس للجملة.	
٩٢٧	٤ من الأسفل	فعل ماضي.	فعل ماضٍ. وكذلك ٩٣٧ س٢ من الأسفل.
٩٢٨	١٢	والفاء.	والفا
٩٣٢	٣	ويحلوا	ويحلو
٩٣٣	١٣	بخُلا	بخِلا
٩٣٤	٦ من الأسفل	إلاّ اللهَ	إلاّ اللهُ
٩٣٥	١٣	حاجةٍ	حاجةً
٩٣٦	٥ من الأسفل	الجارّتان	الجارّتين (وكذلك في ص ١٠١٢)
٩٣٨	٤ من الأسفل	فعلية.	اسميّة. (لأنها جملة: دعائمه أعزّ)
٩٣٩	١٨	مسكًا.	مسلكًا
٩٣٩	٢٠	أحرف الحرف العلّة.	أحرف العلّة
٩٤٢	٦	وشاعِ.	وشاعَ
٩٤٨	٤	تقد؟	
٩٥٣	٦	ازدكر	اذدكر

٩٥٨	٩	في غدّانَ وازدد وادّكردالأبقي.	في ادّان وازدَدْ وادَّكِر دالاً بقي.
٩٦٠	١٠	اصير أي تصيّر.	اصَّبَر أي تصبَّر.
٩٦٦	٣	بعموله.	بمعموله
٩٦٦	١٦	إن عند زيدًا.	إن عندي زيدًا.
٩٦٦	الأخير	السمع.	السامع
٩٦٧	٩	لها ولا.	لها لا...
٩٧٤	٤ من الأسفل	أنّ	أنّي
٩٧٦	٩	ونصفه فقدي.	أو نصفه فقدِ (وكذلك في ص ١٠٣٩ س٣)
٩٧٨	٤	فأضحى.	فأُضحي
٩٧٨	الحاشية	مكانه.	مكانةٍ
٩٨٣	٢	ينقلبوا.	ينقلبون
٩٨٤	٥	ضات.	ذات
٩٨٧	٦	تعشّى.	تعشَّ
٩٨٧	قبل الأخير	وإنشائية؟	كيف تقع الصلة إنشائية؟
٩٩٣	٣	ممنوع.	فممنوع
٩٩٤	الأخير	لا تركنْ.	لا تركنَّ
٩٩٥	الحاشية ١	المستفزّه اسم فاعل.	ثم يقول: ليس المستفزّه الهوى محمود عاقبة. فكيف يكون اسم فاعل ثم نقول: المستفزّه الهوى؟!
٩٩٧	السطر الأخير	ينبغي تصحيح كتابة البيت الشعري.	
١٠٠٥	٥	الكمة.	الأكمة

١٠٠٨	٢	باطلاً	بإطلاق
١٠١٠	الأخير	فرعًا	فرغًا
١٠١٣	٩	جمعًا بيتًا.	جمعها بيتا الكافية
١٠٢٤	٥ من الأسفل	صاحبة.	صاحبه
١٠٢٨	٦	أمرصين	أحرصي
١٠٣٠	الأخير	وأبعد إلى العار؟	
١٠٣١	الأخير	أعطيهم.	أعطاهم
١٠٤٢	١٤	الواقية الله.	الواقيهِ اللهُ
١٠٥١	٩	الشاهد.	بالشاهد
١٠٥١	الأخير	بالضرورة	للضرورة
١٠٦٠	١٠	غز	غازٍ
١٠٦٨	١٤ و١٥	فعلاة	فعلاء
١٠٧٥	٣ من الأسفل	فيكو	فيكون
١٠٧٦	٦	فإن تفعل	فأن تفعل
١٠٧٦	الأخير	سقفَها	سقفِها
١٠٨٦	٦	عن	عند
١٠٩٣	٦	بركة	باركة
١٠٩٥	٤	وابن مال	وابن مالك
١٠٩٦	قبل الأخير	السمع	السامع
١٠٩٨	١٣	كانت	كانتا
١٠٩٨	٤ من الأسفل	في الكلام سقط بعد قوله: مرجعه؟	
١١٠٠	٣ من الأسفل	على الغيب مما لا يعقل؟!	
١١١٥	١٢	فيما قولوا	فيما قالوا

١١١٥	١٣ و١٤	ينطلق.	يُطلق
١١٢٢	٨	الآية شاهدها على قراءة: الآخرةِ	
١١٢٤	١٥	هة	هو
١١٢٥	١١	مكسوب	مكسوف
١١٢٨	الحاشية ١٣	معاوي	معاوية
١١٣٢	١٥	البخلُ	البخلَ
١١٣٢	١٥	...واستعجلت.	سقط آخره وهو: به
١١٣٧	٣	بيدْ	بيدٍ
١١٣٨	١٤	لمؤنّ	لمؤنث
١١٤٠	١٨	تاقتضون	القاضون
١١٤٥	٦	بقي	بقيَّة
١١٤٦	١١	مالا	مالي
١١٤٨	١٨	لثما	لما وفي ص ١١٧٣– س١١
١١٥٣	١١	في التنادي	بالتنادي
١١٥٦	١١	ممدودة	الممدودة
١١٦٠	١٥	حميم – يسين	حم. يس
١١٦٢	١١	وصالح	ولوط
١١٧٤	٨	ألا يجمع مقترنًا	ألا يجمع إلاّ مقترنًا
١١٧٥	٢ من الأسفل	لأنى	لأنثى
١١٨٢	١٣	ظن	ظنًّا
١١٨٣	٤	جاء القوم زيدًا	جاء القوم عدا زيدًا.
١١٨٣	٧	متصلٌ	متصلاً

١١٨٦ رأي سيبويه، يحسن الرجوع فيه إلى (الكتاب) ففيه أنه لا يكون إلاّ (بعضهم)،

فهو المضمر في ليس ولا يكون اللتين للاستثناء وإذا أضمرنا غيره كانتا على بابهما ناقصتين.

١١٨٦	قبل الأخير	بالنكة و	بالنكرة
١١٩٧	٩	نصب ستة.	نصف سنة
١٢٠٥	الحاشية س ٥	الوثان	الأوثان
١٢٠٦	١٠	أي خبر.	أي خبز
١٢١٣	١٣	وتأتيْ.	وتأتيَ (وص ١٢٦١ س٧)
١٢١٦	٤ من الأسفل	شركائكم.	شركاءكم (كما في خط المصحف)
١٢١٨	١١	فأدرت.	فأردت
١٢١٨	الأخير	ما هُوَ.	ما هُوْ
١٢٢٠	٩	يُكتسب.	يَكتسب (وفي ص ١٢٦١ س ٤ من الأسفل)
١٢٢١	١	ليس الأخلا وبالمصفي.	ليس الأخلاّء بالمصغي
١٢٢٥	٦	... غير أن.	سقطت تتمته وهي: نطقَتْ
١٢٢٦	الأخير:	لأجتذبنَّ منه.	لأجتذبنْ منهنَّ (وانظر المعنى في الحاشية ٢)
١٢٢٨	٩	أن قلت.	أن قد قلت
١٢٢٩	١	لما أضيفي.	لما أضيف
١٢٢٩	١٨	يدمى.	يدَّعي
١٢٢٩	١٩	علقة.	علاقة
١٢٣٠	٦	حذفه	حذفةً
١٢٣٠	٤ من الأسفل	العلقة.	العلاقة
١٢٣٤	٤	عن الشرط.	معنى الشرط
١٢٣٦	الأخير	بينهما الإبهام.	بينهما إلاّ الإبهام
١٢٤٠	١٣	فأومأتْ... عينًا.	فأومأتُ... عينا

١٢٥٣	١٧	في الكلام نقص عند كلمة (الإبل) وهو بتصرّف «فحاوره ثم قال له: ما تعاني في بلادك؟ قال: الإبل..»
١٢٥٥		الصفحة مكرّرة وقد سبقت في ص ١١٤٥ (وبقي المستثنى صوابه: بقيّة المستثنى)
١٢٥٦	٦ من الأسفل:	كقول الشاعر: ؟ وليس في الكلام بعد ذلك قول الشاعر! وسقط كلام جاء بعده: مع إن أي بالنصب...؟!!
١٣٤٩	١٨	توجيه إعراب أبيات ملغزة الإعراب للرماني. طبع باسم الإفصاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب للفارقي.! والعكس هو الصحيح فالكتاب للفارقي وطُبع – في طبعته الأولى – باسم الرمّاني.

سليمان العيسى والعروبة

د. ملكة أبيض(*)

-١-

في خِضَمّ الصراع الواسع الذي دار في القرن الماضي بين اتجاهات مختلفة لإنقاذ الوطن العربي من مشكلتَيْهِ الرئيستين المتمثلتين في الاستعمار والتخلف.

في خضمّ ذاك الصراع، تناقل الألوفُ من أبناء الأمة العربية كتابًا بعنوان: «العروبةُ أولاً»، ناقش فيه المفكر والمربي الكبير ساطع الحصري هذه الاتجاهات، وفيها: الشيوعية، والإقليمية الواسعة نسبيًّا، والقُطرية، والمحلّية الضيقة؛ وردَّ بوجهٍ خاص على فكرة أطلقها الأديب الكبير الدكتور طه حسين في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر»؛ تلك الفكرة التي تمثَّلت في ربط الثقافة المصرية بالثقافتين اليونانية والرومانية، على غرار ما فعلت النهضة الأوربية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر؛ ذلك أن النهضة عادت إلى تَيْنِكَ الثقافتين القديمتين بصفتهما جذورًا مضيئة للثقافة الأوربية، وتخلَّصت بذلك من العصور الوسطى المظلمة التي خَيَّمت على أوربا أكثر من عشرة قرون.

وسرعانَ ما أصبح عنوان كتاب ساطع الحصري «العروبة أولاً» شعارًا له وزن كبير في الساحة العربية.

في ذلك الحين. وفي شمال سورية: في لواء الإسكندرونة بالتحديد، حيث كانت الدول العظمى تتآمر لاقتطاع تلك البقعة الغالية من الوطن وتسليمها

(*) باحثة مختصة في أدب الأطفال.

إلى تركيا، رفع المواطنون العرب شعار العروبة لمقاومة هذه المؤامرة ومثيلاتها، وتنبيه إخوانهم في جميع أقطار الوطن العربي إلى خطورتها.

كان على رأس المقاومة العربية المفكِّر والمناضل الكبير زكي الأرسوزي،

وكان شاعرها طفلاً لم يتجاوز الثانية عشرة من العمر، اسمه سليمان العيسى. لا يذكر الشاعر القصائد الأولى التي ندَّد فيها بالمؤامرة، وحثَّ مواطنيه على مقاومتها، ولكننا نعرف قصائده التي كتبها بعد هجرته، وتحدَّث فيها عن سلخ اللواء، بعد أن أصبح واقعًا، وعن المآسي الأخرى التي توالت على الوطن العربي بعد ذلك.

هذه القصائد تبدأ مع أول ديوان دفعه للطباعة عام ١٩٥٢ وهو ديوان «مع الفجر».

وحين تجمَّع لدى الشاعر عدد من الدواوين أصدرها في ثلاثة مجلدات، في بداية الثمانينيات من القرن الماضي، بعنوان: شعر سليمان العيسى، ثم في أربعة مجلدات عام ١٩٩٥ بعنوان: الأعمال الشعرية.

وقد تصدَّرت المجموعتين مقدمةٌ مطوَّلة، عَرَّف فيها الشاعر نفسه قائلاً:

«أنا خليَّةٌ في جسد
تبحث عن ملايين الخلايا من أخواتها،
وتكافح بلا هَوادة..
لكي يتحركَ الجسد، وتتفتح الحياة.

* * *

وجسدي هو أمتي..
هذه الأمة العربية العظيمة،

المنكوبةُ، الممزقة،
التي مدت جسور الحضارة بيني وبين العالم،
منذ وُجد العالم، وكانت الحضارات.

* * *

من هنا .. تبدأ قصة الشعر في حياتي
وهنا .. ستنتهي».

وديوان الشاعر كله ليس إلاّ قصيدة طويلة تغنّي الوحدة العربية، أو الاتحاد العربي، فالاسم هنا لا يهم، كما يقول. وحين تسأل الشاعر: لماذا يكتب للوحدة، أو للاتحاد، يقول:

«أنا إنسان عربي،
رأى نفسه يُقْتَلع من داره،
من تحت شجرة التوت في قريته،
يُحرَمُ لغتَه وتراثَه،
وأرضَه وقريتَه فجأةً،
ويُلْقى به في الغربة طفلاً مشرَّدًا
منذُ أكثر من ثلاثين عامًا..
لماذا؟
الأطفال لا يعرفون لماذا يُشَرَّدون..؟»

على أنه لم يتأخر في الوصول إلى الموقف المناسب للخلاص من هذا المصير الذي دُفع إليه، وتُدفع إليه الملايين من أبناء أمته باستمرار؛ يقول في ذلك:

«ونظرتُ حولي وأنا طفل صغير..

كيف أدافع عن نفسي؟
وماذا أستطيع أن أفعل..
ويفعل أمثالي..؟
ووجدتُ الطريق..
الطريقُ حُلُمٌ ضخم، سأحملُه ورفاقي..
سنقاتل في سبيله حتى النَّفَس الأخير..
الحُلُم الضخم..
الذي عشتُ من أجله، ومازلتُ أعيش،
هو أن تكون لي دولة عربية كبرى،
قادرة على أن تحميَ أطفالي،
فلا يقتلُعهم من يشاء، ساعةَ يشاء، من بيوتهم..
لن تكون لي كرامةُ إنسان..
لن تكونَ لك كرامةُ إنسان..
إلا إذا كانت لنا دولة عربية كبرى
تحمينا.. تحمي أطفالنا...»

وهنا لا بد أن نسأل: ما العروبةُ التي يقاتل سليمان العيسى من أجلها؟

في المقدمة نفسها يوضِّح سليمان العيسى ذلك بقوله:

«كنا نُلَقَّن – وما نزال – أن العروبة هي البداوة،
هي القبيلة، هي البَسوس، وداحس والغبراء...
إلى آخر هذه «المعزوفة» القاصرة، المغرِضة، في آن.
العروبة التي غَنَّيتُها – وما زلت –

نسيج حضاري هائل، ضاربٌ في أغوار التاريخ،
تشابكت فيه ملايينُ الأصول والفروع،
لِتُعطيَ الإنسانَ أكرمَ ما أعطاه شعبٌ على وجه الأرض،

وأَبْعَـدُ نحـنُ مـن عَـبْسٍ ومـن مُـضَرٍ.. نَعَـمْ أَبْعَـدْ
حَمُـورابي وهـانِي بَعْـلُ بعـضُ عطائنـا الأَخلَـدْ
لنـا بلقـيسُ، والأهـرامُ، والبَـرْدِيُّ والمعبَـدْ
ومـن زيتوننـا عِيـسى ومـن صـحرائنا أَحمـدْ
ومنَّـا النـاسُ - يعرفُهـا الجميـعُ - تعَلَّمـوا أَبجَـدْ

إنه مفهوم موسَّع زمانًا ومكانًا..

فهو يشمل جميع الحضارات التي قامت في المنطقة العربية في عصور سحيقة، واتخذت أسماءً وأشكالاً متعددة، لأنه يرى أنها تعود إلى جذورٍ واحدة، تطورت وتجددت عبر التاريخ، ولذلك يُطلق عليها اسم: النسيج الحضاري.

كما يشمل المفهوم معظم الأمكنة التي وصلت إليها الثقافة العربية - الإسلامية في أوج ازدهارها، مما يجعل منجزاتها قبل الإسلام جزءًا لا يتجزأ من التراث العربي الحاضر.

ومن تلك المنجزات بالطبع، ثقافات المغرب، ومصر، وبلاد الشام، وما بين النهرين.

وحين يقول الشاعر:

«رسَتْ في تُربة الماضي جذوري
وكلُّ ظليلةٍ في الترب تُرسي

ولكني لكي أنمو وأَحيا

أنا ابْن غدٍ، ولستُ ابْنًا لأَمسِ».

فإنه يؤكِّد أن العروبة مستمرةٌ في تطورها، وأن غدها مرتبط بانفتاحها على المنجزات الإنسانية، وتمثُّلِها ضمن نسيجها الخاص.

هكذا تقف العروبة على قدميها، وتتمكَّن من صنع منجزاتها الخاصة:

«أَنْ تعتصرَ المتنبي ولوركا

والمعريّ وغوته..

ثم تقف على قدميكَ

وترى الدنيا بعينيكَ

تلك هي الحداثةُ والمعاصرة.

بكلمة أدقّ: تلك هي الأصالة فيما أرى».

الأصالةُ تطوردائم..

كانت كذلك في الماضي،

وستكون كذلك في المستقبل..

وإلاَّ.. فَلَنْ يكون هناك مستقبل على الإطلاق:

«ولستُ بساكنٍ بُرجًا قديمًا

بنته يدي.. ولو نَطحَ السحابا

ألوذُ به.. وأتركه ورائي

إذا ما آلَ قيدًا أو حجابا»

* * *

«وأرفضُ أَنَّ شيئًا قد تَنَاهى

وأُومنُ أنني أبدًا جديدُ

وأُبدعُ كلَّ ثانيةٍ وجودي
فلا حَتْمٌ هناكَ ولا جمودُ»

– ٢ –

القصائد التي جمعها الشاعر في ديوان «أنا والعروبة» تدور في إطار هذا المفهوم الموسَّع للعروبة، ذلك أنها تضم الماضي، والحاضر، وتطلُّعات المستقبل.

فالعروبة – الماضي، كما رأينا، تهم الشاعر، كما تهمه العروبة – الحاضر، لأن المستقبل يُصنع منهما كليهما. وعروبة الماضي، تمثِّل في جزء كبير من هذا الماضي، حقبة ازدهار وتألق: حمورابي، وهاني بعل، وبلقيس، وزنوبيا، والرسالات السماوية. ونظرة الشاعر إليها نظرة انتقائية، تصطفي عناصرها الحية التي قادت إلى تفتُّح ثقافات، وتشكيل حضارات... وتهمل العناصر الجامدة أو السيئة التي أدَّت بها تدريجيًّا إلى الانحطاط.

من هذه العناصر الحية نذكر: وصية أبي بكر على جدران دمشق:

لا تَجْرَحـــوا بـــسيوفكم حُلُمًـا.. علـى غُـصُنٍ وريـفِ
لا تُقْلِقـــوا أُنـــشودةً رقـدَتْ علـى وَتَـرٍ شـفيفِ
لا تَقْطَعـــوا خَـــضْراءَ، لا يُـنْضَ الـسنانُ علـى ضـعيفِ
لا تُزْعجـــوا شـــيخًا، ولا طفـــلاً.. وتُمطِـرُ كـــالحفيفِ
كـــالنورِ، كالحـــبِّ، الوصـــيَّةُ في المئـــينَ، وفي الألـــوفِ
ويـــسيرُ نَهـــرُ النـــور يـــا أَعلامَنـــا في الأرضِ طُـــوفي

وفيما يتعلق بتفتُّح الثقافة العربية – الإسلامية، وتطوُّر مكوِّناتها الأساسية: اللغة والأدب.. يفرد الشاعر ديوانًا خاصًا بعنوان: «أُغنية في جزيرة السندباد»، يتصور فيه لقاءً له مع أعلام اللغة والأدب: الخليل بن أحمد، الجاحظ،

الأصمعي، أبي نواس.. إلخ، نقتطف منه هذه المقطوعة، على لسان الخليل بن أحمد:

سأَشُدُّ ألحانَ العصورِ الغابراتِ على ربابي
شأشدُّها في خيمتي السمراءْ..
وتَظَلُّ نهرَ ضياءْ
أَسقي بها الأجيالَ، أخلَعُ فوقها بُردَ الشبابِ

ويعلّق عليه الشاعر:

وتَحتشدُ السواقي.. كلُّ ساجعةٍ وغِرِّيدةْ
وتسكُبُ في «العَروضِ» غناءَها،
فالدهرُ أُنشودَةْ..
ويمضي المبدِعُ العملاقْ
يَرَاعٌ قادرٌ خَلاَّقْ
يلُمُّ شواردَ الفُصحى...

وشوارد الفصحى هنا إشارة إلى كتاب «العين»، أول معجم في العربية وضعه الخليل بن أحمد.

ثم يورد هذه الأبيات على لسان الراوية الأصمعي:

آمنتُ بالفن.. مصابيحُهُ
في كل فجرٍ ثورةٌ واتِّقادْ
غَنَّيتُ ما يَبْقَى.. وما هَزَّني
من كل ما استظهرتُ إلا الجيادْ..

وحين يقول له الشاعر إنه يودُّ أن يُشعل التاريخ، يجيبُ الأصمعي:

دَرْبٌ يَطُولْ..
حُلْمٌ يَهُونُ العمرُ من أَجلِهِ
أَن يُشْعَلَ التاريخُ..
حُلْمٌ يَهُولْ
عِظامُنا باردةٌ في الثرى
فلا تُطيلوا المكْثَ فوق الطلولْ

ولماذا لا أذكر بهذه المناسبة قصيدة «الطريق والمعري» التي يمجِّد الشاعر فيها تمرُّد شاعر المعرة، مشيرًا إلى أن أوجاع الوطن العربي في عهده لا تُقاس بما نعانيه في عصرنا هذا.

يقول سليمان العيسى في «شاعر بين الجدران»:

«شَيْخَ الخلودِ.. تحيةً عَجلى، وأنداءً، وطيبا!
هذي جراحُكَ، لم تَزلْ وطنًا، وتاريخًا سليبا
هذا الثرى العربي.. لم يَبْرَحْ - وسَلْ دمنا - خضيبا
زمجرتَ في وجهِ الفسادِ ولم تَرَ الخَطْبَ العصيبا
لم تعرفِ «المستعمرَ» السفاحَ في وطني نُيوبا
ما كنتَ تُصْدَم «بالحواجزِ» حيثُ أَزمعتَ الركوبا
كنتَ الشروقَ، متى أردتَ، وكنتَ في وطني الغروبا
والنيلُ مِثْلُ الرافدَيْنِ، فلا حدودَ، ولا شعوبا
زمجرتَ.. لم تشهَدْ «شمالاً» يُستَباحُ، ولا «جنوبا»
شعبًا بِرُمَّتهِ يُباد، ويستغيثُ.. ولا مُجيبا»

أو قصيدة «باحث عن امرئ القيس» التي كتبها في الطائرة، فوق حَضْرموت، والتي يشكو فيها من الفارق الكبير بين أيامه وأيام الشاعر الضلِّيل؟ يقول فيها:

«.. إِني أَبحثُ عنكْ
أينَ حوافرُ مُهرِكَ في بيداءِ العَرَبِ،
وأينَ صهيلُ غنائِكَ أنتْ؟
لم أَلمحْ أثرًا للفارسْ
لم أُبصرْ طيفًا للشاعرْ
لا عجَبَ.. الأطلالُ دواثرْ

* * *

لا تسأَلْني..
أَرضي، أرضُكَ،
أرضُ الغَزَلِ، الحُبِّ، مُخَيَّمْ
كلُّ الغُدرانِ الشعرية جَفَّتْ
كلُّ الأحلامِ الورديةِ جَفَّتْ...

* * *

كنتَ طليقًا.. أنتَ ومُهرِكَ..
لا تسأَلْني.. إِنَّا أَسْرى
وعلى خَشَّاتِ القيدِ، أجرُّ قيودي
أبحثُ عنكْ...»

ولا بدَّ لي هذا السياق من أَن أقتطفَ بعض الأبيات من قصيدة «صباحٌ في جنة العريف» التي كتبها بعد زيارة مؤثّرة للأندلس، ولقصر الحمراء بالذات، والطواف في حدائقه الرائعة «جنة العريف»، التي أصبح اسمها بالإسبانية: «خناناريف». يقول الشاعر:

«حَنانا ريفْ..»
لا.. لا..
هذي «جنةُ العريف»..
أقولُ لجارتي الحسناءِ[1]، جاءت
تطوفُ.. كما أطوفُ هنا
وتسأَلُني: أَعِدْ لي اسْمَها العربيّْ
سأحفظُ اسمَها العربيّْ
وتُذْهِلُها روائعُنا..
أقولُ لها: أجَلْ، هذي روائعُنا
تركناها لمن يأتي كتابًا
من الأمجادْ..
تمرُّ به قوافلُ ليس تُحصى
من الروَّادْ..
وتَقْرؤنا.. على الحمراءْ
قصائدَ لم تَزلْ صدَّاحةً
في كل زركشةٍ.. من الحمراءْ»

(١) كانت سائحة ألمانيّة.

هذا بعضُ ما تحدَّث به الشاعر سليمان العيسى عن الماضي البعيد نسبيًّا.. فماذا عن الحاضر، أو الماضي القريب؟

إن الماضي القريب يُراوح بين الألم والأمل، والانكسارات والانتصارات، وكل من هذه الأحداث يلقى صداه في ديوان: «أنا والعروبة».

سَلْخ اللواء (لواء إسكندرون) ١٩٣٨، نكبة فلسطين ١٩٤٨، ثورة الجزائر ١٩٥٤، الوحدة بين سورية ومصر عام ١٩٥٨، الصراع الدموي في العراق بشأن الانضمام إلى الوحدة، مأساة ١٩٦٧، المقاومة الفلسطينية، عمر المختار وثورة ليبيا، حرب تشرين التحريرية ١٩٧٣، الغزو الإسرائيلي للبنان ١٩٨٢، الوحدة اليمنية ١٩٩٠، الانتفاضة، الغزو الأمريكي للعراق، الغزو الأمريكي الثاني للعراق، والإسرائيلي الثاني للبنان..

خط منحنٍ من الأَحْداثِ، يصعد ويهبط، يفتح نافذةً للأمل، ثم يعود فيقفل الأبواب.

لماذا لا نتوقف عند بعض المقتطَفات؟

في غمرة الأفراح بالوحدة بين سورية ومصر، يقول الشاعر:

«أَنَا في زَحْمةِ الحناجرِ أنسابُ جنونًا حينًا.. وحينًا ذُهولا
يا ليالي الضَّياع، والقيدِ زولي نحن باقون وحدةً لن تزولا
وحدةً تَفْجُرُ الينابيعَ في فراتًا يسقي العطاشَ ونيلا
وحدةً تجمعُ المشرَّدَ بالأهلِ عناقًا بعد الفراقِ طويلا
وتلُمُّ المعذَّبين بأرضي موجةً لن تضلَّ بعدُ السبيلا»

وعند إعلان الوحدة اليمنية يهتف الشاعر:

إمْلأْ بها التاريخَ والزَّمَنا وُئِدَتْ هناك لكي تعيشَ هنا

* * *

هي وحدَها القَدَمُ التي بقيت لنعـــودَ أحيـــاءً.. تُحَرِّكنـــا
هـي وحـدها خَـشَبُ النجـاةِ يَعْلَـقْ إلى شـط النجـاةِ دَنَـا
هـــي وحـــدها الـــسَّحَرُ هـــي وحـــدَها القَـــدَرُ
هـي وحـدها يـا مـن يُقاتلهـا دِرعُ الأمـانِ، وحولنـا الخَطَـرُ»

ولا أريد الوقوف عند المآسي والنكبات، ولكني سأشير إلى مصدر الأمل عند الشاعر الذي يتجسد في الثورات والمقاومة حين ظهرت في الوطن العربي.

فقد أفرد ديوانًا خاصًا لثورة الجزائر بعنوان: «صلاة لأرض الثورة»، كما انتشرت له قصائد عديدة حول المقاومة، وانتفاضة أطفال الحجارة في ديوان فلسطين، وقصائد أخرى حول المقاومة في ديوان لبنان، سأُشير منها إلى قصيدة «شفق من الجنوب»، وأقتطف منها المقطع التالي:

«يَلُفُّني السوادْ
يَلُفُّني الرَّمادْ
يُخْطِئني الشروقْ
يُخْطِئني الغروبْ
أَتيهُ بين الخَطْوِ والخَطْوِ
وبين الجُرح والجرحِ،
سُهوبٌ.. دونَها سُهوبْ
أَمدُّ للشعرِ يدي
لجمرةٍ لم تشتعِلْ ألوبْ
أعودُ من جُثَّةِ حُلْمي

تَمَّحي في ناظري الدروبْ
وفي جحيم الهُوَّةِ العمياءْ
وحيثُ صار الكفرُ بالعروبةِ انتماءْ
يَلوحُ لي شَفَقْ
يزلزِل الغَسَقْ
يَرُدُّني شمسًا بلا غروبْ
يَلُوحُ لي الجنوبْ..»

* * *

وإذا بدا لك أن تتساءل كيف تنبثق الثورة؟
وممن تتكون المقاومة؟
فإن ديوان «أنا والعروبة» لديه الجواب.
إنه يُشير في عشرات الأبيات إلى الشعب، بجماهيره الكادحة التي عانت الجوع، والحرمان، والقهر، خلال فترات الانحطاط والاستعمار والاستغلال.
إن هذه الملايين المحرومة هي التي تقاوم، هي التي تكافح للخلاص.
استمع إليه يقول في قصيدة عنوانها «الطريق»:
هذي الملايينُ.. عبيدُ العصورْ
في قريتي منها.. بقايا قبورْ
رافقتُها طفلاً..
أجرُّ العذابْ
قصائدًا.. أُحرق فيها الضبابْ
قصيدتي الكُبرى..

غضونُ الألَمْ
في وجه فلاَّحٍ سقاني النَّغَمْ
وعاملٍ.. كَلَّمني بالجراحْ
وأَطْعمَ القيثارَ جمرَ الكفاحْ
وقال لي: نحنُ رفاقُ السلاحْ.

هذي الملايين هي التي ستحقق الغد المرتجى، بكفاحها وثورتها على الاحتلال والظلم والطغيان. ونضالُها لا بد من أن يُوصِل إلى شكل من أشكال الوحدة العربية، لأن أهدافها لا يمكن أن تتحقق من دونها.

* * *

بقيت هناك نقطة هامة في النضال لتحقيق الوحدة العربية، وهي المحافظة على الوحدة الثقافية، وأهم عناصرها اللغة العربية.

وديوان «أنا والعروبة» يُلحُّ على اللغة العربية في أكثر من قصيدة، وأود أن أقفَ هنا عند اثنتين منها، وأقتطفَ بعض الأبيات الأولى:

قصيدة «المنفى المرير» التي خاطب بها الشاعر الجزائري مالك حداد، الذي كان يردد بألم: اللغة الفرنسية هي منفاي الذي قُدِّر لي أن أعيش فيه. ويقول له سليمان العيسى:

يا صديقي..
أنا أدري أيُّ مأساةٍ رهيبَةْ
غَرَّبتْ لحنكَ عني.. فهو آهاتٌ خَضيبَةْ
أيُّها النسرُ المهيضُ
إنه المنفى البغيضُ

بيننا سورٌ من الصمتِ رهيبُ
إنه الحرفُ الغريبُ
كلَّما هَمَّ جناحاكَ بضربَةْ
وقفَتْ صخرةُ غُرْبَةْ
فإذا اللفظةُ زفرَةْ
تُحرِق الشاعرَ في الصمتِ وشِعرَهْ.

والمقطوعة الثانية التي يكتبها على لسان اللغة العربية، وعنوانُها لغتنا العربية تقول:

إذا تَقطَّعت الأَرحامُ بينكُمُ
إذا تراكمتِ الأسوارُ والحُجُبُ
إذا ٱلتَمستم من الدنيا هُوِيَّتَكُمْ
وضاع خلفَ تخوم الغُربةِ النَّسَبُ
فلا تخافوا..
لكم صدرٌ يضمُّكُمُ
ستلتقونَ على صدري.. أَنَا العَرَبُ

تذكِرة بأحكام نعت جموع الأسماء

د. محمد مكي الحسني الجزائري(*)

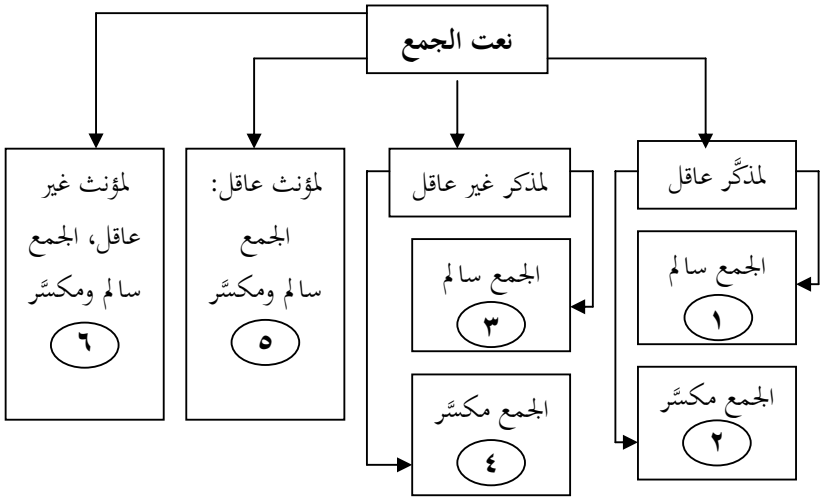

بسببٍ من كثرة أحكام نَعْت جموع الأسماء، بدا لي أن أعرضها بكيفية تُيسِّر الرجوع إليها.

١- إذا كان الاسم المنعوت مذكرًا عاقلاً، وكان جمعًا سالمًا، نحو: مُجاهد مجاهدون، **جاز في نَعْتِهِ:**

أ- أن يكون جمع مذكر سالمًا، نحو: إن المجاهدين الجديرين بالإكبار هم الذين حرّروا بلادهم...

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

ب- أن يكون جمع تكسير للمذكر، نحو: المصلحون العظماء هم فلانٌ وفلانٌ و...

٢- إذا كان الاسم المنعوت مذكرًا عاقلاً، وكان جمعًا مكسَّرًا، نحو: عالِم علماء، رجل رجال، **جاز في نعته:**

أ- أن يكون جمع مذكر سالمًا، نحو: ما أنفعَ العلماءَ العاملين. جاء اليومَ رجالٌ **آخَرون** (جمع آخَر).

ب- أن يكون جمع تكسير لمذكَّر، نحو: ما أنفعَ العلماءَ الأعلام؛ وما أعظمَ حُماةَ الدِّيار الأبطال. مَدَحَ المدرِّب الفائزين، والفِتيان **الأَواخِر** (جمع آخَر). «ابن الحاجب» .

ج- أن يكون جمع تكسير لمؤنث، نحو: جاء اليومَ الرجال **الأُخَر** (لسان العرب): بتقدير: جماعات، لأن أُخَر جمع أُخرى!

د- أن يكون لمذكَّر مفردًا مؤنثًا، نحو: ما أروعَ الشبّان المناضلة في ميادين الإصلاح. (بتقدير: جماعة الشبّان).

(ومن هذا القبيل: المماليك البحرية).

٣- إذا كان الاسم لمذكّر غير عاقل، وكان جمعُهُ سالمًا، نحو: عِلاج، غاز، **جاز في نعته:**

أ- أن يكون مفردًا مؤنثًا، نحو: العلاجات الأخرى الجديدة.

ب- أن يكون جمعَ مؤنث سالمًا، نحو: الغازات الأُخْرَيات الجديدات.

٤- إذا كان الاسم لمذكر غير عاقل، وكان جمعُهُ مكسَّرًا، نحو: كتاب كُتُب، **جاز في نعته:**

أ- أن يكون مفردًا مؤنثًا، نحو: الكتب **الأخرى** الفُضْلى الغالية (إجراءً للجمع مُجرى الجماعة). جِبال شاهِقة.

ب- أن يكون جمعَ مؤنث سالمًا، نحو: الكتب **الأُخْرَيَات** الفُضْلَيَات الغاليات. جِبال شاهقات.

ج- أن يكون جمع تكسير للمؤنث، نحو: الكتب **الأُخَر** الفُضَل الغوالي. جبال شواهِق.

(يُجرى الجمع مُجرى المؤنث لأنه لا يعقل).

[ومن هذا القبيل: التفاسير الأُوَل- الأشواط الأُوَل].

د- أن يكون جمع تكسير للمذكّر، نحو: الكتب الأواخِر الأفاضل الأحاسن (باعتبار التذكير في لفظ المفرد).

[يُجمع آخَر (أفْعَل) على **أواخِر** (أفاعِل) لغير العاقل ومَن عُومِل من العاقل معاملة غير العاقل كجمع التكسير (أما للعاقل فيجمع على آخَرين). وتُجمع آخِرة (فاعِلة) أيضًا على **أواخِر** (فواعِل).

٥- إذا كان الاسم المنعوت لمؤنث عاقِل، وكان جمعُه سالمًا أو مكسَّرًا، جاز في نعته:

أ- أن يكون مفردًا مؤنثًا، نحو: زَوْجات مُطَهَّرة؛ أزواجٌ مطهَّرة؛ نساء قانتة. (هُنَّ الكُوْسى)(*)

ب-أن يكون جمعَ مؤنث سالمًا، نحو: زوجات مُطهَّرات؛ نساء قانتات. (هُنَّ الكوسَيَات)(*)

ج- أن يكون جمعَ تكسير لمؤنث، نحو: فتيات عُنَّس /عوانس/ أُخَر.

● جاء في المعجم الوسيط: كاسَ الولدُ: ظَرُفَ وفَطُن، فهو كَيْسٌ وكيِّسٌ، وهو الأَكْيَس وهي الكُوْسى، وهُنَّ الكُوْسى والكوسَيَات.

٦- إذا كان الاسم المنعوت لمؤنث غير عاقل، وكان جمعُه سالمًا أو مكسَّرًا، جاز في نعته:

أ- أن يكون مفردًا مؤنثًا، نحو: سَفِيْنات/ سُفُنٌ جارية؛ شجرات/ أشجار خضراء(*).

(*) يَصِحُّ النعت بصيغة فعلاء، مؤنث أفعل، إذا كان منعوتها جمعًا لما لا يعقل.

ب- أن يكون جمع مؤنث سالمًا، نحو: سفينات/ سفن جاريات.

ج- أن يكون جمع تكسير لمؤنث، نحو: سفينات/ سفن جَوَارٍ؛ أشجارٌ خُضْرٌ.

الخاتمة: نلاحظ أن جموعَ الأسماءِ كلَّها يمكن أن تُنْعت بمؤنث، إلا الجمع السالم بالواو والنون (أو الياء والنون!) **للاسم المذكر**، لأنه لا يكون إلا للعاقل؛ وعلى هذا تخرج من هذا الاستثناء:

أ- الأسماء التي جُمعت قديمًا بالألف والتاء، وهي من أسماء ما لا يَعقل **المذكّر**:

اصطبل، بُوْق، جواب، حَمَّام، خان، خَيَال، سِجِلّ؛ سرادق، علاج، عنوان، مَغار، منزل، مُصَلًّى، مقام، سؤال، برهان.

ب- الأسماء التي أقرّ مجمع اللغة العربية بالقاهرة، في سنة ١٩٧٣ جمعها بالألف والتاء:

إطارات، بلاغات، جزاءات، جوازات، حسابات، خطابات، خلافات، خيالات، سندات، شعارات، صراعات، صِمَامَات، ضمانات، طلبات، عطاءات، غازات، فراغات، قرارات، قطارات، قطاعات، مجالات، معاشات، مُعْجَمات، مفردات، نتوءات، نداءات، نزاعات، نشاطات، نطاقات.

ج- الأسماء التي جمعها المحْدَثون بالألف والتاء، مثل: إلكترونات، فوتونات، هرمونات، فيتامينات.

- أخيرًا، يُنسب إلى الإمام الزمخشري قوله:

إنّ قـــومي تجمَّعـــوا وبقتلـــي تَحَـــدَّثوا

لا أُبـــالي بِجَمْعِهِـــم **كـلُّ جَمْـعٍ مؤنـث!**

الأديب المجمعي الكبير عبد الله مخلص
العالم الجليل والمؤرِّخ المنصف
١٨٧٨– ١٩٤٧

حكمت هلال(*)

يُعدّ عبد الله مخلص من الروَّاد الأوائل الذين تقدَّموا الصفوف، وحملوا مشاعل العلم وأناروا الطريق للأجيال القادمة، فهو ينبوع ثرّ لا يغيض، وخضمٌّ بحر كبير لا ساحل له ولا قرار، نبغ في كثير من العلوم والفنون، فهو الكاتب والعالم والمؤرِّخ والأديب، وقد حظي باهتمام كبير من العلماء والمؤرِّخين والتراثيين، وأحلُّوه في قلوبهم وعقولهم، ورفعوه إلى المحل الأعلى والمقام الأسنى الذي هو جدير به وأهل له.

نشأته وتحصيله(١):

وُلد عبد الله مخلص في شهر المحرَّم سنة ١٢٩٦هـ الموافق ٢٧ كانون الأول سنة ١٨٧٨م في مدينة عينتاب بتركيا، موطن آبائه، وهو من أسرة جاءت إلى عينتاب من اليمن، واستوطنت فيها وتعرف بأسرة «شبجي خوجة زادة»(٢)، واشتُهرت بالعلم والثقافة وبما وُهبت من الذكاء والفطنة. ويُعدّ رجالها من أركان

(*) صحفي وباحث سوري.

(١) خير الدين الزركلي «الأعلام» الجزء (٤) ص ١٣٤ بيروت ١٩٨٠.

(٢) خوجة: لقب لا يُعطى إلا للعلماء والفقهاء.

النهضة الفكرية في البلاد العربية.

جاء والده محمد عبد الله، وهو من ضباط الجيش العثماني، إلى حيفا ولم يكن عبد الله حينئذ يتجاوز الرابعة من عمره، ثم انتقل أبوه بأسرته مرة أخرى إلى جنين، وبقي فيها مدة حتى وافاه الأجل في ١٣٤٢هـ- ١٩٣٢م.

نشأ عبد الله نشأة دينية صالحة، وبدأ دراسته في مدرسة تدعى «المكتب الرشدي» في حيفا، وكانت هذه المدرسة جزءًا من جامع البلدة، وفيها استقى عبد الله أول معلوماته العلمية، وكانت تُعَدُّ مدرسة عالية وقتئذ، مكّنت الطالب عبد الله – وهو الذي كان يتحلَّى بالذكاء والفطنة والرغبة في الدرس – من الإلمام بعلوم عصره والاطلاع على معارفه، فدرس اللغات الثلاث: العربية والتركية والفارسية دراسة خاصة، فأتقن معرفتها، وخبر خصائصها.

وفي سنة ١٨٩٩ أنهى دراسته، وعكف على تحصيل العلم بنفسه متسلِّحًا في هذا المجال بمواهبه وقدراته، ورغبته الشديدة في أن يكون علمًا من أعلام الثقافة، فعمل بإصرار على التحصيل العلمي والإجادة فيه، فلم يدع عالمًا أو أديبًا أو مؤرِّخًا إلا اتصل به، وأخذ عنه، واستفاد منه، وكان يتردد على كبار العلماء في مدينة نابلس فانتفع بدروسهم ومجالسهم العلمية **ومن هؤلاء العلماء:**

الشيخ حسن هاشم مفتي نابلس، والشيخ داود هاشم عضو محكمة الاستئناف الشرعية بالقدس، والشيخ رشيد هاشم من كبار المدرِّسين، والشيخ عبد الله صوفان الحنبلي، والشيخ موسى صوفان وغيرهم[٣]. وأخذ يجمع

(٣) راجع كتاب «تراث فلسطين» في كتابات عبد الله مخلص، طبع دار الكرمل، عمان (ص ١٤).

نفائس الكتب وأمهات المصادر، وانكبّ عليها دراسة وتمحيصًا، وفهمًا وتحقيقًا، فجمع بين الدراسة التاريخية، والأدب والدين، وعكف على القرآن الكريم مدة يستظهره ويفسره. ولم يدع أحدًا لديه أثارة من علم إلا اجتمع به، واستوضح منه، وروى عنه. أما في الحديث فقد أخذ إجازته عن بعض الشناقطة المحدِّثين، ثم أخذ يميل إلى التخصص في دراسة التاريخ والآثار الشرقية، فجمع لها المصادر والمراجع، ولم يدع كتابًا مطبوعًا في التاريخ والآثار إلا حصل عليه، أو استنسخه، أو اطَّلع عليه وأفاد منه، فاجتمع له – من ذلك كله – من العلم والدراية بهما ما جعله عالم دهره، ونابغة عصره، فارتقى إلى مصاف العلماء الكبار في التاريخ والآثار في العالم أجمع. وقد انتُخب عضوًا مراسلاً في المجمع العلمي بدمشق في جلسته المنعقدة بتاريخ ٣ تشرين الأول سنة ١٩٢٧[٤].

أعماله ومؤلَّفاته[٥]:

أخرج لنا العالم عبد الله مخلص من الذخائر والآثار ما جعله من مفاخر النهضة الفكرية في العالم العربي، فكان من أبرز كتَّابنا وأدبائنا، وبدأت ثمار أعماله تنعقد وتينع، وآفاقه الرحبة تتسع وتغدق، وعطاؤه الثقافي والتاريخي يزداد ويخصب، وصار اسمه نجمًا ساطعًا بين مثقَّفي الجيل وعلمائه الأجلاَّء.

لقد أعطى الفكر العربي العديد من المؤلَّفات والدراسات العلمية والأدبية والفلسفية والتاريخية والسياسية، ودافع عن العلم والوطن دفاع

(٤) رسالة للدكتور عدنان الخطيب — رحمه الله – الأمين العام لمجمع اللغة العربية بدمشق إلى مكتبة الجامعة الأردنية مؤرَّخة في ٦/ ٨/ ١٩٨٥.

(٥) تراث فلسطين في كتابات عبد الله مخلص، طبع دار الكرمل، عمان ١٩٨٦.

المستميت، وكان نتاجه العلمي في مادة التاريخ التي تخصَّص فيها وبرع، غزيرًا وشاملاً، فضلاً عن مناشطه المتعددة في اللغة وآدابها، وفي الأخلاق والأصول وسائر الفروع الدينية. ولم تفته نظرية من نظريات العلم الحديث، سواء في الفلسفة، أم في الطبيعيات والفلكيات، والنشوء والارتقاء إلا واطَّلع عليها وناقش فيها وكتب حولها.

وكان ينشر آراءه العلمية والفكرية في المجالس التي كانت تنعقد في داره، وتحفل بالعلماء والأدباء المتخصصين في كل لون وفن، فكان يُدلي بأفكاره وآرائه التي توصَّل إليها بعد مقارنتها بآراء الأقدمين ومقابلتها بصنوف علمهم ونواحي تفكيرهم.

وكانت لعبد الله مخلص صداقات حميمة، وعلاقات وثيقة بكثير من علماء عصره، منهم محمد كرد علي، وأحمد تيمور باشا، والعلاّمة أحمد زكي باشا (شيخ العروبة)، والعلاّمة الأب أنستاس ماري الكرملي، والشيخ سعيد الكرمي، والشيخ أسعد الشقيري، والشيخ عبد القادر المغربي، والعلاّمة عيسى إسكندر المعلوف، وأسد رستم وغيرهم كثير. ولاشك أن صداقات هؤلاء العلماء قد أفادته فائدة كبيرة.

وكان عبد الله مخلص يراسل أصدقاءه المستشرقين، ومنهم الأب جوسين الدومنيكي ود. س. مرغليوث، وكارل بروكلمان، وبلوشيه وفريش كرنكو. وكان منزله يحفل بالعلماء، وكانت تجري بينهم مناقشات علمية لم ينقطع – على مرضه – عن المشاركة فيها حتى في السنة الأخيرة من حياته.

لقد ترك العلاّمة عبد الله مخلص ثروة من البحوث العلمية، والتحقيقات التاريخية، ستجعله خالدًا في نفوس العلماء والأدباء والمفكِّرين، الذين يقدِّرون

المواهب النابغة والإنتاج العقلي الرصين الذي يزيد في مزايا الثقافة الشرقية العربية، ويرفع من شأنها بين حضارات الأمم والشعوب.

فمن مؤلَّفاته:

١- تاريخ المسجد الأقصى: عرض فيه الأطوار التي مرَّت بهذا المسجد بطريقة فنية لم تُعهد في كتابة التاريخ، وقد أوضح جميع الكتابات المرسومة على جدران المسجد، وصحَّح كثيرًا منها، مثل: إسناد بناء قبة الصخرة إلى الخليفة المأمون. طبع مجلة العرفان صيدا لبنان الجزء (٢) المجلد (٣٤) ١٩٤٧.

٢- تاريخ الخليل: وقد صفّى تاريخ هذا البلد مما علق به من أضاليل الرَّحالة الأميركان في حقيقة معالمه التاريخية.

٣- تاريخ صفد: استنبط من تاريخ صفد ما لم يستنبطه مؤرِّخ قبله، إذ لحق تاريخ صفد الكثير من الغموض، والكثير من الإهمال.

٤- تاريخ بيت لحم: بيّن فيه معاني القداسة التاريخية التي زادت من قداسته الدينية.

٥- أعلام الإسلام في موطن الأنبياء: ذكر فيه أشهر مشاهير الإسلام.

٦- أدوات الحرب عند العرب: أبان فيه تطور الأسلحة العربية، وتفنن الشعوب العربية في صنعها وإعدادها، ومبلغ إتقانهم لها.

٧- أدوات الزينة عند العرب: وهو كتاب جميل في بابه يصوِّر طرق وأساليب تجميل المرأة نفسها منذ أقدم العصور.

٨- ملابس العرب: ذكر فيه تطور أدوات صنع الملابس العربية، وتدرجهم في تطويرها في مضمار الحضارة، وسرد ما لها من صفات في لغة العرب وآدابهم.

٩- العاطفة عند العرب: أبان فيه فعل العواطف في الإنسان العربي بمختلف مراحل عمره وأطواره، وكيف تتحكَّم العاطفة فيه وتوجِّه سلوكه وتحمله على مراعاة العهود، وحفظ الذمار، والدفاع عن الجار. مجلة الرسالة عدد (٤٥٨) مصر ١٩٤٢.

١٠- أبيات العادات: أبان فيه العادات العربية التي دلَّت عليها أشعارهم، ونظمها أدباؤهم.

١١- الثياب المنسوبة: ذكر فيه الثياب المنسوبة إلى بلدان خاصة بها، وما قيل فيها من اللغة والأدب، مثل «القباطي» وغيرها.

١٢- حقَّق كتاب «الإشارة إلى من نال الوزارة». طُبع في المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة سنة ١٩٢٤.

١٣- ترجم عن التركية سيرة السلطان محمد الفاتح، تأليف نامق بك كمال. طُبع سنة ١٩١٠ المطبعة الوطنية في حيفا.

١٤- ما قيل في صفات البئر عند العرب، وأسباب الاعتماد على أوصافها في استنباطها.

١٥- رسائل الرسول.

١٦- أبيات الشعر المتعلقة بالمواطن والبلدان والأنهار.

إن مؤلَّفات عبد الله مخلص تقارب ١٦٦ كتابًا ومقالاً وبحثًا كتبها بين سنتي ١٩٠٩- ١٩٤٧م حسب ما جاء في كتاب «تراث فلسطين» في كتابات عبد الله مخلص في الصفحة ٢٩٣. وله مئات المقالات المتفرقة في الجرائد والمجلات، مثل: جريدة الزمان، واللواء، والأسبوع، والترقي، ومجلة مجمع اللغة العربية، والعرفان، والمعرفة بالقاهرة، والمورد الصافي.

أسلوبه ووفاته:

تميّزت كتاباته بروح الإنصاف والموضوعية والجدة، ولا سيما تجديد التاريخ في فلسفته وقواعده ومناهجه، وحفلت حياته بالإخلاص للواجب والتضحية من أجل العلم. وكان ذا خبرة واسعة، وعقل راجح، وإنسانية متفتحة، وخُلق قويم، فكان بمثابة الشمعة التي تُضيء لتُنير الطريق للأجيال المتتابعة، ثم تذوب وتنطفئ تاركة أجمل الأثر في نفوس الناس، لقد ودّع الحياة، وخبا إشعاع روحه الطاهرة، ونضب ينبوع إبداعه، وانطوت صفحات إنتاجه، وفقد المجمع العلمي بوفاته مشعلاً للخير والعطاء ومثالاً حيًّا للتراث العلمي العربي.

كتب عنه إسعاف النشاشيبي، رحمه الله، فقال[٦]:

«الجاحظ أعجوبة البيان، وعبد الله مخلص أعجوبة الزمان»، يعني بالزمان التاريخ، فأمّا في فضائله فليس لمخلص نظير، كان يمثِّل السمو في أرقى معانيه، وهو على فضيلة من دينه، وعلى كمال من علمه وفضله، مما جعله نسج وحده، لا يدانيه كثير من ذوي المطامح إلى الرجولة الكاملة، وله من مواقف الفضل ما يدل على قلبه الكبير، ونفسه السامية، وتفكيره الناضج، ومن استوضح **مخلصًا** من آثاره ومؤلَّفاته عرف أن **مخلصًا** كان أمة وحده، جمع في نفسه ما تفرَّق من خلال الفضل في كثير من الرجال، ونحن إذ نذكره بهذا الثناء نترك التاريخ يتمم ما عجزنا عنه من إيفاء الرجل حقه، فهو مَعين في العلم لا ينضب، ومصدر لمكارم الأخلاق لا ينفد. وفي شهر نيسان ١٩٤٧ أُصيب بمرض المؤثة (البروستاة) وأُجريت له عملية غير ناجحة في المستشفى

(٦) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلدة (٢٣) ص ٤٥٧ وما بعدها.

الإفرنسي بالقدس، وظل يُعاني من المرض ثمانية أشهر(٧).

تُوفي الأديب المجمعي الكبير في القدس الشريف يوم الثلاثاء الثالث من شهر صفر سنة ١٣٦٧هـ الموافق ١٦ كانون الأول سنة ١٩٤٧م. ونعت الفقيد الصحف والمجلات في فلسطين والعالم العربي. وكُتب على قبره: هنا يرقد بسلام فقيد العلم والوطن، المؤرِّخ عبد الله مخلص المدير العام للأوقاف الإسلامية في فلسطين. برّد الله مثواه وجعل الجنة مأواه. وكُتبت على الضريح الأبيات التي رثاه بها الشاعر حليم دموس وهي:

هذا ضريح سليل المجد والحسب وحارس العلم والأوقاف والكتب
طوى الحياة كبيرًا في شمائله يسقي النّهى بصفاء الكوثر
قد كان نبراس فضل يُستضاء به وكان نجم الهدى في «المجمع

وهكذا انطفأت شعلة كان لها سَنا البرق، وأريج المسك، وحلاوة الأثر في النفوس.

وظائفه ومهماته:

تقلَّب في وظائف حكومية كثيرة، وما كان تأثيره خفيًّا في كل وظيفة أُسندت إليه، وقد أحرز رئاسات كثيرة في الأقلام والدوائر التي مرّ بها من البلديات والمصارف والإدارات العامة، وكانت له أعمال تجارية خلال سني الوظيفة، وهذه الأعمال جعلته كابن خلدون خَبِر الحياة عن كثب، وعلم أثر الناس في تصريف التاريخ، وصبغ الزمن بصفتهم. وكانت آخر وظيفة شغلها

(٧) من أعلام الفكر والأدب في فلسطين طُبع في عمان ١٩٧٦.

(٨) أي المجمع العلمي العربي بدمشق الذي كان عبد الله مخلص عضوًا فيه.

مدير الأوقاف الإسلامية العامة في فلسطين، تولّى إدارتها سنة ١٩٣٨، وبقي فيها حتى سنة ١٩٤٤. وله أحاديث قيِّمة في الإذاعة الفلسطينية. وكان منزله في حي الشيخ جراح بالقدس عامرًا بالمناقشات العلمية. وله في وظائفه عمومها مواقف يضيق القلم عن سردها في مجلة المجمع الغرَّاء. ويكفي أن نعطي فكرة عن تاريخه المجيد في شخصيته العلمية، ونُرجئ كل شيء عنه إلى كتاب خاص، كما نضرب صفحًا عن ذكر حياته السياسية، وهي حافلة بالأحداث الجسام، مليئة بالمواقف المجيدة. وإن رجلاً فيه إخلاص مخلص، وقد عاصر الدولة العثمانية في عهديها: عهد القوة، وعهد الضعف، لم يتخلّ عن مظهريه: مظهر العلم والإخلاص للوطن، ومظهر العقيدة الصافية، والإيمان المكين. إن رجلاً هذه صفاته لابد أن يكون ذا تاريخ مجيد في الحياة السياسية، والمغامرات الوطنية. ولقد صحّح مقولة العلاّمة ابن خلدون[٩]: إن العلماء أبعد الناس عن السياسة قولاً وعملاً، ومع ذلك فإن مخلصًا جمع بين العلم والسياسة، ودلَّ على أن العلماء هم الذين يُجيدون حبك النظم السياسية، وذلك بدافع الإخلاص في العمل والدفاع عن الحقيقة، والاحتفاظ بالوطن موئل الدين، وملاذ العروبة، وقبلة الإسلام والإنسانية.

المراجع

١- الأعلام للزركلي ٤/ ٢٧٨ بيروت ١٩٨٠م.

(٩) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلدة (٢٣) ص ٤٨٥ وما بعدها.

٢- فهرس دار الكتب المصرية ٥/ ١٥٠ و٣٤٥ طبع القاهرة.

٣- مذكرات فخري البارودي ٢/ ٢٩- ٣٠ طبع دمشق.

٤- الكلية ١٥/ ١٥٣، ٣٦٩، ٣٩٧ بيروت.

٥- مجلة المجمع العلمي العربي المجلد (٢٣).

٦- المورد الصافي ١٤/ ٢٣٤ بيروت.

٧- تاريخ الصحافة العربية الجزء (٣) بيروت دار صادر ١٩١٤م.

٨- من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، طبع عمان ١٩٧٦م.

٩- رجال من فلسطين: عجاج نويهض طبع بيروت ١٩٨١م.

١٠- تراث فلسطين في كتابات عبد الله مخلص، طبع دار الكرمل، عمان ١٩٨٦م.

تعقيب على مقالة الأستاذ حكمت هلال
عن الأديب المجمعي الكبير عبد الله مخلص

إعداد: أ. محمود الحسن(*)

أشار الأستاذ الباحث في مقالته إلى سيرة العالم الجليل عبد الله مخلص، وآثاره العلمية، والمناصب التي شغلها، معتمدًا في ذلك على مراجع أثبتها في نهاية مقالته. ولعلّ أهمها: مقالة للأستاذ محمد حسن مكي، منشورة في المجلد الثالث والعشرين من مجلة المجمع(١).

ونظرًا إلى كثرة آراء عبد الله مخلص ومقالاته، المنشورة في مجلة مجمع دمشق، رأينا أن نُنشِئَ هذا التعقيب، وأن نضمّنه تلك الآراء المبثوثة في مجلة المجمع، والتي تظهر فيها الشخصية العلمية لعبد الله مخلص، في أسمى صورها، وذلك من محاوراته للعلماء، وتحقيقاته التاريخية، وخبرته بالتراث العربي المخطوط والمطبوع.

ويُشار إلى أن عبد الله مخلص انتُخب عضوًا مراسلاً في مجمع اللغة العربية بدمشق، في منتصف العشرينيات. وانتخابه مذكور في التقرير الرابع عن أعمال المجمع العلمي العربي، في سني ١٩٢٥- ١٩٢٦- ١٩٢٧، الذي رفعه الرئيس محمد كرد علي إلى السيد أحمد نامي بك رئيس دولة سورية. وفيه ورد:

(*) عضو الهيئة الفنية في مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٢٣، ص ٤٥٧- ٤٦١.

«وضمَّ المجمع إلى أعضائه في هذه الفترة [يقصد في السنوات الثلاث من ١٩٢٥ حتى ١٩٢٧] حضرات العلماء والأدباء: السيد عباس محمود العقاد، والأمير مصطفى الشهابي، والسيد شفيق جبري، والسيد ماسيه، والسيد بوفا، والشيخ إبراهيم منذر، والشيخ مصطفى الغلاييني، وأحمد شوقي بك، والشيخ محمد الخضر حسين، وأحمد لطفي بك السيد، والسيد أحمد حسن الزيات، والسيد أحمد أمين، **والسيد عبد الله مخلص**، والشيخ سليمان ظاهر، والدكتور نقولا فياض، والسيد عمر الفاخوري»[٢].

ويعدّ عبد الله مخلص من كبار المؤرِّخين في القرن الرابع عشر الهجري. وقد ذكر ذلك الرئيس محمد كرد علي مرارًا[٣].

وكان يمتلك مكتبة ضخمة ذكرها السيد أسعد طلس بين خزائن الكتب المشهورة في فلسطين[٤]. وفيما يلي عرض لأعماله المنشورة في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق:

– تعريف بالحاج أحمد أفندي (ت ١٨١٣م) من علماء العثمانيين، مؤلِّف كتاب «تحفة الجنان» في أصول التدريس والتعليم. مج٢ ص ٥٨– ٦٠.

– تعريف بكتاب «المدهش» لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) مج٢ ص١٧٦– ١٧٧.

– حديث عن معنى «جِلِّق» أحد أسماء دمشق، انتهى فيه إلى ترجيح أن

(٢) مجلة مجمع دمشق، المجلد ٨، ص ١٥.

(٣) يُنظر مجلة مجمع دمشق، المجلد ١٧، ص ١٠٥، والمجلد ٢١، ص ٤٨٧.

(٤) مجلة مجمع دمشق، المجلد ٢٠، ص ٢٣٨.

يكون أصله «جُلكه» الفارسي، الذي يعني: المروج المتسعة الأطراف، المترامية الأكناف، التي تبقى خضراء زاهية في كلِّ مواسم السنة. مج٣ ص ٥٨– ٥٩.

– تعريف بكتاب «الأزمنة والأمكنة» لأبي علي المرزوقي الأصفهاني (ت ٤٢١هـ) صاحب «شرح ديوان الحماسة» المشهور. مج٣ ص٢١٣– ٢١٥.

– أرجوزة في الضاد والظاء عُثر عليها في خزانة الكتب الخالدية في بيت المقدس، حقَّقها ونشرها في مجلة المجمع، لا يُعرف قائلها، وتبلغ (٤٧) بيتًا. مج٤ ص١٦١– ١٦٣.

– حديث عن المرزوقي مؤلِّف «الأزمنة والأمكنة»، وردّ على بروكلمان، الذي نشر تعليقًا في الصفحة ٢١٣ من المجلد الثالث من مجلة المجمع، ذكر فيه أن عبد الله مخلص لم يعرف اسم مؤلِّف الكتاب المذكور. مج٤ ص ٢٣٢– ٢٣٣.

– حديث عن نفائس «الخزانة الخالدية في القدس الشريف» وما تحويه من مخطوطات ومطبوعات. نشره في مج٤ ص ٣٦٦– ٣٦٩، ونشر تتمّتَه في مج٤ ص ٤٠٩– ٤١٣.

– حديث عن صاحب أرجوزة «الضاد والظاء» التي نشرها في الصفحة ١٦١ من المجلد الرابع من مجلة المجمع، دون ذكر قائلها. مج٤ ص ٤١٥– ٤١٨.

– تصحيح ما وقع من تصحيف في اسم شارح رسالة «الأبيات المشكلة الأغراض». وهو الخزرجي الزنجاني (ت٦٥٥هـ)، إذ أورد بعضهم اسمه: الخرجي

الريحاني. مج٥ ص٩٧- ٩٨.

- حديث عن معنى «الفيحاء» وأنه كان يُطلق على طرابلس الشام، ثم أُطلق على دمشق. وحديث عن «شامة الرملة البيضاء» وما قيل فيها. مج٥ ص ١٣٧.

- حديث عن الكوس والكوسات: الطبل والترس. مج٥ ص١٣٨.

- تعريف بكتاب «ديوان الأدب» للفارابي (ت٣٥٠هـ) مج٥ ص٢٢٨- ٢٣٣.

- حديث عن كتاب «الفتوح» الذي ألَّفه أحمد بن أعثم الكوفي سنة (٢٠٤هـ)، يذكر فيه أن الأصل العربي فُقِد، وبقيت ترجمته الفارسية التي طُبعت في الهند سنة ١٨٨٢م. مج٦ ص١٤٢- ١٤٣.

- تعريف بكتاب «جامع الأحكام في مسائل الخاص والعام» للقصراني من علماء الريّ. مج٦ ص١٨١- ١٨٢.

- مقال بعنوان «صحف منسيّة» مج٦ ص ١٨٢- ١٨٣.

- تعليق على ما نشره الرئيس محمد كرد علي، من رحلة ناصر خسرو القبادياني، وفيه وصف بعض مدن الشام. وناصر خسرو القبادياني من أدباء فارس في القرن الخامس الهجري، بدأ رحلته سنة (٤٣٧هـ) وزار سورية وفلسطين ومصر وبلاد العرب وبلاد فارس، ووصف ما رآه بالفارسية في كتاب «سفر نامه» . مج٧ ص٧٩- ٨٧.

- استدراك الحديث عن رحلة ناصر خسرو القبادياني. مج٧ ص ١٩٢.

- تصحيح ما وقع من تصحيف في اسمي: المطهّر بن طاهر المقدسي،

ومحمد بن سلام الجمحي (ت٢٣٢هـ) صاحب كتاب «طبقات الشعراء» . مج٧ ص ٥٥٢– ٥٥٣.

– نبذة تاريخية تتعلق بدمشق وجامعها وما حوله. مج٨، ص١١٥– ١٢١.

– تعريف بمخطوطة من مخطوطات الخزانة التيمورية بالقاهرة، تتضمن رحلة قام بها الشيخ محمد بن عبيد القاريّ الدمشقي الشهير بالعطار (ت١١٥٧هـ). مج٨ ص٢٣٥– ٢٤٢.

– استدراك على مقالة للسيد بهجة الأثري بعنوان «تاريخ نشوء الرجز وتطوره»، تحدَّث فيه عما فات صاحب المقالة ذكرُه من الأراجيز المطبوعة. مج٨ ص ٦٣٢– ٦٣٣.

– مقالة عن صاحب مختار الصحاح. وفيها قوائم هامة بأسماء مراجع ومصادر في اللغة والتراجم منها المخطوط ومنها المطبوع. مج٨ ص٦٤١– ٦٦٥.

– تعريف بالسيدة كلثوم نصر عودة صاحبة كتاب «المنتخبات العصرية لدرس الآداب العربية». مج٨ ص ٧٥٦– ٧٥٧.

– تعريف بابن الجوزي (ت٦٥٦هـ) صاحب كتاب «مناقب بغداد» وهو حفيد ابن الجوزي الخطيب المشهور، ومُسمًّى ومُلقَّب ومكنًّى كجَدِّه. مج٩ ص١١٨– ١١٩.

– تعريف بمخطوطة في المكتبة الخالدية ببيت المقدس، تحوي قصيدة بديعية مشجّرة في مدح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقيل هي في مدح الملك الظاهر بن الملك الناصر، كتبها عبد المنعم بن حسان الغساني الأندلسي

في سنة ٦٠٢. ومن هذه المخطوطة نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق، وأخرى في دار الكتب المصرية بالقاهرة، وثالثة في الخزانة الزكية لصاحبها أحمد زكي باشا، ورابعة في المكتبة الأهلية بباريس. مج٩ ص٢٣٦- ٢٣٩.

- حديث للسيد عبد القادر المغربي عن بعض الكتب المطبوعة، ذكر فيه كتاب «النرجس» لعبد الله مخلص، وذكر أن المؤلِّف ضمَّن كتابه هذا كلَّ ما قيل في النرجس من النظم والنثر. مج٩ ص٣١٩.

- مقالة بعنوان «أربد طبرية غير إربد عجلون» انتهى فيها إلى أن «أربد» تقع قرب طبرية وفيها توفِّي الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك، وأن «إربد» عجلون تبعد (٢٥) كيلو مترًا عن «أذرعات». مج٩ ص٤٠٩- ٤٢٠.

- تصحيح تراجم بعض الأعلام. مج٩ ص٧٠١- ٧٠٢.

- تعريف بمجموع نادر يضم عددًا من الرسائل المخطوطة، ذكر فيه عناوين الرسائل وعدد صفحاتها وأسماء أصحابها. مج١٠ ص٥٧٧- ٥٨٣.

- من تعاليق صاحب مختار الصحاح على كتاب «جامع الأصول في أحاديث الرسول». مج١١ ص١٧٩.

- حديث للسيد عبد القادر المغربي، ذكر فيه أن كتاب «بديعيّة العميان» في فن البديع هو من تحقيق عبد الله مخلص. مج١١ ص ٣٨٤.

- تعريف بنسخة مخطوطة للزبور الشريف بخزانة الكتب الخالدية ببيت المقدس. وفيه عرضٌ لبعضٍ من مضمونها، الذي يبدو أنه لا يوافق نصوص المزامير. مج١٢

ص ٦٢٧– ٦٣٠.

– تعريف وتعليق على بعض الأعلام. مج١٢ ص ٦٣٠– ٦٣٣.

– تعريف بكتاب «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة» لابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ). مج١٣ ص ٢٤٩– ٢٥٠.

– تعريف بنسخة من الزبور الشريف، موجودة في جامعة «برنستون» بأمريكا، يعود تاريخ نسخها إلى سنة ١٠٨٣ للهجرة. مج١٣ ص٣٤١– ٣٤٢.

– الإشارة إلى بعض النسخ المخطوطة لكتاب «التذكرة الصلاحية» لخليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ). مج١٣ ص٤٠٥.

– تعريف بأبناء علي بن نصير الطوسي (ت٦٧٢هـ)، الفيلسوف الرياضي الشهير. مج١٦ ص٢٩– ٣٤.

– مقال عن «عائشة الباعونية» (ت٩٢٢هـ). مج ١٦ ص ٦٦– ٧٢.

– مقال بعنوان «صفحات مطويّة» فيه أخبار وتراجم عن كتب مخطوطة تتعلق بدمشق. مج ١٦ ص ٢٤١– ٢٤٧.

– تعريف بكتاب «الفواتح المسكية في الفواتح المكيّة» لعبد الرحمن البسطامي الحنفي (ت٨٥٨هـ)، مع عرض جزء منه عنوانه «الأوائل». مج١٦ ص٣٥٧– ٣٥٩.

– تعريف بكتاب شرح مختصر القدوري، المسمَّى «خلاصة الدلائل في تنقيح المسائل» لحسام الدين علي بن أحمد مكي الرازي (ت٥٩٨هـ) والكتاب

مخطوط وموضوعه في الفقه. مج١٦ ص ٥٠٦- ٥١١.

- تعريف بكتاب مخطوط عنوانه «في فضل الجهاد وما يجب مراعاتُه على الملوك والعلماء وغيرهم» مجهول المؤلِّف. مج١٧ ص١٢٨- ١٣١، مج١٧ ص٣٢٨- ٣٣٢.

- مقال عن خزانة آل المغربي في طرابلس الشام. وفيها (١٣٠٠) كتاب، كانت محفوظة لدى الشيخ عبد القادر المغربي نائب رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق. مج١٨ ص١٢٣- ١٢٩.

- التواليف الإسلامية في العلوم السياسية والإدارية. وهو مقال ذكر فيه عبد الله مخلص قائمة بعناوين (١٢٩) كتاب من الكتب المطبوعة والمخطوطة، وأماكن وجودها، تتصل بالسياسة والإدارة. مج١٨ ص٣٣٩- ٣٤٤.

- مقال بعنوان «من حوادث الشام المجهولة» أشار فيه إلى فتنة وقعت في حماه سنة ٨١١هـ، لم تذكرها كتب التاريخ. مج١٩ ص١٤٥- ١٤٨.

- تعريف بكتاب مخطوط عنوانه «بستان العارفين ونزهة الناظرين» لمؤلِّفه الحاج أحمد بن حسن الشامي من علماء القرن الحادي عشر الهجري. وفيه أخبار المتقدمين، ولطائف كلام الشعراء السالفين. مج٢٠ ص٥٤- ٦٠.

- تعريف بكتاب مخطوط عنوانه «تحفةُ الترك فيما يجب أن يُعمَل في الملك» للقاضي نجم الدين إبراهيم بن علي بن أحمد الطرسوسي (ت٧٥٨هـ). مج٢٠ ص١٣٨- ١٤٢.

– تعريف بكتاب مخطوط عنوانه «كتاب النصائح المهمّة للملوك والأئمة» لمؤلِّفه علوان بن عطية الحموي (ت٩٣٦هـ). مج٢٠ ص٢٢٤– ٢٢٨.

– تعريف بكتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» لأحمد بن علي المقريزي (ت٨٤٥هـ) مج٢٠ ص٤٢٥– ٤٣١.

– صفحة لغة بعنوان «حَبرون لا جيرون» وهو الاسم القديم لمدينة الخليل. مج٢٠ ص٥٧١.

– تعليقات على مقال «دُور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها» لأسعد طلس الذي نشره في المجلد (٢٠) ص٢٣٨. مج٢١ ص١٨٧– ١٩٠.

– الحديث عن عَقديْ نِكاح عثر عليهما عبد الله مخلص، أُجريا في ثغر أسوان بمصر يعود تاريخ أحدهما إلى سنة (٧٢٤هـ) وفيهما يظهر كثير من التقاليد المتبعة في الزواج في ذلك الوقت. مج٢١ ص٤١٩– ٤٢٦.

– مقال عن مجموعة أشعار مُصَعَّبة المباني مُغْمَضّة المعاني. مج ٢١ ص٥٤٤– ٥٤٧.

– تعريف بكتاب «التمهيد في بيان التوحيد» لأبي شكور محمد بن عبد السيد بن شعيب الكشي مج٢٢ ص٦٥– ٦٨.

– صفحة لغة بعنوان «مَشَارف لا مشارق» فيها تصحيح لما ورد في القاموس المحيط أن «مُؤته» موضع بمشارِق الشام. مج٢٢ ص١٨٩– ١٩٠.

– تعريف بكتاب «مُوقد الأذهان ومُوقظ الوسنان» في الألغاز النحوية

والنكت الأدبية لابن هشام (ت٧٦١هـ). مج٢٢ ص٢٥٥- ٢٦٠.

- تعريف بكتاب «روضة الفصاحة» وبمؤلِّفه زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت بعد ٦٩١هـ) مج٢٢ ص٤١٨- ٤٢٦.

- تعريف بكتاب «تحرير التحبير» في علم البديع، لابن أبي الأصبع (ت٦٥٤هـ) مج٢٢ ص٥٢٤- ٥٣١.

من المكتبة العربية

علم التحقيق للمخطوطات العربية

بحث تأسيسي في التأصيل

تأليف الدكتور فخر الدين قباوة

عرض: أ. أيهم بطحوش(*)

كتاب ينبغي لكل من يرغب في الاشتغال بتحقيق كتب التراث أن يقرأه بعناية، وأن يستوعبه بعمق.

ما يزال مجمع اللغة العربية بدمشق، منذ تأسيسه عام ١٩١٩، ينهض بمسؤولية الحفاظ على التراث العربي، ويشجع العلماء و الباحثين على تحقيق نصوصه، ورفع الأستار عن روائعه وكنوزه. كما يقوم بنشر ما يُعرَض عليه من أعمال المحقِّقين، التي تتصل بأغراضه ويرى فائدةً في نشرها، ويستحسن درجة تحقيقها.

وما أصدره المجمع من كتب تراثية، في تاريخه الطويل، دليل على حرصه الشديد على إحياء التراث، والحفاظ على شخصية هذه الأمة وحضارتها.

ولدى تأمل الأعمال المحققة عامةً يُمكن تصنيفها في مجموعتين: **الأولى** ما يُصدره أدعياء العلم وتجّاره من أعمال تُنسَب إلى التحقيق، وهي لا تعدو كونَها خليطًا من الأوهام والتزوير والافتراء والتضليل. والتاريخ كفيل بأن يحكم على هذه الأعمال وأصحابها بما يستحقونه.

(*) باحث في مجمع اللغة العربية ومجاز في التاريخ من جامعة دمشق.

والمجموعة الثانية هي تلك الأعمال التي تحظى بالقبول والرضا، ويقوم بها محقّقون أمناء يحترمون أمتهم وتاريخها وحضارتها، ويبذلون وُسعهم متمسكين بأهدافٍ نبيلة، ومنضبطين بأخلاق العلم، وفضائل الدين، ومقتضى الأمانة.

إن الأعمال التي تنتمي إلى هذه المجموعة هي المعنيَّة هنا. وهي على ما تتصف به من القبول والرضا تتميَّز بوجود اختلافات كثيرة في مناهج المحققين وأساليبهم، بل كثيرًا ما يظهر الاختلاف بين الأعمال التي تُنسَب إلى محقِّق واحد.

ومن تلك الاختلافات على سبيل المثال أن بعض المحققين يُغرق في الضبط اللغوي فيُثقل النص، وبعضهم يقتصد فيُخلّ، وليس الضبط بأحسنَ حالاً من علامات الترقيم، والرسم الإملائي وتحديد بداية الفكرة ونهايتها، وكتابة الآيات والأحاديث النبوية والشعر وكلام العرب والاقتباسات، وضبط كل ذلك بما لا يناسب توظيفه أحيانًا في النص المحقَّق. فكثيرًا ما نجد **مؤلِّفًا** يوردُ مثلاً آية كريمة على إحدى القراءات القرآنية، ويبني تفسيره أو إعرابه أو استنتاجاته على تلك القراءة، ومع ذلك نجد **المحقِّق** يأبى إلا أن يضبط الآية على قراءة حفص لشيوعها في المصاحف وبين الناس. ولا يخفى ما لهذا العمل من خَلق تناقض بين الشاهد وتوظيفه، ونفورٍ بينه وبين موضعه، وإخلال بما أراده المؤلِّف وقصده. ومثل هذه المشكلة نصادفها أيضًا في الأحاديث النبوية والشعر لاختلاف الروايات.

ويضاف إلى ذلك ما نجده لدى المحققين من اختلافٍ في المواقف والأساليب التي تتصل بالتدخّل في النص المحقَّق وإصلاح الخطأ، وترميم النقص، وإقحام العناوين التي يُفترض أن تكون لتيسير الاستفادة من النص لا تعقيده، إضافة إلى رموز الحواشي والتعليقات التي تُوضع في المتن. هذا فيما يتصل بمتن الكتاب المحقق.

أما الحواشي فمنهم من يسردها في أسفل كل صفحة، ومنهم من يضعها في نهاية كل فصل أو باب، ومنهم من يؤجِّلها إلى نهاية الكتاب. والحواشي كما هو

معروف تحتوي غالبًا على عرض خلافات النُّسخ المعتمدة في التحقيق، إضافة إلى تفسير الألفاظ الواردة في المتن، وتوثيق الشواهد والاقتباسات من مصدرها، وترجمة الأعلام، والتعليقات التي يراها المحقِّق ضرورية.

فمن المحققين من يستطرد في عرض الخلافات بين النسخ فيُثقل الحواشي بما لا يفيد، ومنهم من يهمل ذلك أو يتخفَّف فيُضَيِّع وجهًا من وجوه الحقيقة التي قد يُدركها غيرُه فيما بعد. ومنهم من يُطلق لقلمه العنان في تفسير المفردات والتراكيب فيتناول السهل والغريب معًا، دون مراعاةٍ لما يحتاج إلى تفسير وما لا يحتاج، ودون مراعاة المستوى العلمي للقّراء الذين يُتَوَقَّع أن يطّلعُوا على النص المحقق. ونجد بعض المحققين إذا أراد أن يفسِّر لفظًا يعرض معظم المادة المعجمية التي ينتمي إليها هذا اللفظ، فإذا بالحواشي تضجّ من الاستطالة، والكتاب يعاني من الورم، والقارئ المسكين يُفجَع بوقته وجهده. على أن بعض المحققين يهملون أحيانًا تفسير الكثير من المفردات والتراكيب الغريبة، معتقدين أن مهمتهم تقتصر على إظهار المتن كما أراد صاحبه. وفي هذا حرمان عظيم للقارئ لا يقلّ خطورة عن الاستطراد لدى الفريق الآخر.

وإذا تتبعنا أساليب المحققين في توثيق الشواهد وجدنا اختلافًا كبيرًا يتدرج من التجاهل إلى التوسط فالإفراط ومجاوزة الحد. فبعض المحققين يُقحم توثيق الآيات القرآنية مثلاً في المتن مستعينًا بالأقواس، وبعضهم يجعل ذلك في الحاشية، مع إقحام الأقواس، وبعضهم يجعل ذلك في جملة تامة، على حين أن منهم من يستطرد فيذكر اختلاف القراءات وأصحابها مما لا يقتضيه الموقف، ولا يخدم الكتاب. وهذه المسألة تزداد تعقيدًا لدى توثيق الشعر، إذ يكتفي بعض المحققين بذكر الديوان، أو المجموعة الشعرية التي تحوي البيت، على حين أن

بعضهم يورد عددًا كبيرًا من المصادر والمراجع التي ورد فيها، بل ويذهب بعضهم إلى ذكر مطلع القصيدة والأبيات التي تسبق البيت الشعري المقصود، وكلّ ذلك يسهم في تضخيم الحواشي دون فائدة.

ويَظهر التوثيق في أعظم درجات التعقيد في الحديث الشريف، فبعض المحققين يكتفي بذكر مصدر واحد أو اثنين للحديث المقصود، مراعيًا نسبته إلى أعلاها صحةً، على حين نجد من المحققين من يذكر عشرات المصادر والمراجع التي ورد فيها الحديث، بل ومنهم من يذكر رجال الإسناد، واختلاف الروايات، فتطول الحواشي، ويتضاعف حجم الكتاب.

وتختلف أساليب المحققين أيضًا في الترجمة للأعلام الواردة أسماؤهم في المتن، فبعضهم يتجاهل ذلك، وبعضهم يتوسط فيعتدل في العرض، وبعضهم يتجاوز فيستطيل الكلام.

وأما التعليقات فهي كذلك تتدرج من الإهمال إلى الاعتدال فمجاوزة الحد. وهذا الأسلوب الأخير نجده لدى بعض المحققين الذين يُدرجون أجزاء كتب تامة في حواشي الكتاب المحقَّق.

هذه نُبَذ مما يجده المتأمّل في التراث المحقَّق، والبحوثِ التي تتناول موضوع التحقيق، من اختلاف في المناهج والأساليب. وقد أردتُ أن تكون هذه الملاحظات عامة، ولم أُخَصِّصها بذكر كُتُب محدّدة، لأنني لست في مقام النقد للكتب المحققة، وإنما في مقام التعريف بكتاب جديد صدر في علم التحقيق سيأتي ذكره بعد قليل.

إن وجود تلك الخلافات بين مناهج المحققين وأساليبهم يدلّ دلالة قاطعة على أن كلَّ محقّق إنّما يصدر عن خبرات شخصية، وقناعات فردية،

تكوَّنَت لديه من تجربته الذاتية، وتصوراته الخاصة لهذا العمل. ويستطيع المتأمل أن يستنتج بسهولة أن جهود التحقيق في بلادنا لا تستند إلى أسس ثابتة، أو ضوابط متَّفَق عليها، أو مدرسة موحَّدة الأهداف والتصورات.

هذا هو واقع التحقيق في رأيي. على أن حديثي عن وجود الخلافات لا يعني انعدام الاتفاق في بعض القضايا بين زمر المحققين، نظرًا لوجود تأثر واضح بمناهج كبار المحققين العرب، إضافة إلى التأثر أحيانًا بأساليب المستشرقين على ما فيها من علل. ولكن وجود التأثر، على كل حال، لم يبلغ مرتبة الارتقاء بعمل التحقيق إلى درجة الاتفاق على أسلوب موحَّد، أو الإجماع على منهج واضح المعالم والضوابط.

أمام هذا الواقع نجد أنفسنا مدعوِّين للعمل على تأصيل علم التحقيق، وتحرير ضوابطه، وتوحيد مصطلحاته، وأساليبه ومناهجه، على غرار العلوم الأخرى النظرية منها والتطبيقية، وإعداد جيل مدرَّب متسلح بالعلم، ينهض بهذه المهمة الخطيرة، انطلاقًا من إحساسه بالمسؤولية، واعتناقه مذهب الصدق والأمانة.

ولتحقيق ذلك لا بدَّ من وجود أمرين، الأول: توفُّر دقائق هذا العلم، من مصطلحات وأساليب ومناهج ومعلومات وعلوم مساعدة، على أيدي خبراء تشهد مؤلفاتهم، وما حقَّقوه من كتب، بسعة اطلاعهم، وحبّهم للتراث، وإخلاصهم للعلم، وتحرّرهم من التعصّب. والأمر الثاني: هو تجنيد المؤسسات العلمية والثقافية وحثُّها على إنشاء معاهد تختص بتدريس **علم التحقيق**، بعد إعادة الوجه العربي المشرق له، وتخليصه من قيود الاستشراق والاستعمار، لأنه **علم عربي أصيل، عرفه أجدادنا، ومارسوه على أصوله**، على حين أن الكثير من أبناء أمتنا ما يزالون يعتقدون أنه من إبداع المستشرقين.

ولتوضيح هذه الحقيقة لا بدَّ من التفريق بين عَمَل التحقيق وعِلم التحقيق. فعَمَل التحقيق يصحّ أن يُنسب إليه كلُّ من ساهم في طبع شيء من تراثنا المخطوط، سواء كان يصدر عن علم ويلتزم الأمانة والصدق، أم كان يصدر عن جهل ويتبع شيطانه وهواه. أما علم التحقيق فهو: «علمٌ بأصول لإخراج النص المخطوط على الصورة التي وضعها صاحبُها، من حيث اللفظ والمعنى».[١] وبناء على هذا، وعلى مراجعة ما زعم المستشرقون أنهم حقّقوه، يتبيّن لنا أن المستشرقين وأمثالهم عملوا في التحقيق، ولكنهم لم يعلموا أصول التحقيق. والأدلة على ذلك مبسوطة في كتاب علم التحقيق للمخطوطات العربية الذي أتحدث عنه.

وأعود إلى ما ذكرتُه قبل قليل من ضرورة تحقّق أمرين للنهوض بعلم التحقيق، لأقول: إذا كان الكثير منّا يشعر بالإحباط لدى الحديث عن الأمر الثاني، وهو حثّ المؤسسات العلمية على إنشاء معاهد تختص بتدريس علم التحقيق، فهذا لا يعني أن نترك الأمر معلّقًا على القدر، نظرًا إلى أن الأمر الأول وهو الحصول على دقائق علم التحقيق أصبح بين أيدينا، وبإمكاننا الاطلاع على ذلك في كتاب « علم التحقيق للمخطوطات العربية » للدكتور فخر الدين قباوة، لتغذية تجاربنا الذاتية، وتعريف طلابنا بحقائق كنّا نجهلها قرونًا متطاولة، أهمها أن أجدادنا عرفوا التحقيق وأصوله منذ البعثة النبوية، فنحن أرباب هذا العلم، وليس المستشرقون كما هو شائع بين معظم الدارسين.[٢]

وقد دفعني إلى محاولة التعريف بهذا الكتاب ما لمسته من أن الكثير من أعمال التحقيق، إضافة إلى البحوث التي تتناول هذا الموضوع، لم يطّلع أصحابها عليه، مع

(١) علم التحقيق للمخطوطات العربية ص٤٣.

(٢) علم التحقيق ص ٢٩- ٥٠.

أنه من أهم ما صدر في هذا المجال،[٣] فضلاً عن أن فيه حلولاً لجميع المشكلات التي ذكرتها في هذه المقدمة وغيرها مما يعترض سبيل المحققين. وفيه أيضًا تأصيل لهذا العلم بأدلة قاطعة من التراث والتاريخ، ونقد واقعي لأعمال الكثيرين من المستشرقين ومن تأثر بهم، ومن يُوصفون بأنهم من شوامخ المحققين.

– مؤلِّف الكتاب وأهم إنتاجه العلمي:

مؤلف الكتاب هو الأستاذ الدكتور فخر الدين قباوة، أستاذ النحو والأدب القديم، وأحد أعلام التحقيق، على مدى عقود، حافلة بالجهد والعطاء والتأليف والتحقيق والتدريس والإشراف العلمي. نشر العشرات من المؤلفات المتخصصة في اللغة والأدب، كما حقَّق العشرات أيضًا من كتب التراث، وأهم إنتاجه العلمي:

- **أولاً في مجال التأليف:**

١– أبواب ومسائل من الخصائص والإنصاف.
٢– إحياء البحث العلمي الإسلامي.
٣– الأخطل الكبير.
٤– إشكالات في البحث والنقد النحويين.
٥– إعراب الجمل وأشباه الجمل.
٦– الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد.
٧– بوادر شرح الشعر.

(٣) للاطلاع على ما صدر من مؤلفات التي تتناول علم التحقيق ينظر: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٨٢، ص٢٧٧– ٣٠٠.

٨- تاريخ الاحتجاج بالحديث الشريف.

٩- التحليل النحوي - أصوله وأدلته.

١٠- تحليل النص النحوي - منهج ونموذج.

١١- تصريف الأسماء والأفعال.

١٢- التصريف المشترك.

١٣- تطور مشكلة الفصاحة والتحليل البلاغي وموسيقى الشعر.

١٤- تكوين المهارات النحوية.

١٥- جذور التحليل النحوي في المدرسة القرآنية القُدمَى.

١٦- سلامة بن جندل الشاعر الفارس.

١٧- صدى المغازي في الفكر والأدب.

١٨- ابن عصفور والتصريف.

١٩- علامات الترقيم في اللغة العربية.

٢٠- علم التحقيق للمخطوطات العربية.

٢١- فتاوى في علوم العربية.

٢٢- قراءة موجهة لنصوص التراث في رحاب المكتبة العربية - مناهج ونماذج.

٢٣- مشكلة العامل النحوي ونظرية الاقتضاء.

٢٤- مع الشعر والشعراء.

٢٥- المفصّل في تفسير القرآن العظيم.

٢٦- منهج التبريزي في شروحه والقيمة التاريخية للمفضَّليات.

٢٧- المهارات اللغوية وعروبة اللسان.

٢٨- المورد النحوي.

٢٩- المورد النحوي الكبير.
٣٠- نصوص نحوية.
٣١- النهج الإسلامي في التعليم العالي.
٣٢- وظيفة المصدر في الاشتقاق والإعراب.
٣٣- ولا يزالون يقاتلون في ميدان التعليم والبحث العلمي وعروبة اللسان إضافة إلى عشرات المقالات والبحوث المنشورة في مجلات محلية وعربية.

- **ثانيًا في مجال التحقيق:**

١- إصلاح المنطق لابن السكيت.
٢- الإيضاح في شرح سقط الزند وضوئه للخطيب التبريزي.
٣- تفسير الجلالين الميَسَّر للمَحَلِّي والسُّيوطي.
٤- تهذيب إصلاح المنطق للخطيب التبريزي.
٥- تهذيب الألفاظ للخطيب التبريزي.
٦- الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي.
٧- ديوان سلامة بن جندل عن الأصمعي والشيباني للأحول.
٨- شرح اختيارات المفضل للخطيب التبريزي.
٩- شرح الألفية للمرادي.
١٠- شرح بانت سعاد للخطيب التبريزي.
١١- شرح السبع الطوال للخطيب التبريزي.
١٢- شرح شعر زهير بن أبي سلمى لثعلب.
١٣- شرح قواعد الإعراب لمحيي الدين الكافيجي.
١٤- شرح المعلقات العشر للخطيب التبريزي.

١٥- شرح مقصورة ابن دريد للخطيب التبريزي.

١٦- شرح المقصورتين للخطيب التبريزي.

١٧- شرح الملوكي في التصريف لابن يعيش.

١٨- شعر الأخطل للسكري.

١٩- شعر زهير بن أبي سلمى للأعلم الشنتمري.

٢٠- فرائد العقود العَلَوية على شرح الأزهرية لعليّ بن إبراهيم الحلبي.

٢١- القسطاس في علم العروض للزمخشري.

٢٢- كتاب الاختيارين المفضليات والأصمعيات للأخفش الأوسط.

٢٣- كتاب الألفاظ لابن السكيت.

٢٤- كتاب الجمل في النحو للخليل بن أحمد الفراهيدي.

٢٥- مبرز القواعد الإعرابية للرسموكي.

٢٦- الممتع الكبير في التصريف لابن عصفور.

٢٧- الوافي في العروض والقوافي للخطيب التبريزي.

يضاف إلى ما سبق إشرافه على عشرات الرسائل الجامعية في مجال الأدب والنحو. ومراجعته لكثير من أعمال التحقيق.

تلك كانت أسماء بعض مؤلفاته وما حققه من كتب التراث، أما الحديث عن جهوده العلمية وآرائه واجتهاداته فممّا يطول، ولا أبالغ إذا قلت إن مجمل ذلك يصلح أن يُكتَب فيه عدد من المؤلفات والرسائل الجامعية.

– وصف الكتاب ومضمونه:

يقع الكتاب في (٤٧٨) صفحة، وهو من إصدار دار الملتقى بحلب، عام

٢٠٠٥. ويتألف من تمهيد وبابين، وكل باب يتفرع إلى ثلاثة فصول.

ففي **التمهيد** تحدَّث المؤلف عن الصفات التي ينبغي أن تتحلَّى بها شخصية المحقِّق. وقدَّم مجموعة من النصائح والاقتراحات اللازمة لتأهيل الباحثين الذين يُقدمون على الخوض في التحقيق. ثم تناول الكثير من أعمال المستشرقين ومن سار على نهجهم بالنقد الواقعي المشفوع بنماذج مصوَّرة مما حقَّقوه، تُظهر بلا ريب أنهم بعيدون كلَّ البُعد عن علم التحقيق. وبَيَّن بالأدلة التاريخية القاطعة أن هذا العلم عربي إسلامي، عرفه أجدادنا ومارسوه بأمانة وصدق منذ البعثة النبوية، وهو منبثق من عملية الوِجادة المشهورة في رواية الحديث الشريف، ومُطبَّق في أرقى صوره، وأدقّ تفاصيله، عند رواة القراءات والحديث، واللغة والأخبار.

وفي **الباب الأول** تحدث المؤلِّف عن أصول علم التحقيق، فبلغت أربعة عشر، موزعة في ثلاثة أقسام: نظرية، وعملية، ومتمّمات. [٤] وهذه الأصول هي:

١- اختيار الموضوعِ ونصِّهِ.

٢- جمع النسخ.

٣- ترتيب النسخ وترميزها.

٤- توثيق النص.

٥- قراءة التحقيق.

وهذه الأصول الخمسة تندرج تحت القسم النظري.

١- نقل النص.

٢- مقابلة النص.

٣- تثبيت النص وترميمه.

---

(٤) علم التحقيق ص٧٢- ٧٣.

٤- توثيق المعلومات.

وتندرج هذه الأصول الأربعة تحت القسم العملي.

١- تخريج الاقتباسات.

٢- تفسير الغريب والمشكل.

٣- تعريف الأعلام والأحداث.

٤- الفهرسة الفنية.

٥- كتابة المقدمة.

وتندرج هذه الأصول الخمسة تحت قسم المتمِّمات.

ثم جعل مدار الفصل الأول على تاريخ التحقيق عند العرب. فعرض ما ابتكرته شريعة الإسلام من وسائل التوثيق، وأساليب التحقيق العملي، في ميادين القرآن الكريم، والحديث الشريف، والمصادر اللغوية، بأدلة موثقة، ونماذج مصوَّرة. وفي الفصل الثاني تحدث عن أصول التحقيق النظري بالشرح والتفصيل. وخصَّص الفصل الثالث للحديث عن أصول التحقيق العملي.

أما **الباب الثاني** فقد جعله، بفصوله الثلاثة، للحديث عن متمِّمات التحقيق.

ويتصف منهج المؤلِّف بالشمول والاستقصاء، ودقة التفريع والتقسيم، ويقوم على عرض كل أصل من أصول علم التحقيق بالشرح والتفصيل، فيحدِّد المؤلِّف مصطلحاته بدقة، ثم يتجه إلى مقابلته بما في التراث، مُظهرًا بوادره الأولى، والعمليات التي انبثق عنها، ومراحل تطور مفهومه. ثم يعرض ما أصابه من تشويه وطمس على أيدي المستشرقين ودعاة التحقيق. فيَظهر الأصل واضح المعالم محدَّد الصورة، نقيًّا من التشويه والانحراف والغموض. ثم ينحو المؤلِّف منحًى تعليميًّا، فيأخذ بيد القارئ إلى تمثّل هذا الأصل واعتناقه واتّباعه، ثم إضافته إلى الأصول الأخرى، لتتحقَّق لدى هذا القارئ أصول علم التحقيق

مجتمعةً، فما حفظه امتلكه، وما فاته يستطيع العودة إلى الكتاب لاستكماله. يسعفه في ذلك دقةُ التفريع والتقسيم، والدلالة الدقيقة لكلّ عنوان على مضمونه. وكل ذلك معزَّز بأدلة قاطعة، ونماذج واقعية مصوَّرة وصدًى عذب من الخبرة الشخصية، والمعاناة الحقيقية في هذا السبيل.

ويتصف الأسلوب بالدقة والوضوح، مع تجنب الحشو والاستطراد، فالكتاب مع ضخامته لا يقبل الاختصار، فكأن كلّ كلمة خُلِقَت لموضعها، وكلّ سطر سُبِكَ في مكان مهيَّأ له.

ويتصف الأسلوب أيضًا بالسلاسة، إلى درجة أن القارئ يشعر، وهو يتصفّح أبواب الكتاب، أنه يقرأ قصة ذات مواقف مشوِّقة وأحداث متلاحقة، وأيّ قصة؟ إنها قصة حضارة شامخة، حاولت يد الغدر والتسلط أن تطمسها وتنال من عظمتها. وفي هذا الكتاب يحسُّ القارئ بأن معالم حضارتنا تنتفض من تحت ركام التسلط والبغي، فتبدو شامخة راسخة. ويشعر في النهاية بنشوة الظفر، والإحساس بالرضا.

– أهمية الكتاب:

لكتاب «علم التحقيق للمخطوطات العربية» أهمية كبيرة تتجلى في عدة أمور أهمها:

١– أن مؤلِّفه من أشهر علماء العربية في هذا العصر، وأكثرهم خبرة وإنتاجًا في مجال التأليف والتحقيق. وقد ضمَّن كتابه خلاصة تجربة رائدة، ومعاناة حقيقية، امتدتا عقودًا من العمل المتواصل والعلم والدراية والصبر والأمانة.

٢– استيعابه لكل ما كُتب في مجال التحقيق والتوثيق، على أيدي الباحثين من العرب والمستشرقين.

٣– تناوله بالنقد لكثير من أعمال المحققين العرب والمستشرقين.

٤– تسليطه الضوء على ضرورة تحقيق المؤلفات التي تتناول العلوم التطبيقية والكونية، التي حاول المستشرقون إغفالها، لإظهار ضعف العرب في هذه المجالات.

٥– تحديده الدقيق للمصطلحات والألفاظ المستعملة في علم التحقيق.

٦– رصد أعمال التحقيق التي صدرت عن جهل المحققين أو رغبتهم في التزوير، وكشفها والتحذير من الاطمئنان إليها.

٧– إظهار غنى التراث، مما يعيد إلى القارئ العربي الثقة بنفسه وحضارته.

٨– وضع أصول دقيقة لعلم التحقيق، وربط هذا العلم بروح الحضارة العربية الإسلامية، ودفع الشبهات التي حاول المستشرقون ترسيخها في أذهاننا بأن التحقيق هو من إبداع العقلية الأوربية المتسلطة.

٩– طريقة العرض المشوقة، ودقة التفريع والتقسيم، بحيث يستطيع القارئ من الفهرس العودة إلى الفكرة التي يريدها.

١٠– تزويد القارئ بالخبرة العملية في مجال التحقيق، بما تضمَّنه الكتابُ من نماذج مصورة، وإرشادات إلى أماكن وجود المخطوطات، والمصنفات التي تعين المحقّق على إنجاز عمله، والأساليب التي تُيسِّر له إتمام مهمته.

وبعد: فالكتاب لا يستغني عنه كلُّ من يطمح إلى إنجاز عمل علميٍّ متكامل في مجال التحقيق، فمن كان مبتدئًا يتعلَّم منه أصول هذا العلم. ومن كان ذا تجربة يستفيد منه في ترميم تجربته، وإغناء خبرته، وتيسير عمله. ومن كان محبًّا للتراث، معتزًّا بحضارة أمته، فسيجد في هذا الكتاب كيف يتلاشى زَبَد البغي والتسلط، لتظهر ينابيع الحضارة في رياض الخلود.

حفل تأبين
الأستاذ الدكتور شاكر الفحّام
رحمه الله

برعاية السيد الدكتور غياث بركات وزير التعليم العالي، وبالتعاون بين وزارة التعليم العالي ومجمع اللغة العربية، أقيم في الساعة السابعة والنصف من مساء الثلاثاء ٣ شعبان/ ١٤٢٩هـ- ٥/ ٨/ ٢٠٠٨م حفلٌ تأبيني كبير للأستاذ الدكتور شاكر الفحّام، رحمه الله، على مدرج قاعة المحاضرات في مكتبة الأسد.

حضر حفل التأبين نخبة طيبة من الوزراء والعلماء والأدباء والمفكرين وشخصيات الدولة وأهل الفقيد وأصدقائه وطلابه.

وقد اختار الله فقيدنا الأستاذ الدكتور شاكر الفحّام إلى جواره يوم السبت ٢٤ جمادى الآخرة/ ١٤٢٩هـ، الموافق ٢٨ حزيران/ ٢٠٠٨م، بعد رحلة طويلة حافلة بالعطاء.

بُدئ الحفل بتلاوة آيات مباركة من القرآن الكريم.

ثم ألقى الدكتور غياث بركات وزير التعليم العالي كلمةً تحدث فيها عن مناقب الفقيد ورحلته العلمية.

- وألقى كلمة مجمع اللغة العربية الدكتور محمد مروان المحاسني نائب رئيس المجمع.

– وألقى كلمة أصدقاء الفقيد كل من:

– الدكتور إحسان النص عضو مجمع اللغة العربية.

– والأستاذ محمد مصطفى أبو شوارب ممثِّل الأستاذ الشاعر عبد العزيز سعود البابطين.

– والعماد أول مصطفى طلاس نائب القائد العام ووزير الدفاع سابقًا.

– والدكتور أحمد طالب الإبراهيمي من الجزائر

– وألقى كلمة طلاّب الفقيد الدكتور محمد حسَّان الطيَّان.

– وألقى كلمة آل الفقيد السيدة مديحة العنبري قرينة الفقيد.

وقدّم للحفل الدكتور محمود ربداوي.

وفيما يلي نص الكلمات التي أُلقيت في الحفل.

رحم الله فقيدنا الرحمةَ الواسعة، وأسكنه فسيح جناته، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحَسُن أولئك رفيقا.

كلمة الدكتور غياث بركات
وزير التعليم العالي

السادةُ الأفاضل:

إن تاريخ الأمم والحضارات يَبْنيِه العظماء من رجالها، والمخلصون من علمائها وأدبائها ومُفَكّريها، وعلى الأجيالِ أن تبني على خبراتهم، وتُفيدَ مما قدّموه للأمة والبشرية، وأن تظلّ وفيةً لهؤلاء العظماء، الذين قامت على جهودهم نهضةُ الأمة، وعَمِلوا على رقيِّ حضارتِها وازدهارِها.

ومن الناس من يكون عُبوره سريعًا لا يُذكر، إلا أنّ أهل الفكر والعلم، لا ينقضي ذِكرُهم بانتهاء حياتهم، بل تبقى آثارهم خالدةً على الأيام، ويستمرُّ أثرُهم في الأجيال المتعاقبة بعدهم، لأنهم أركان حضارة الأمة، وبُناةُ المجتمع الذين يرسمون مستقبل الأوطان، وهذه هي سنة الحياة، راياتٌ تُرفَع بأيدٍ أمينةٍ؛ ثم تتعاقب الأجيال على حملها.

واليوم نلتقي لتأبين واحدٍ من علماء الوطن والأمة، وأحد أساطين العربية، الأستاذ الدكتور **شاكر الفحام** رحمه الله، الذي أمضى عمره في خدمة العلم والوطن، فكان أستاذًا متميِّزًا في جامعة دمشق سنين طويلة، كما أسهم في تقدم هذه الجامعة عندما وُكِلَتْ إليه رئاستُها. وكان لجهوده الخيرة أثرٌ واضحٌ في جميع المهام التي نُدِب إليها، سواءٌ وهو وزير للتربية أم عندما تسلَّم وزارة التعليم العالي، أو وهو أولُ سفيرٍ لسورية في الجزائر، وكذلك تأسيسه للموسوعة العربية ورئاسته لمجمع اللغة العربية، إضافة إلى أعماله المشهودة على مستوى الوطن العربي. لقد

أخذ على عاتقه مسؤولية البناء والعطاء، وخدمةَ أبناء وطنه وأمته، وكان يزداد بذلاً وعطاءً كلما تقدّمت به السن. وعُرِف بتفانيه وإخلاصه في عمله، وبسيرته العطرة وحرصه على العلم والتعليم، فكان موضع احترام الجميع وتقديرهم، وخير سفيرٍ لوطنه ولجامعته.

كما عُرف عنه دماثةُ الأخلاق وطيب العِشْرة، ووقار العلماء وتواضُعُهم وتهذيبُهم، وحبُّ الآخرين والتفاني في خدمة الوطن والأمة.

وكانت سيرةُ الدكتور **الفحام** العطرة موضع تقدير الجميع، فقُدمت له الجوائز والثناءات من جهات مختلفة، وكُرِّم في أكثرَ من مناسبة.

ووفاءً له وتقديرًا لجهوده فقد أقرَّ مجلسُ جامعة دمشق تسمية أحدِ مدرَّجات كلية الآداب باسم الدكتور شاكر الفحام.

السادةُ الحضور:

إنّ مرورَ فقيدِنا في التعليم العالي لم يكن عابرًا، ولذلك فإنّ فقْدَه كان بالغ الأثر مُفجعًا، خلّفَ فينا الحزنَ والأسى، كما تركَ الأثر الطيّبَ والذكرَ الحسنَ. ولا شك أنه من النخبة الذين ستحتفظُ بهم الذاكرةُ، وتفخَرُ بهم الأجيالُ، لأنّ آثاره العظيمة وأفكاره النيّرة وأعماله الجليلة، ستظلُّ مُتّقِدة متوهّجة في نفوس الجميع.

وإنّ عزاءنا فيه أنه باقٍ في الذاكرة ماثلٌ في ضمائرنا، وأنّ علمه مستمرٌ في الأجيال، وأننا سنحفظُ العهد بعده، ونحملُ الأمانةَ بإخلاص، ونسعى في سبيل تقدُّمِ وطننا ورفعةِ أمتنا بقيادة السيد الرئيس **بشار الأسد**.

تغمد الله فقيدَنا بالرحمةِ الواسعة، وألهمنا وذويهِ الصبرَ والسلوان، فعزاؤنا فيه مشترك.

كلمة الدكتور مروان المحاسني

نائب رئيس مجمع اللغة العربية

أيها الحفل الكريم

لو أراد المرء أن يجول بمخيِّلته ساعيًا إلى استذكار تضاعيف وتعاريجَ في مسار حياته الشخصية فهل بوسعه أن يُسقط أمورًا ومواقفَ لم تكن ذاتَ بال في وقتها، وإذا بها تتوضح له مناراتٍ ومنطلقاتٍ ترتّبت عليها أحداثٌ ومسالكُ متشعبةٌ ومنعطفاتٌ حاسمة أوصلته إلى المكانة التي تبوأها في مجتمعه؟

وإني إذ أقف اليوم معزِّيًا برجل كان ملء عيون الناس، كبيرًا في مقامه، عزيزًا في موقعه، بارزًا في خدماته، متميزًا في مشاركاته الممتدة على قطاعات متعددة في وطنه،

تَرَوني أتساءل، ما الذي أتوقف عنده من مآثره وما هي النواحي التي لا يجوز إغفالها؟ فالتأبين في نظري ليس محصورًا في تقريظٍ رتيب يُعيد إلى الذاكرة مراحلَ هامةً من حياة الفقيد بقدْر ما هو سعيٌ لكشف نواحٍ غير مشهورة من شخصيته يُستنار بها لفهم ما هو معروفٌ من مسار حياته.

أيها السيدات والسادة

لاشك بأنكم تشاركونني الرأي بأن المعروف لا يحتاج إلى تعريف، وأن شخصيةً كشخصية فقيدنا الدكتور شاكر الفحام لا يمكن اختزال أوصافها في سردٍ يتطرق إلى الوظائف والمناصب التي تقلدها.

هو الأستاذ، والمحقِّق، والوزير، والإداري، والسفير، فكيف لي أن أرجّح

وجهًا من وجوه شخصيته على وجوهها الأخرى، وكيف لي أن أجمع صفاته رئيسًا للجامعة، إلى مميزاته وزيرًا للتعليم العالي، لأصِلَ إلى مسلكه سفيرًا لبلاده في الجزائر؟

فلقد اكتملت معرفتي بالأستاذ الدكتور شاكر الفحام رحمه الله يوم استقبلني عضوًا عاملاً في مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٨٩ وكان يومئذ نائبًا للرئيس. وكانت قد امتدت نيابته للرئيس سنواتٍ عديدةً معاضدًا ذلك الرجلَ المقدام والإداريَّ الصارم، أستاذي الكبير الدكتور حسني سبح الذي كان من أنبغ أساتذة كلية الطب.

ثم استمر الدكتور الفحام نائبًا للرئيس بعد رحيل الأستاذ حسني سبح عام ١٩٨٦ حتى انتخابه رئيسًا للمجمع عام ١٩٩٣. وكان إصراره على عدم تقلّد الرئاسة طيلة تلك السنوات مرتبطًا بالتزامه الإشرافَ على تَسيير الموسوعة العربية التي كان يؤمَل لها أن تسدّ فراغًا ثقافيًّا لا يستطيع المجمع بأوضاعه الراهنة أن يسدّه، إذ على الموسوعة أن تتطرق إلى مجالات علمية وثقافية وتاريخية تتجاوز مهام مجمع اللغة العربية. وقد كان تسلمه رئاسة المجمع عام ١٩٩٣ إيذانًا بعودته إلى التركيز على اللغة العربية، وهي التي اعتمدها محورًا لحياته.

فلقد نال الدكتور الفحام الإجازة في آداب اللغة العربية من جامعة القاهرة عام ١٩٤٦، وأتبعها بدراسات عليا أهّلته للحصول على شهادة الماجستير في الآداب عام ١٩٦٠، وانتهى إلى شهادة الدكتوراه في جامعة القاهرة عام ١٩٦٣.

ونحن إذ نتطرق إلى الدراسة الجامعية في النصف الأول من القرن الماضي

لابد لنا من العودة إلى الجو الفكري الذي كان يخيم على جامعات الوطن العربي في تلك الحقبة، جوٍ تعصف به تيارات ثقافية وأخرى سياسية محدثةً جدالاتٍ عميقةَ الأثر في استقطاب عقول الشباب وميولهم.

فقد عرفنا حينذاك نقاشات حادةً في جامعتنا السورية بين الملتزمين بالتيار القومي العربي، والمتعاطفين مع التيار السوري القومي، أو التيار الشيوعي، أو التيار الإسلامي.

فقد كانت باحات الجامعةِ الفسيحةِ مسرحًا لصراعات كلامية، وصداقات تنعقد وتنفكُّ حسب اتجاه الرياح العَقَديّة التي كانت تجتاح ذلك الصرح العلمي.

ولاشك بأن حالةً مماثلةً كانت تسود الجو الطلابي في مصر تنتهي إلى استقطاب الشباب ليلتحقوا بتيار من التيارات المتصارعة، وهكذا كان أن التحق الدكتور شاكر الفحام بحزب البعث العربي في سورية، مؤكِّدًا ميولَه وقناعاتِه القوميّةَ الأصيلة، وأتيح له أن يحضر المؤتمر التأسيسي للحزب عام ١٩٤٧ إلى جانب مجمعي آخر نعتز بوجوده هو الشاعر الكبير الأستاذ سليمان العيسى أطال الله في عمره.

ليس هذا مقامُ تقديم استعراضٍ للإنتاج الفكري الأصيل لفقيدنا، وهو الذي تطرّق إلى طيف واسع من المجالات الأدبية المختلفة في مقالاتٍ نُشر معظمها في مجلة المجمع، إلى جانب عمله الدؤوب في تحقيق عدد من النصوص التراثية المرموقة، ككتاب اللامات لأحمد بن فارس، إلى جانب تحقيق بعض التراجم البارزة الواردة في تاريخ دمشق لابن عساكر، وهي تخص أمثالَ أبي الفتح البستي وحميد بن ثور الهلالي والراعي النميري، كما أنه قام بتحقيق

مخطوطات هامة من المكتبة الظاهرية كالكوكبيات والمختار من شعر بشار.

وهنالك أمر يتوقف عنده المراجع لأعمال فقيدنا ألا وهو ميلُه إلى التراث الشعري، إذ اختص الفرزدقَ ذلك الشاعر الكبير موضوعًا لأطروحة الدكتوراه، وقام بدراسة متعمقة لشعر بشار بن برد.

ولعل ما نعرفه من خلق الدكتور الفحام، وتميُّزِه بدرجة عالية من اللطف ودماثةِ الطبع في تعامله مع المجتمع، وما كنا نراه في حياته اليومية من بُعدٍ عن الضجيج والصخب، أمورٌ نستطيع إرجاعَها إلى حِسٍّ شاعري خفيّ لم يبرزه في ممارسته، أو ربما حالت مشاغله دون تفتّحه.

لقد سُمي الدكتور شاكر الفحام سفيرًا لسورية في الجزائر عام ١٩٦٤ واستمر في هذا المنصب حتى عام ١٩٦٨. وكانت الجمهورية الجزائرية حينئذ حديثةَ العهد باستقلالها بعد جهادٍ طويل ومرير، وبدأت حكومتها الوطنية تحاول التخلُّص من وطأة الثقافة الفرنسية التي أَلبست الشعبَ الجزائري ثوبًا قسريًّا من الفَرْنَسَة باعتباره جزءًا لا يتجزأ من القومية الفرنسية ممتدّةً إلى الشمال الإفريقي عبر المتوسط.

وكان أن أخذت اللغة العربية في الأفول حين فُرضت اللغة الفرنسية في جميع مراحل التدريس، وبدأ الناس يتخاطبون بالفرنسية في مختلف مناشط حياتهم اليومية، والأحرى بنا القول إن اللغة كانت فرنسيةً بمجملها وظاهرها، ولو أنها بقيت مبرقشة بكثير من الكلمات العربية الدارجة، كما برزت فيها تراكيبُ عربيةٌ قُلبت إلى فرنسيةٍ ركيكة. وهكذا قاربت الهوية العربية الجزائرية الضياعَ في مواجهة مدٍّ ثقافي قاهر.

لقد أدرك الدكتور الفحام أهمية وجوده في تلك المرحلة العصيبة في الجزائر،

فلم يكتفِ بأن يكون سفيرًا فحسب يتبادل الرسائل مع وزارة الخارجية في بلاده، بل أضحى بفضل ما اشتُهِر به من حبٍّ للعربية وتعمّق في دقائقها، المشاوَرَ المعتمد في شؤون حركة التعريب التي اتخذتها الحكومة الوطنية نبراسًا لعملها، وهدفًا يتطلب الإسراعَ إليه بخطواتٍ حثيثة لإخراج البلاد من هوة تجذّر الثقافة الدخيلة. فقد كان الدكتور الفحام سفير التعريب إلى الجمهورية الجزائرية.

وأُتيح لنا أن نعرف مدى ما توصل إليه هذا العمل الصامت الهادف من تأثيرٍ بالغ في المخططات الثقافية للحكومة الجزائرية حين وصلتُ مع زملائي أعضاءِ لجنة المعجمِ الطبي الموحد إلى الجزائر عام ١٩٦٩. فقد كانت اللجنة التي أنجزت الطبعة الأولى المقصورةَ على المقابلات العربية للمصطلحات الإنكليزية تضم أعضاءً من مصر والعراق إلى جانبنا أنا وزميلي الدكتور هيثم الخياط مُمثلَين عن سورية في مطلع الستينيات. ثم تأكدتْ ضرورة توسيع المعجم مماشاةً للتطورات العلمية المتسارعة التي تُغرق المجال المعرفي بسيلٍ دافقٍ من المصطلحات الجديدة، كما تبينت ضرورةُ إضافة المقابلات الفرنسية تسهيلاً لحركة التعريب في المغرب العربي، وهذا توسيعٌ يتطلب إضافةَ أعضاء يتعاملون باللغة الفرنسية في ممارستهم الطبية.

وحين عُقد اجتماعنا الأول للمشروع الجديد في مدينة الجزائر وانضم إلينا زملاؤنا من المغرب فوجئنا بحفاوةٍ غير معتادة تحيط بنا، إذ استُقبلنا استقبالاً رسميًّا وحُدّد لنا موعدٌ مع الرئيس هواري بومدين حضره مستشاره أحمد طالب الإبراهيمي للترحيب بنا مستَنَدًا لحركة التعريب في الجزائر.

وما ذلك إلا لاقتناع الحكومة الجزائرية أن تعريب العلوم وتعريب الطب

بخاصة، سيعود بفوائدَ جمةٍ على الشعب الجزائري الذي سوف يتعامل مع أطبائه بلغة يفهمها جميع أفراده. ومن المؤكد أن تأثير السفير السوري خلال السنوات الأربع التي قضاها قبل وصولنا، وهو الحامل لحماسة بلاده وإصرارها على تعريب العلوم في جميع المراحل الدراسية، كان بالغَ الوضوح في تشجيع الحكومة الجزائرية على المضي في المسار الموصل إلى التعريب اعتمادًا على التجربة السورية.

وهكذا بقينا نتردد على المغرب العربي طيلة السبعينيات لإتمام مشروع المعجم الطبي الموحد، بعد أن انضم إلى لجنتنا أستاذنا الكبير الدكتور حسني سبح، وبقينا نقطف ثمار الانفتاح المغاربي على اللغة العربية، الذي بدأ انطلاقُه من الجزائر.

ولعل ما لمسناه من أثرٍ لنشاط الدكتور الفحام في دفع عملية التعريب يُسجّل له مشاركةً فعّالة في مسار المغرب العربي نحو ترجيح التعريب على التغريب بما له من منزلقاتٍ مهلكة.

أيها السيدات والسادة

لقد كان حصادُ رئاسة الدكتور شاكر الفحام للمجمع يتضمن نشاطاتٍ ثقافيةً متعددة. منها المحاضرات التي استقطبت جمهورًا من المثقفين يشاركون في هَمِّ ما تواجهه اللغة العربية من تحديات، ومنها ندوات تسع بين عام ١٩٩٤ وعام ٢٠٠١ نوقشت فيها شؤون المصطلح في العلوم، وضرورةُ إيجاد منهجية موحدة لصوغ المصطلحات، وندوة عن اللغة العربية والإعلام، وخُصصت الندوة الأخيرة عام ٢٠٠١ للبحوث التي ترتبط بصناعة المعجم العربي.

ثم انتهج المجمع سُنّة أخرى اعتبارًا من عام ٢٠٠٢ وهي الدعوة إلى

مؤتمرات سنوية متخصصة تتمحور حول شؤون اللغة العربية من حيث تيسيرُ تعليم النحو، أو علاقةُ اللغة بالمجتمع، أو دورُ المعلوماتية في تطور اللغة العربية، وكان آخرَها المؤتمرُ السادس بعنوان لغة الطفل والواقع المعاصر عام ٢٠٠٧. وقد حازت هذه المؤتمرات شرف رعاية السيد الرئيس لأنها تصبُّ في بحر اهتمامات سيادته، وهو الذي دأبَ على تشجيع كلِّ ما يتعلق بالارتقاء باللغة العربية لتكون حاملةً لثقافة أصيلة. وقد صدرت عن هذه المؤتمرات وتلك الندوات توصيات وقرارات هامة نتطلع إلى تنفيذها وتعميم فائدتها في المستقبل القريب.

وَجدَّدت لجان المجمع في تلك المرحلة اهتمامَها بأمور دقيقة في مجالات خدمة اللغة العربية كدراسةٍ للأخطاء الشائعةِ على ألسنة العامة، وتثبيتٍ لقواعد الإملاء، وذلك إلى جانب تمسُّكِها بالكشف عن كنوز تراثنا وصولاً إلى تحقيقها ونشرها. وقد غلب على أعمال المجمع في السنوات الأخيرة اهتمامُه بتوحيد المصطلحات العلمية وهي تمثل العُمُد التي يستند إليها تدريسُ العلوم، وهي في الوقت ذاته مفاتيحُ الاطلاع على الحضارات العالمية المتطورة. والهدف من الإصرار على هذا التوحيد هو القضاءُ على الفوضى التي ظهرت في المصطلحات المعتمدة في التدريس، إذ أخذ الأساتذة يضعون المصطلحات ويغيّرون ما كان معتمدًا من قبلُ متأثرين بخلفياتهم الثقافية المتباينة من ألمانيةٍ وأمريكيةٍ وروسيةٍ وغيرها.

ولقد أَنجزتْ كلٌّ من لجنة الفيزياء ولجنة الكيمياء مهمتها في توحيد المصطلحات المدرجة في كتب التدريس الجامعي، ومازلنا نتابع العمل في مجالات العلوم الطبيعية كالحيوان والنبات والجيولوجيا، إضافةً إلى العلوم

الزراعية، وسوف تُرفع قوائم المصطلحات فور إتمامها إلى مجلس المجمع لإقرارها قبل إبلاغها وزارة التعليم العالي لاعتمادها من قِبَل الأساتذة في مؤلفاتهم.

وحين برزت في السنوات القليلة الماضية فكرةُ إيجاد معجمٍ تاريخي للغة العربية، أسوة بما هو موجود في اللغات الأوربية، لدراسة تطوّر اللغة وتتبّعِ التغيرات الدلالية التي تطرأ على كل لفظة في انتقال استعمالها من عصرٍ إلى عصر آخر، أبدى الدكتور الفحام رحمه الله حماسة كبيرة لهذا المشروع الذي يتولى إنجازَه اتحادُ المجامع العربية، وسُمي عضوًا في مجلس الأمناء المكلفِ إنجازَ المشروع، ومازال الأمر في بداياته تنظيمًا وتنفيذًا.

كما وقّع الدكتور الفحام اتفاقًا مع المجلس الدولي للغة الفرنسية لترجمة المعجم الطبي الموسوعي الفرنسي الصادر عن أكاديمية العلوم الطبية الفرنسية ونحن نتابع السعي لإيجاد التمويل اللازم لذلك المشروع المتميز.

ومن جهة أخرى مازال المجمع يتابع إنجاز مشروع إعادة تأهيل المكتبة الظاهرية بعد أن وُقّع عقد بين المجمع وحكومة كازاخستان لتمويل الترميم اللازم لذلك الجزء من المكتبة الظاهرية، وهو ضريح ابن كازاخستان السلطان الظاهر بيبرس. وسوف ننطلق بعد ذلك بمشروع يجمع المدرسة العادلية والمكتبة الظاهرية في مجمّع ثقافي يُعيد الحياة الفكرية إلى قلب مدينة دمشق. ثم إن المجمع قد قام في السنوات الأخيرة بتجديد اهتمامه بإغناء المكتبة العربية في مختلف المجالات التراثية والحديثة. ولابد من القول إن أهمَّ المؤلفات التي يلتزم المجمع تحقيقَها ونشرَها تاريخُ دمشق لابن عساكر، ذلك المؤلَّف النفيس في ثمانين مجلدًا، وقد وصلت إصدارات المجمع منه إلى المجلد السابع والستين ونأمل أن نصل إلى إتمامه في عام ٢٠٠٩.

على أن هذا المجهود المركّز لم يمنع المجمع من إصدار كتب تراثية هامة في السنوات الأخيرة ككتاب الأنواء للزجّاج، وكتاب الأسماء والأفعال والحروف للزبيدي، والدرّ النثير والعذب النمير للمالقي، والمقصور والممدود لابن ولاّد، وديوان أبي النجم العجلي، والبرق المتألق في محاسن جلّق، وكان آخرها معجم الكلمات المصطلحية في لسان العرب.

أيها السيدات والسادة

إن مجمعنا الذي قَرعتْ ساحتَه الأحزانُ في السنوات القليلة الماضية لَيذكر للدكتور شاكر الفحام إلى جانب إنجازاته المعروفة في خدمة العربية ذلك الطابعَ الخاص الذي أضفاه على جلسات المجلس، وهو حرصُه على حُسن استعمال الألفاظ فيما يرد إلى المجلس من تقاريرَ ومحاضرَ، وتأكيدُه سلامةَ اللغة بعيدًا عن التراكيب الجاهزة المبتذلة، وكان كثيرَ الاهتمام بالاطلاع على كل ما يصدر من كتب تخص علوم العربية، ويطلب تزويد مكتبة المجمع والمكتبة الظاهرية بكل كتاب يستحق الانضمام إلى كل منهما.

كما نذكر كيف كان باب الرئيس مفتوحًا دومًا لكل مراجع أو زائر دون استئذان موقوت، وهذا ما جعل العديد من طلابه القدامى يستمرون في تواصلهم معه ويقدمون إليه إنتاجهم الجديد، وهو يتولى مراجعة عدد غير قليل من المقالات قبل نشرها في مجلة المجمع.

وعندما بدت بوادرُ الانحراف في صحته وتكرر غيابه عن المجمع في الشهور الماضية عرفنا أن إطلاقَ تسميةِ مجمع الخالدين على مجمع اللغة العربية لا يحول دون تلاطم موج المنايا حول أعضائه.

إن الخلود لله وحدَه جلّ وعلا وأما الإنسان فخلوده في إنتاجه وفي

مشاركته هموم أمته وفي خِلفةٍ صالحة تفتخر بعمله.

فاسمحوا لي أن أتقدم إلى عائلة الفقيد باسم إخواني في مجمع اللغة العربية بأحرّ التعازي لفقد مجمعي بارز، كان شديد التعلق بالعربية، تقلّد رئاسة مجمع اللغة العربية سنوات طويلة وكان مسؤولاً عن مساراته.

كما أني أتقدم بالتعازي إلى محبِّي اللغة العربية جميعًا لفقدهم قامةً كبيرة في خدمة لغتنا العزيزة.

رحم الله فقيدنا وأسكنه فسيح جناته والسلام

كلمة د. إحسان النص
عضو المجمع

أحسَنُ بالواجد من وَجدِهِ صبرٌ يعيد النار في زَندِهِ
ومن أبى في الرُّزء غير الأسى كان بُكاه منتهى جُهدِهِ
يا دهرُ يا مُنجزَ إيعاده ومخلف المأمولِ من وعده
أيُّ جديد لك لم تُبله وأيُّ أقرانك لم تُرْدِهِ
أمسِ الذي مَرَّ على قُربِهِ يُعجز أهل الأرض عن رَدِّهِ

أيّها الفقيد العزيز، فارقتنا ونحن أحوج ما نكون إليك، كُنّا ننهل من علمك الغزير، ومعرفتك الواسعة باللغة العربية وعُلومها، نفتقد فيك العالم العلاّمة، والرئيس الذي كان يدير المجمع بحنكته وحزمه، وذا الرأي الحصيف الذي يُستشار في مشكلات الأمور.

كان باب غرفتك لا يقف دونه حاجب يستأذن للزائرين في الدخول إليك، كان بابك مفتوحًا لأي قاصد، وكنت تستقبل زُوّارك وقاصديك بالابتسام والترحيب، وإذا قصدك امرؤ في حاجة قضيتها له فخرج من عندك مسرورًا شاكرًا، وما كان أكثر زوّارك. وكنت لا تستأثر برأي يبدو لك، بل كنت تؤثر مشاورتنا في جميع الأمور، إنفاذًا لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾.

رافقتُك، أيها العزيز شاكر، ما يزيد على ستّين سنة، بدءًا من أيام الدراسة في المرحلة الثانوية، ثم رافقتك في جامعة القاهرة، حين أُوفدنا لنيل الشهادة الجامعية (الليسانس)، ولم تكن جامعة دمشق قد فتحت أبوابها آنئذ، ثم عملنا في التدريس سنواتٍ عشرًا، ثم رافقتك مرة أخرى حين أُوفدنا إلى جامعة القاهرة لنيل شهادتي الماجستير والدكتوراه، وكانت لقاءاتُنا في تلك الحقبة متصلة. ولما فتحت جامعة دمشق أبوابها دخلناها معًا للتدريس في قسم اللغة العربية. ولما

أوفدتني جامعة دمشق إلى الجزائر لتعريب جامعتها المفرنسة، كنتَ السابق إلى الجزائر سفيرًا لسورية فيها. ثم كان بيننا لقاء آخر في هيئة الموسوعة العربية يوم كنت مديرًا لها، والتقينا أخيرًا في رحاب مجمع اللغة العربية بدمشق، وكنت رئيسًا له، فعملنا معًا في الاضطلاع بمهامّه. وكنا نترافق في سفرنا إلى القاهرة كلَّ عام، ونحن عضوان عاملان في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهكذا قُدّر لنا أن نكون رفيقين في دربنا طوال ما يزيد على ستين سنة, وكنتَ لي طوال هذه السنين نعم الرفيق، ونعم المؤنس.

عرفت فيك أيها الفقيد العزيز، طوال صحبتي لك، الأخ الكريم، ورُبّ أخ لم تلده أُمّك، والعالم المدقّق، والباحث المتعمق، والمناضل الصادق الولاء للعروبة والوطن، ثم فارقتنا اليومَ، بمشيئة الله تعالى، فالموت حقّ، بل هو حقيقة الحقائق في هذا الوجود، وهاجس الموت يسكن المرء طوال حياته، فلا نملك إلاّ الإذعان لمشيئة الله، والتذرّع بالصبر على النازلة.

لابُـدّ للإنـسان مـن ضـجعة لا تقلـب المـضجع عـن جنبـه
نحـن بنـو المـوت فمـا بالنـا نعـاف مـا لا بُـدّ مـن شـربه

أشهد أنني ما ذكرتك اليوم إلا تمثّل لي شخصك أمامي، مبتسمًا هاشًّا كدأبك دائمًا، فأنت في القلب وإن غبت عنّا، وذكرك باقٍ على الدهر شأنَ العظماء والعلماء.

أيها الفقيد العزيز

إن رفاقك في المجمع لا ينسَوْن ما قدمت للمجمع من أيادٍ حميدة، ولا ينسون نُصرتك للعربية وذودَك عن حياضها، فكان حب اللغة العربية يجري في قلبك جريان الدماء في العروق، ولا تنسى سورية مناصرتك للشعور القومي ومناجَزتَك الشعوبيين وأعداءَ الوطن، فالْقَ ربَّك قرير العين، مطمئن النفس فقد أديت واجبك نحو العربية والعروبة على أمثل وجه، واللهَ أسأل أن يتغمّدك بواسع رحمته، ويُبَوِّئَك وارف جناته.

الأستاذ محمد مصطفى أبو شوارب
ممثِّل الأستاذ الشاعر
عبد العزيز سعود البابطين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، عليه وعلى آله وصحبه خير صلاة وأزكى سلام.

معالي الأستاذ الدكتور غياث بركات وزير التعليم العالي بالجمهورية العربية السورية.

المنصة المبجلة.

علماء العربية وأدباءها ومثقفيها.

الحضور الكريم.

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

لقد أحبَّ الشاعر العربي الكبير الأستاذ عبد العزيز سعود البابطين أن يكون بينكم اليوم، ومعكم هذه الذكرى العَطِرة لواحد من صروحنا العربية الشامخة، لولا مشاغل جسيمة حالت بينه وبين مشاركة أصحاب القلم وأرباب الكلمة في محاولة الوفاء لهذا العلم العالم المعلم ببعض حقه، والاعتراف له بشيء من فضله وأياديه علينا جميعًا.

ويشرفني باسم الأستاذ عبد العزيز البابطين، وباسم مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري – أن أشارككم هذا الحفل التاريخي المشهود لتكريم فقيد سورية والعروبة، أستاذنا المرحوم الدكتور شاكر الفحّام، ونحن إذ نكرمه إنما نكرِّم في شخصه كل المعاني الإنسانية النبيلة التي عاش من أجلها وأنفق فيها حياته.

وإذا كان الإجماع – حضورنا الأعزاء – قد انعقد بين المفكرين والباحثين والنقَّاد، وأجيال العلماء والأدباء والمتعلمين في سورية والبلاد العربية؛ على أن شخصية أستاذنا الدكتور الفحّام، شخصية فريدة نادرة المثال؛ فليس مصدر هذا الإجماع قيمة ما أضافه إلى الحياة الأدبية من روائع البحوث والدراسات والتراجم؛ وفي مقدمتها ما كتب عن الفرزدق وبشار والشعر الأندلسي، كاشفًا عن منهج رائد في نقد الشعر وتحليله، متميزًا بعمق الفكر وقوة الحجة، وروعة الأسلوب ودقة التعبير... ليس كل ذلك فحسب مصدر الإجماع على تفرد فقيدنا الجليل؛ وإنما مصدره في تقديري أن شخصية الدكتور الفحّام كانت متعددة الجوانب والمواهب والقدرات... فهو العالم الأكاديمي الذي تَلْمَذَ له جُلُّ أساتذة العربية في جامعة دمشق الغراء وغيرها من الجامعات السورية والعربية... وهو السياسي المثقف الذي لونت توجهاته الثقافية عمله السياسي ومواقفه سفيرًا دبلوماسيًّا ونائبًا برلمانيًّا ووزيرًا حكوميًّا... وهو المجمعي الأصيل الذي جمع إلى رئاسة مجمع اللغة العربية بدمشق عضوية فاعلة بالمجامع اللغوية والعلمية في مصر والعراق والهند والأردن والمغرب... وهو الموسوعي الدؤوب

الذي أسهم في تأسيس عدد من الموسوعات العربية والإسلامية وترسيم حدودها وبيان طرائقها. وليس من شك في أن كل جانب من هذه الجوانب كفيل، إذا توفر على مثل هذا المستوى الرفيع الذي تحقّق في فقيدنا الكريم – أن يضمن لصاحبه بلوغ أعلى مراتب الامتياز والخلود والعظمة.

ولقد كان الأستاذ الدكتور شاكر الفحّام واحدًا من الركائز الرئيسة التي عوَّلت عليها مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين منذ نشأتها سنة تسع وثمانين وتسعمئة وألف؛ في أَجَلَّ أعمالها وأخطرها. فكان رحمه الله عماد لجان تحكيم جوائز المؤسسة في غير دورة من دوراتها؛ كما كان أحد أبرز مستشاري معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين؛ وهو مشروع المؤسسة الأضخم الذي استغرق العمل فيه قرابة عشر سنوات، ويصدر بإذن الله مع نهاية هذا العام، متضمنًا تراجم ما يقرب من عشرة آلاف شاعر ونماذج من نصوصهم.

أيها الحضور الكريم

إن في ذلك كله وغيره كثير ما يؤكِّد أن من حق الدكتور شاكر الفحّام على الأمة العربية أن تكرِّم ذكراه وأن تنشر سيرته وسجل عطائه في كل الميادين، حتى تقف الأجيال على صور ذلك العطاء، وتعرف لهذا الرجل العظيم فضله ومآثره على الأدب العربي ولغته وعلى الثقافة العربية المعاصرة.

وها نحن أيها الأعزاء في حمى دمشق المجيدة، وفي رحاب مكتبة الأسد العظيمة وفي معقل العروبة الحصين؛ نهتف باسم راحلنا الخالد على أرض سورية الأبيَّة التي طالما أنجبت العمالقة والأفذاذ وأنبتت القادة والعظماء.

رحم الله أستاذنا شاكر الفحام رحمة واسعة وطيَّبَ ثراه بقدر ما قدَّم للأمة من مجد يبقى ما بقي الزمان، ووقى الله سورية والعروبة والإسلام إلى يوم الدين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

العماد أول مصطفى طلاس

إليك محبتي وتقديري أيها الغالي على القلب:
الأستاذ الدكتور شاكر الفحّام
العظماء . . . خالدون

يقول الجنرال دوغلاس ماك آرثر: إن الجنود القدامى لا يموتون ولكنهم يختفون.. وفي الإطار ذاته.. يرى الفيلسوف برتراند رسل: أن الموت هو الذي يفصل بين العظماء.. والناس العاديين. وعندما علمت برحيل أستاذي الكبير تذكرت قول المتنبي:

طوى الجزيرة حتى جاءني نبأ فزعت به بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

والآن:

ما أصعب فراق الأحبة، وبخاصة إذا كانوا من أصحاب الفضل عليك وعلى جيلك، وما أقسى المصاب الأليم بفقدهم. ولكن العزاء الجميل في أن العظماء لا يرحلون إلا بأجسادهم، أما ما خلَّفوه وراءهم فهو باقٍ بما غرسوه في نفوس معاصريهم من قيم العلم والخير والنضال.

فالعلاّمة الدكتور شاكر الفحّام أحد أساتذة جيلنا في الأدب والسياسة، وقد تلمذت على يديه في باكورة أيامي وعرفت فيه المعلّم العصامي الذي يمثّل البعثي العربي الأصيل في التمسك بقيم العلم والخير والنضال، أخلاقًا وسلوكًا..

عرفته مكتملاً قد أعدّ نفسه الإعداد اللائق لحمل المهمة السامية، فأطلّ بعقله الوقاد على مشرق المعرفة راغبًا في الأخذ منها حتى الاكتناز، مستندًا إلى معطياته الطبيعية، مفيدًا مما يكتسبه، يحدوه إلى ذلك نهم شديد يشعر معه بالحاجة الملحاح إلى اغتنام مختلف السوانح التي تساعده على أن يتبسط ويتعمق، وكثيرًا ما رأيته في حواري معه، يشغف بالمجهول فيتحرش به حتى يدرك كنهه وتطيب له معاشرة الأعماق، فيشجها ويذهب معها إلى ما يبلغه أغراض المعرفة الرصينة، وبقدر ما يزيد إقباله على الخوض في شتى الموضوعات الأدبية واللغوية والسياسية، يزداد علمه شحذًا، ووعيه استنارة، حتى يتثبت في معلوماته وتترسخ فيه الثقة بالأشياء التي يكبّ عليها، دون أن يأخذه في نهجه غرور، ودون أن يصيبه العناء، حسبه من وجوده أنه مدعو إلى التفكير والعمل، فيفكر ويعمل..

هكذا عرفته وتوثقت علاقتي به يومًا بعد يوم، حتى فجعنا جميعًا بفقده.. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

من البداية ترك في نفسي قدرًا كبيرًا من المحبة والتقدير، وأنا مدين له بالكثير من التشجيع في متابعة الأدب، كما أنا مدين له بالالتزام الواعي بقضايا الوطن والأمة. وقد ساعدتني الظروف على أن أردَّ له بعض الجميل.. وكان ذلك بعد ثورة الثامن من آذار ١٩٦٣.. فقد هاتفني الرفيق حمد عبيد قائلاً: إن رفاقك في المجلس الوطني لقيادة الثورة قد خصّوك بحقيبة وزارية وأنت مطلق الصلاحية في اختيار من تشاء لتسلم هذا المنصب.. وكان جوابي الفوري: أنني أرشح الدكتور شاكر الفحّام لهذه المهمة وأرى أن الوزارة التي تناسبه: هي وزارة التربية والتعليم.. وتمَّ ذلك.. أما عن معرفته الشمولية الموسوعية في اللغة والأدب والنقد، فلن أخوض في ذلك لأن كلّ الناس تعرف

جيدًا هذا الموضوع.. ولكنني أذكّر أبناء هذا الجيل بمواقفه النبيلة في الالتزام، حين كان النضال مكلفًا لأصحابه ويُعد تضحية نادرة ممن يقدم عليه، فهو من جيل الروّاد الذين عرفنا قيمه وتعلمنا منهم الالتزام بالمبادئ السامية في أحلك الظروف، وكلنا يذكر في تاريخ النضال موقف حزب البعث العربي الاشتراكي في عهد العقيد أديب الشيشكلي، حين فرض على الموظفين الالتزام بحركة التحرير التي تزعمها، وأراد من الجميع أن يمتثلوا لما يريد، ويومَها رفض بعض الرفاق هذا الالتزام بقرار سياسي من الحزب. وكان الدكتور شاكر الفحّام واحدًا منهم، وهذا أمر طبيعي ومقبول من كل رفيق حزبي، ولكنّ التميز الذي ظهر عند الدكتور شاكر الفحّام ترك بصمته الواضحة في نفوس الجميع، لأنه حين طلب منه أن يحدّد ما يحتاج إليه من تعويض مادي يعينه على الحياة بدلاً من راتبه الذي انقطع بسبب رفضه الانصياع، وظهر العجب العجاب!.. فقد حدَّد تعويضه بخمس عشرة ليرة سورية لا غير، وعندما نوقش بأنها لا تكفي، قال تكفي لمعايشتي الناس، ولا أحتاج لأكثر من ثمن فنجان قهوة ثمنه ربع ليرة سورية في قهوة الروضة بحمص، وربع ليرة زيادة كي أستضيف من يجالسني ويستمع إليّ، أما طعامي وحياتي، فأنا وأمي نتشارك في المؤونة. وهكذا كان الموقف متلازمًا مع السلوك النضالي الذي لا ربح فيه. أليس هذا تفردًا وتميّزًا يذكر من الفضائل التي يفخر بها كل رفيق حزبي، عرف كيف يكون الالتزام الواعي بالمبادئ والمثل، فله التحية الوفية بعد فقده الأليم، مني ومن سائر الرفاق الذين يفخرون به وبسلوكه وعفته وعلمه. هذا على صعيد السياسة والعمل الحزبي، وتاريخه معروف منذ التأسيس الذي كان له شرف المشاركة فيه.

أما على الصعيد الشخصي فكان المرجع الأدبي لي ولأمثالي من طلابه الذين يلجؤون إليه كي يُغنوا ثقافتهم، ويُصححوا مسارهم، وأذكر له تشجيعه لي في باكورة أيامي حين نظمت بيتين من الشعر قلت فيهما ما قلت في وصف فتاة جميلة حزنت على فراق والدها[١]:

قفـــي يـــا ليلـــى لا تبكـــي فمـــا أشـــجاك أشـــجاني

جرحـــت القلـــب لـــو تـــدري بـــسهمٍ مـــا لـــه ثـــانِ

وكالفراشة حملت البيتين على جناحين، وطرت بالفرح والاستبشار إلى مكتب حزب البعث العربي الاشتراكي في جورة الشياح حيث التقيت أستاذي شاكر الفحّام، فبادرته قائلاً: وأخيرًا دخلنا الهيكل وأكلنا من الذبيحة؟!

وقال: ما الخبر؟

ودفعت إليه البيتين اليتيمين وأنا أزهو! وقلت خذ وانظر.. هذا من فضل ربي، وتأملهما وهو يقول: جميل جدًا، ولكن أين البقية؟ ولفوري قلت له، البقية تأتي[٢].

وظلَّ القدوة مرجعي في الأدب والشعر والسياسة حتى عرفت الطريق الصحيح.. وها أنا أقف بالتقدير والاحترام أمام ذكرياتي الحميمة معه لأقول، رحمك الله يا أستاذي، ونفعنا بعلمك الذي تركته لنا لنعود إليه حين نريد أن نتعمق الأشياء، هكذا يكون العظماء إنهم لا يرحلون بل تبقى ذكراهم حيَّة في نفوس المحبين المخلصين... ورحم الله الجواهري حين قال:

ومزيّـةُ «العظمـاءِ» أن حيـاتَهم خِـصْبٌ وأن ممـاتَهم إثمـارُ

(١) هي ليلى بنت مظهر رسلان من حمص العذبة.

(٢) لا بدَّ من الاعتراف أن ملكة الشعر لم تأتني إلا عندما بلغت الأربعين من العمر.

كلمة الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي
وزير سابق في الجزائر

في الذكرى الأربعين لوفاة الأستاذ الدكتور شاكر الفحام.

أيتها الأخوات، أيها الإخوة.

بقلب مفعم بالحزن والأسى والألم تلقينا نبأ وفاة العالم الجليل والصديق العزيز الأستاذ الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية في سورية الشقيقة الذي فَقَدَتْه سورية والأمةُ العربيةُ جمعاء.

عرفتُ الفقيدَ العزيزَ عام ١٩٦٥م حينما كان سفيرًا لسورية بالجزائر، وكنتُ آنذاك وزيرًا للتربية الوطنية، كان سعيدًا جدًا باستقلال الجزائر وبوجوده فيها، عاصرَ خُطُواتِها الأولى وعاش المشاكل التي واكَبَتْ بداياتِ الاستقلال، وكان متحمسًا للمساهمة في معركة البناء للجزائر الحبيبة وخاصةً في ميدان التربية والتعليم، لكونه واحدًا من أئمة رجالاتها المختصين في هذا المجال، وقد عاصر التصحيح الذي عرفته الجزائر يوم ١٩ حزيران عام ١٩٦٥م.

وهو الوحيدُ من السفراء العربِ، الذي اخترق الحصار المفروض على الوالد المرحوم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من طرف السلطات التي سَبَقتْ تولي الرئيس هواري بو مَدين زمامَ الحكم فذهب إليه وقابله بمنزله أواخرَ عام ١٩٦٤م. وقد كان يُكِنُّ له – كما ذكر – كلَّ محبة وإعجاب وتقدير لما قرأه له وما سمعه عنه وعن علمه ونضاله باعتباره أحد قادة الحركة الوطنية

والإصلاحية والعلمية بالجزائر، وتبادل معه الحديث في مختلف المواضيع السياسية والعلمية والأدبية، وحدَّثه الشيخ عن ذكرياته أيام إقامته بدمشق إبَّان الحرب العالمية الأولى وما تلاها من أحداث، وقد أعرب الدكتور شاكر عن فرحه وسعادته بهذا اللقاء الذي تطلع إليه كثيرًا، وكذلك الوالد فقد سُرَّ بهذا اللقاء وهو على فراش المرض.

كان الفقيد خلال إقامته بالجزائر يعمل جاهدًا لإنجاح سياسة التعريب التي سنَّها الرئيس هواري بو مدين، رحمه الله، فحرص على استقدام خِيرة المعلمين والأساتذة من سورية لتدعيم مسيرة التعريب فيها، وخاصةً في التعليم العالي، حيث أن الجامعات الجزائرية كانت بحاجةٍ ماسةٍ لأساتذةٍ أكفياء لتكوين الإطارات التي ستحمل المِشعل وتبني الجزائر الجديدة، وقد قدم إلى الجزائر في عهده عدَدٌ كبيرٌ من خيرة الأساتذة الجامعيين المختصين في مختلف فروع العلم والمعرفة للتدريس في جامعة الجزائر، أذكر منهم على سبيل المثال الأساتذة الدكاترة: إحسان النص، شكري فيصل، بديع الكسم، أسعد الدرقاوي، وحيدر سوار، هشام الصفدي، محمود الربداوي، وليلى الصباغ.

وكان هؤلاء الأشقاء الأساتذة العرب سعداء في عملهم.

وكان المرحوم السفير الدكتور شاكر بصفته أستاذًا جامعيًّا ومربيًّا كبيرًا يشرف بنفسه على هذه البعثات التعليمية ويتابع أعمالها ونشاطاتِها ويَمُدّها بآرائه وملاحظاته ويذلل ما يعترضُها من عراقيل بيروقراطية.

كانت الحياة الاجتماعية بالجزائر في سنوات استقلالها الأولى تتسم ببعض الصعوبات وخاصةً بالنسبة للقادمين إليها من البلدان العربية، فكان يواجه

هذه الصعوبات برحابة صدرٍ وقلبٍ كبير محب للجزائر وأهلها وثورتها ونضالها، وكان يرد على بعض أعضاء البعثة التعليمية بأنهم جاؤوا لتأدية رسالةٍ مقدسةٍ تتمثل في الإسهام في التعريب وتكوين الأجيال.

وكان الفقيد يتحاور مع الناس فيدخل إلى قلوبهم بلطفه ودماثته وتواضعه وكرم أخلاقه وفهمه العميق لأغوار الطبع الجزائريّ الحاد النابع من قساوة الاستعمار الذي رزحت تحته الجزائر وشعبها طوال قرنٍ وثلث القرن في استعمار استيطاني بغيضٍ ليس له مثيل.

ولما عاد الدكتور شاكر إلى سورية بعد انتهاء مهمته بالجزائر وعُيِّن رئيسًا للجامعة ثم وزيرًا للتعليم العالي، بقي على العهد به يواصل تدعيم التربية والتعليم والتكوين بالجزائر وإعطاء المنح للطلبة الجزائريين ليدرسوا في الجامعات السورية.

كان الفقيد العزيز من أبرز علماء سورية، يوظف علمه ومعرفته وتجربته في النضال لبناء الإنسان العالم العامل ليكون عضوًا فعالاً في المجتمع.

عندما توليتُ المسؤوليات الوزارية المختلفة لأكثر من عشرين عامًا كنا نلتقي حين أزور دمشق، إما في مكتبه بوزارة التعليم العالي أو في منزله حيث توطدت العلاقة بيننا وبين أسرتينا، وبعد ذلك كنت أزوره في مكتبه برئاسة مجمع اللغة العربية، وكان موضوع حديثنا دائمًا هموم الأمة العربية والإسلامية، ومحاولة إحياء التراث العربي وتعزيز العلاقات الجزائرية السورية.

وكنت في كل مرة ألتقي فيها بالرئيس المغفور له حافظ الأسد أحدِّث الدكتور شاكر عن بعض ما تمَّ في هذا اللقاء، وعن الاهتمام الكبير الذي يوليه

الرئيس الأسد للجزائر وحرصه على الاطلاع على أحوالها ومسيرتها في كل المجالات، وتحمّسِه لتقدمها وازدهارها، وقد كانت تربطه بالرئيس المرحوم هواري بو مدين علاقةٌ وثيقةٌ ومحبة وإعجاب متبادل حيث كانت آراؤهما ووجهات نظريهما بالنسبة للقضايا العربية والعالمية متقاربة ومنسجمة.

وقد التقيت بالدكتور شاكر رحمه الله بالعديد من المنتديات العلمية والأدبية والفكرية في بعض البلدان العربية والإسلامية، فكان عضوًا فعالاً في العديد من المجامع والأكاديميات العلمية في العالم العربي وأمريكا وألمانيا وكنا نلتقي كل عام.

كان الفقيد الكبير يتمتع بذكاء خارق وسرعة بديهة وعاطفة جياشة، وكان دائمًا بشوش الوجه منشرح الصدر يميل للدعابة البريئة ويتذوق النكتة.

رحم الله الفقيد العزيز والأخ الصديق الدكتور شاكر الفحام رحمةً واسعة وجزاه خير الجزاء على ما قدَّم من أعمال صالحةٍ وما ألَّف من آثار خالدة تُبقي ذكره على مر الزمان.

وأصدق التعازي مني ومن أسرتي للسيدة الفاضلة مديحة قرينة الفقيد ورفيقته في مسيرة حياته الحافلة بجلائل الأعمال، ولكل أبنائه وبناته وأصدقائه ومحبيه.

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

الدكتور محمد حسَّان الطيَّان

كلمة طلاب الفقيد

يا دهرُ بعْ رتبَ العلا من بعدِهِ بيعَ السماحِ ربحتَ أم لم تربحِ
قدِّم وأخِّر من أردتَ من الورى مات الذي قد كنتَ منه تستحي

رحم الله أستاذنا الفحام وأسبغ عليه سحائب مغفرته وشآبيب رضوانه، ولئن فقدت فيه الأمة الوزير والسفير ، والرئيس والمدير، والأمين والخبير..لقد فقدنا نحن طلابه فيه المعلم الإنسان، والمربي الشفوق، والمحقِّق العليم، والمدقِّق البصير. فكم بث فينا من أمل! وكم أذكى في نفوسنا من روح! وكم بعث في جنباتنا من رجاء!. ولعل خير عزاء لنا في فقده قول الشاعر:

لقد عزى ربيعة أن يوما عليها مثل يومك لايعود

عرفت الأستاذ الدكتور شاكر منذ أكثر من ثلاثين عامًا عندما كنت على مقاعد الدرس في قسم اللغة العربية, وإن أنسَ لا أنسَ إطلالته المحببة أستاذًا للأدب الأندلسي في المحاضرة الأولى من يوم الثلاثاء, لا يصرفه عنها صارف, ولا يصدِفُهُ عنها ما كان يتقلّده من أعباء الوزارة, ولا ما يشغله من المهامِّ الجسام. ولعلّ أجمل ما في محاضرته – وكلّها رائع مفيد – تلك الفوائد التي كان ينثرها في تضاعيفها, ويتبدّى فيها جانبٌ من جوانب علمه الغزير, وحرصه على إفادة طلابه.

وفي رحاب الدراسات العليا تعرفت بجانبٍ آخرَ من جوانب علم أستاذنا، من خلال تدريسه مادةَ الدراسات الأدبيةِ لطلبةِ دبلوم الدراسات اللغوية, وفيه عرفنا كيف تمتزج اللغة بالأدب, حيث كنا على موعد مع دراسته المتميزة للفرزدق, شاعرِ العربية الفحل.

ثم سنّى لي الله أن أنعم بصحبة أستاذنا الجليل في رحلة علمية طويلة؛ وذلك حين أحسن بي بإشرافه على رسالَتَي الماجستير والدكتوراه – وهو الذي أشرف على مئات الرسائل الجامعية – فتكشَّفت لي جوانب من علمه وفضله وخلقه عَزَّت نظائرها, لقد وجدت فيه المشرف العالم, والمعلم الحاذق، والمربي النصوح, والأديب المرهف, والمتتبع الخبير, والقارئ المدقق, إلى أمانة نادرة, وقلب واعٍ, وحافظة حاضرة (وخير الفقه ما حوضر به). لا يألو جهدًا في تعليم طالبه, والأخذ بيده وتشجيعه, وتقويم خطئه بأرق ما أوتي المعلمون من أساليب التقويم, لا يمسُّ كرامة, ولا يجرح شعورًا, بل هو يرقى بتلميذه أعلى معارج السمو الإنساني. أستمع إليه وقد كتب لي بعد قراءته الفصل الأول من رسالتي للدكتوراه, ووضع الملاحظات المختلفة عليها: «الأخ حسان هذه ملاحظات أرجو أن تناقشها ثم تذاكرَني بها, إنها ليست قاطعة, ولكنها مناسبة للتفكير للوصول إلى الأحسن حتى يخرج التحقيق بأحسن وجه ممكن إن شاء الله, وأرجو الإسراع فما قدّمته قليل قليل, فمتى تبلغُ الغايةَ إذا مضيت على هذه المسيرة؟!» أيُّ رقة هذه وأيُّ مربٍّ عظيم وراءها؟!.

على أن عناية الأستاذ بنا معشر طلابه لم تقتصر على إشرافه على رسائلنا الجامعية, وإنما تعدتها إلى كل بحث نقوم به, فهو مفزعنا, وصاحب معضلاتنا, وموضِحُ مشكلاتنا, نقصده فما نجد عنده إلا الحفاوة والتشجيع, ولا غرو فهو حفيٌّ بطلابه, كريم بعطائه, لا يضنُّ عليهم باستشارة, ولا يبخل بمراجعة أو تدقيق أو تقديم. صحبته بضعًا وثلاثين سنة ما أذكر أني رجوته النظرَ في مقال أو مراجعةَ كتاب أو التقديمَ لتحقيق أو بحث إلا كان نعم المجيب.

ولا أعرف أحدًا من أصحابنا قصده للإشراف على بحث, أو النهوض بدراسة,

أو مراجعة تحقيق, أو حتى الحصول على مخطوط, أو كتابة مقدمة لمؤلَّف إلا مدَّ له يد العون والعناية, والتشجيع والرعاية, وما أكثر ما أخذ بيد الناشئين في رحاب العربية من طلابها ومحبيها ودارسيها, يشجعهم ويغذوهم بلِبان العلم, ويشدّ من أزرهم, ويذْكي فيهم روح المتابعة والتحصيل, يقرِّب إليهم البعيد, ويدني منهم النائي, يشرف على بحوثهم, ويقوِّم منآدها وينفي عنها ما أصابها من الخطأ والخطل, وكثيرًا ما يتوِّج ذلك كلَّه بكتابة مقدماتٍ لها ولسان حاله ومقاله يردد:

إنَّ الهـــلال إذا رأيـــتَ نمـــوَّهُ أيقنْتَ أنْ سيكونُ بدرًا كاملا

ولو أن ما كتبه من مقدمات جُمع في صعيد واحد لكان لنا منه كتاب عنوانُهُ: تشجيع الباحثين وشحذ الهمم. بل إن عنوانه بكلمة واحدة: بناء الرجال

يبني الرجالَ وغيرُهُ يبني القرى شتّـــان بـــين مـــزارعٍ ورجـــالِ

ولعلَّ من أبرز مظاهر عناية الأستاذ بطلابه تلك المناقشات التي كان يشارك فيها, فقد تحوّلت به وبأمثاله من كبار الأساتيذ إلى أنديةٍ علميّةٍ يسمع فيها الطالب كل مفيدٍ وطريفٍ. مازلت أذكر كيف كان يفسح المجال للأساتذة المناقشين يتقدمونه بالقول حتى إذا ما فرغت جَعَباتُهم شرع يقول: «لم يترك لي الزملاء بقيّة...» وراح يتحفنا بأفانين من القول ودقائق من التحقيق وطرائفِ الأمثال والشواهد تنسي كلَّ ما تقدّم.

إذا قلتُ شارفنا أواخر علمه تدفّق حتى قلت هذي أوائله

أحبَّ أستاذنا الفحام – برّد الله مضجعه – العربية وأصفاها زهرة عمره, ومنحها كلَّ وقته, ووهبها كل طاقته وجهده, فهو المتبتِّل في محرابها أبدًا, والقائم بشؤونها أنّى كان أو حلَّ وارتحل, لا تكاد تراه إلا كاتبًا لمقال عنها, أو مشاركًا في

ندوة لها, أو مؤلِّفًا لكتاب فيها, أو مراجعًا لنتاج يتعلق بها, أو مترئسًا للجنة تعمل في سبيلها.

وهو عالم أسس بنيانه على قاعدة صُلبة من قراءة التراث العربي الإسلامي القراءَةَ المستوعبة, فهو عنده كلٌّ متكامل لا يغني فيه فنٌّ عن فنّ, ولا يُترك كتاب لكتاب, نَهلَ ما نَهل وعلَّ ما علَّ من علوم اللغة العربية وآدابها, وتاريخ الرجال وسيرهم, وعلوم القرآن والحديث وغريبهما, فاستوى له من ذلك كلِّهِ علمٌ أصيلٌ غزيرٌ موصولٌ بعلم الأوائل من أرباب اللغة وأعلامها.

فما شئت من بصرٍ بالشعر وعلم بغرائبه, وإحاطةٍ بالتاريخ ووقوف على دقائقه, ومَكِنَةٍ من العربية تجاوزت حدَّ التخصص إلى حيِّزِ الإبداع والابتكار؛ فقد أمكنته اللغة من قيادها وألقت إليه بأسرارها.كل ذلك إلى خلق نبيل, وتعامل حلو جميل, وسياسة وحُنْكةٍ فاقتِ الوصف «إنَّ الكلامَ يَزينُ ربَّ المجلس» فهو كما قال الأول: «حَنيكٌ مَليٌّ بالأمورِ إذا عَرَتْ».

يــزدحمُ النــاسُ كــلَّ شــارقةٍ ببابِــــهِ مُــــشرِعينَ في أدبِــــهْ

ولأستاذنا الفحام نمطٌ فريدٌ آسرٌ في الكتابة كأنّما قُدَّ له, لا يكاد يَشْرَكُهُ فيه أحدٌ من الأدباء أو الكتَّاب.

في نظــامٍ مــن البلاغــة مــا شــ ــكَّ امــرؤٌ أنّــه نظــام فريــدُ

يروعُكَ فيه هذا النَّفَسُ الأدبي المتميز, والغنى المبهرُ بنفائسِ التراث شعرِهِ ونثرِهِ وأمثالِهِ, وفي أسلوبه من الإشراق, وجمال الديباجة, وإحكام النسج, وعذوبة البيان, وسلامة الطبع, ما لا يخفى على كلِّ قارئ متذوّق, شهد بذلك أساتذته ورصفاؤه قبل تلامذته ومريديه, وتُوِّج بنيله جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي لعام ١٩٨٩. وحسبي أن أدلل على ذلك بفقرة جاءت في ختام كلام طويل له من كتابه نظرات في ديوان بشار بن برد يقول فيها:«وأنا لا أزعم أن ما

جئت به هو الحقُّ الصُّراح, وإنما هو الرأيُ لاح لي فسجَّلتُه مقرونًا بحجّته, لا أملِك أن أقطع فيه بيقين. فإنْ قُسم لي أن أُصيبَ فبحمد الله وعونه, وإن تكن الأخرى فليشفعْ لي أني ما ابتغيتُ فيما أتيتُ إلا وجه الحقِّ وحده, أدور معه حيث يدور, لا يميل بي هوًى, ولا تستفزُّني شهوةُ المغالبة, ولا يعطِفُني إلْفٌ, ولا أنزِع إلى عصبية. وليعلّمْني أساتذتي السادةُ العلماء, ولْيفيضوا عليَّ من أنوار معارفهم. وإنما العلم بالتعلّم, جعلني الله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه». أيُّ بيان هذا وأيُّ خلق نبيل وراءه؟!.

وقد تخرجتْ بأستاذنا الفحام أجيال وأجيال، وانتفعت بعلمه وفضله أفواج وأفواج، وتابعت التحصيل العالي على يديه نخب من الطلبة أصبحت اليوم ملء السمع والبصر في دنيا العربية من أمثال الدالي والبدوي النجار وأبو زيد والنبهان ومير علم وطليمات وأبو عمشة وعبد الله وغزال...وغيرهم وغيرهم كثير.

وما أنا إلا واحد من أجيال مرت عليها يد الدكتور شاكر فكانت كالديمة الهتون أينما هطلت أينعت وأثمرت، واهتزت لها الأرض وربت.

وقد كانت له يد عليَّ لا أنساها ما حييت، أحسن بها عليّ حين منعني الناس، وأنصفني حين ظلمني الناس، وحباني وقربني حين هجرني الناس!. وكان ذلك إبّان منقلبي كسيرًا حسيرًا من جامعة السوربون بفرنسة عام ١٩٨٦، إثر مقابلة لئيمة جافية مع من لا يرقب فينا إلاً ولا ذمة. فتلقفني أستاذنا الفحام – برّد الله مضجعه ونفّس عنه كربه – بعناية الأب الشفوق، ومودة المعلم الرفيق، وإصرار المربي النصوح، لأجد في كنفه كل الرعاية والحدب، وليشرف على الأطروحة التي نلت بها درجة الدكتوراه، تلك الأطروحة التي صنعتها على عينه، فحظيت منه بالاهتمام والتقدير، والمتابعة والتقويم، على كثرة مشاغله، وعظم

المهام الملقاة على عاتقه، ووفرة الورّاد الذين يردون حوضه ، فلا يجدون إلا أرحب صدر، وأوسع علم ، وأعظم معلم.

ولهذا تراني أردد فيه دائما بيت المتنبي الخالد:

وَقَيَّـدتُ نَفـسي في ذَراكَ مَحَبَّـةً وَمَن وَجَدَ الإِحسانَ قَيدًا تَقَيَّدا

وبعد فما زال أستاذي الدكتور الربداوي يوصيني بالإيجاز والاختصار حتى قلت:

هل يعتصرالبحر بقطرة؟! أو يختصر الجبل بصخرة؟! أو يجتزأ الروض بزهرة؟!

كل هذا لا يكون ! فأستاذنا الفحام أجلُّ من أن يحيط بفضله وعلمه ونبله وعطائه كلمات تُكتب أو عبارات تنمَّق. إنه كالعربية التي عاش لها .. ورفع رايتها.. ومات دونها، أحببناه حبنا للعربية، وبكيناه بكاءنا على حالها، وسيظل خالدًا في ضمائرنا وقلوبنا ما دام فينا قلب يخفق بحب العربية وأربابها.

ولا يسعني قبل أن أغادر مقامي هذا إلا أن أناشد كل محب لأستاذنا الفحام أن يشارك في كتاب للوفاء يصنَّف من أجله ومن أجل ما نذر له عمره.

أما أنت يا أستاذنا الجليل فرحمك المولى بقدر ما أسديت للغة من عطاء، وبقدر ما بنيت لهذه اللغة الشريفة من رجال، وبقدر ما أعليت لهذه اللغة من رايات وحصون.

وجعل ذلك كله زلفى لك عنده يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتهِ

كلمة السيدة مديحة العنبري
قرينة الفقيد

سيادةَ وزير التعليم العالي الدكتور غياث بركات
السادةُ أعضاء القيادتين القومية والقطرية
السادة الوزراء
السادة السفراء
السادة رؤساء الجامعات
السيد نائب رئيس مجمع اللغة العربية

أيها الحفل الكريم

إنه من تمام الواجب أن أبدأ فأقدِّم أصدق الشكر وأخلصه وأتمه باسمي واسم جميع أفراد أسرتنا إلى سيادة رئيس الجمهورية الدكتور بشار الأسد، وإلى سيادة عقيلة رئيس الجمهورية السيدة أسماء الأسد على الدعم والمساندة التي أسدوها إلينا في مصابنا الجلل. وكذلك إلى سيادة نائب رئيس الجمهورية الدكتور فاروق الشرع، وسيادة نائب رئيس الجمهورية الدكتورة نجاح العطار.

وإلى سيادة رئيس مجلس الوزراء والسادة الوزراء وكبار المسؤولين في الدولة، وأخص بالشكر الدكتور غسان اللحام وزير رئاسة الجمهورية والدكتور رياض نعسان آغا وزير الثقافة والدكتورة بثينة شعبان مستشارة سيادة رئيس الجمهورية للشؤون السياسية والإعلامية، والدكتور بشر الصبان محافظ دمشق.

وأوجه الشكر الخالص إلى سيادة وزير التعليم العالي الدكتور غياث بركات على وقوفه إلى جانبنا في محنتنا، وكذلك فلسيادته ولجامعة دمشق ولكلية الآداب فيها كل الشكر على قرارهم بإطلاق اسم الدكتور شاكر الفحام على المدرج الأول في كلية الآداب.

وأشكر مكتبة الأسد ممثلةً بمديرها العام الدكتور علي العائدي. وأود أن أذكر هنا أن مكتبة الدكتور شاكر الفحام الخاصة قد قُدمت هديةً إلى مكتبة الأسد ليضمها هذا الصرح الثقافي العظيم الذي طالما وقف فيه محاضرًا في مناسبات عديدة.

ولا يفوتني هنا أن أشكر جميع الأهل والأصدقاء في سورية والعالم العربي وفي أنحاء العالم أجمع على مشاعرهم الطيبة وجميل تعزيتهم لنا.

وأشكر جميع الحضور على تلطفهم بمشاركتنا اليوم في حفل التأبين هذا.

وأنهي بأن أقدم أجمل الشكر إلى كل من تفضل بالتحدث قبلي على كلماتهم الطيبة التي تسدي إلينا أجمل العزاء.

* * *

أيها الحفل الكريم

هل هوى حقًّا ذلك الطود الشامخ؟!

وهل أقف اليوم حقًّا في حفل تأبينك يا شاكر، وهل حقًّا أنك رحلت عن دنيانا وأنك لن تعود، وأننا لن نتابع بعد اليوم طريقنا معًا يدًا بيد وخطوة بخطوة.

ما عهدتك تغيبُ عني، وإنك لن تغيب، فإن غاب عني منك الجسد فإنك في قلبي وروحي وكل ذرةٍ في كياني، ويزداد وجودك فيَّ إن كان من زيادة، فإن افترق الجسدان فالروحان متحدتان.

لقد التقت روحانا واتحدتا يوم التقينا، يوم عرفتك فعرفت أنني أمام إنسانٍ كبير على تواضعه الجم، نسيجِ وَحْدِهِ في صدقه، في إيمانه، في أفكاره، في المثل العليا التي يجسدها وفي القيم الرفيعة التي يعيشها، وفي مشاعره وعواطفه الصادقة التي لا يخالطها الزيف.

مثلك لا يموت يا شاكر، وهل يموت الخير والعطاء من الدنيا؟

أتساءل كيف استطاع قلبك أن يتسع لكل هذا القدر من الحب؟

وكيف يسَّرَ الله لك أن تقوى على كل هذا الغنى وكل هذه الوفرة في العطاء على مدى العمر؛ كانت سعادتك في العطاء، وكانت لك قدرة خارقة على بذله بلا مَنٍّ ولا أذى.

* * *

هل أقف أمامكم اليوم لأرثيه أو أُؤبنه أو أصف مآثره؟ ومن يقوى أن يحيط بها؟

لم يكن في قلبه ونفسه وروحه إلا الإحسان والعطاء، لا أدري كيف منَّ الله فنزَّهه عن كل عرض الدنيا، لا أدري كيف باعد بينه وبين كل أخطاء وخطايا وشرور البشر، لم يحمل يومًا كرهًا ولا بغضًا ولا ضغينةً لإنسان، ولو كان قد لقي منه كلَّ الأذى، كان أرفعَ وأعلى من أن يقابل الإساءة بالإساءة.

كان رقيقًا كنسمة الربيع وقويًّا كأصلب الرجال، واضح الرأي والرؤية، يمتح من قلب صادق مؤمن ومن فكر ناضج متميز، إيمانه ثابت وفكره متجدد لم يجمد يومًا، ظامئٌ دومًا إلى المعرفة وإلى الاستزادة منها، يسعد بالتعرف بكل جديد جيد مستحدث.

* * *

كان مؤمنًا بالوطن العربي وبالأمة العربية والإسلامية، وبتاريخ هذه الأمة وتراثها المجيد، مقتنعًا بضرورة الإخلاص في العمل وحتمية النضال لاستعادة مجدها ورفعتها ومكانتها، وكان إيمانه الثابت بإمكان ذلك يجعله دائمًا متفائلاً بمستقبل الأمة، حريصًا على بذل الجهود لخدمتها والذود عن حياضها، وبذل الغالي بله الرخيص في سبيلها.

* * *

كان يرى في العلم وتحديثه وتطوير أساليب الدراسة وبناء ركيزة ثابتة للبحث العلمي، السبيلَ الأكيد لبناء الأجيال المقبلة وللارتقاء بمستقبل الأمة، وكان ديدنه حث الطلاب وتشجيعهم على المزيد من الجد والدراسة وتحصيل الدرجات العلمية.

* * *

أما اللغة العربية فهي لديه حاملةُ تراث الأمة وتاريخها وأمجادها، وهي كذلك هويةُ الأمة وكيانُها وشرفُها، كان إيمانه بها مطلقًا لا ترقى إليه شائبة.

* * *

قضى عمره كله في خدمة الشأن العام بإخلاص وتفانٍ وشعورٍ عالٍ بالواجب، وبإنكار تام للذات، لم يسعَ يومًا إلى منصبٍ على عظم المناصب الحكومية والعلمية التي تسنَّمها والجوائز والدرجات التكريمية التي مُنحها، ولم يكن يرى يومًا في أيٍّ منها مغنمًا يفيد منه، وإنما كانت مسؤوليةً وواجبًا يمكنّه من أداء خدمة الوطن.

* * *

أَيْ شاكر

لقد تحدث الأصدقاء والناس عنك الكثير، تحدثوا عما عرفوا فيك وعنك، وقد رأوا وخبروا من عملك وصحبتك وإنجازاتك وأخلاقك الكثير، ولكنني أعرف الأكثر:

لقد كنت ذاك الذي مرَّ في هذه الدنيا كسحابة خير عميم، فلم تقوَ على تدنيسه أو صرفه عن أن يظل مترفعًا متبتلاً في محراب الحق والواجب، منافحًا مناضلاً عن الفضائل كما كان الأنبياء.

وكأني بالمتنبي قد عناك يوم قال:

مضت الدهور وما أتينَ بمثله ولقد أتى فعجزن عن نظرائه

* * *

أتلفَّت حولي فلا أسمع عنك إلا الثناء وما كان ذاك ليكون إلا لأنك قد قدَّمت بصدقٍ وإخلاص وتفانٍ دون أن تطلب يومًا شيئًا لنفسك.

وإذا كان من مبغض أو حاسد لك فما ذاك لوفرة مالٍ جمعته، فإنك لم تفكر يومًا بجمع المال، ولا لجاهٍ حصلت عليه فذاك كان آخر ما تسعى إليه، ولكنه لنبل أخلاقك ورفعة مراميك التي يشق عليهم التحلي بها.

* * *

لم تمت يا شاكر، ولو قضت مشيئة الله أن تغادرنا إلى جواره فإنك في روحي وكياني، وفي قلب وخَلد كل واحد من أولادك رشا وبشار وديمة ومالك وسالم الذين أحببتهم فوق ما يمكن أن يكون الحب، وامتد حبك منهم إلى أولادهم وإلى جميع أفراد أسرهم.

كنت تقول إنه مع مولد كل طفلٍ جديد يتفجر في القلب حبٌ جديد كبير ويعود ليشملَ كل الأولاد قبله، ويعلمنا كيف نسعد بحبِ أطفالنا؛ أحببتهم أطفالاً ورعيتهم ودعمتهم يافعين وكبارًا، كنت دائمًا لهم المثل والقدوة والسند الراسخ الذي إليه يلجؤون وعنه يأخذون؛ وكَبر الأولاد والأحفاد وأنت لهم دائمًا المثل والدافع إلى مزيد من الإنجاز في حياتهم العلمية والعملية، وإلى الحفاظ على المثل والقيم التي غرستها فيهم؛ وكان لك منهم كلُّ ما تمنيت.

فأدخلوا من جديد إلى قلبك الرضا والسعادة والفخر بما أنجزوا وحققوا، مع تطلعك دائمًا منهم إلى المتابعة والمزيد.

* * *

لقد كان خير أب وخير زوج وخير صديق وخير من عرفت على وجه الدنيا.

قدَّم لي الحب الكبير الذي لا ينضب والذي ظل معينه يتجدد على الأيام حتى آخرها، وكان لي منه التقدير والاحترام وحسن الصحبة، والرقة والحدب والرقي في التعامل.

وكان له مني مثل الذي قدمه ويزيد، وقد كان أهلاً لذاك.

لم ينسَ مرة في عيد زواجنا أو عيد ميلادي على مر السنين أن يقدم لي مع ما يهديه إلي كلمةً هي أعز وأجمل وأروع عندي من أي شيء يهدى.

كانت رسائله إلي في الأوقات القليلة التي كان أحدنا يسافر فيها ويبتعد عن الآخر قطعًا أدبية عزَّ نظيرها، تحمل أرقى الأفكار والمشاعر تفيض بها نفسه.

كانت صحبتنا في السفر والحضر متعة أية متعة.

* * *

أفتقدك يا شاكر، أفتقد حبك الكبير، أفتقد صحبتك، أفتقد أحاديثنا الجميلة، ونقاشاتنا الطويلة في كل شأن من شؤون الوطن والأمة والعلم واللغة التي كانت كلُّها، وهمُّ الرفع من شأنها، همَّك الأكبر.

كيف جمعنا الله؟....

لقد فعل ذلك في ساعة رضًا منه ... غفل عنها الزمان.

* * *

فسقى ديارك غير مفسدها صوبُ الربيع وديمةٌ تهمي

* * *

رحمك الله يا شاكر الرحمة الواسعة، وأجزل ثوابك عنا وعن كل ما قدَّمت، وجعلك مع الأنبياء والصديقين وحسن أولئك رفيقًا.

التقرير السنوي عن أعمال
المجمع في دورة عام ٢٠٠٧م

أعدَّه بإشراف أمين المجمع
الأستاذ عدنان عبد ربه

فيما يلي عرض لأهم ما قام به مجلس المجمع ومكتبه ولجانه ومديرياته من أعمال:

أولاً أعمال مجلس المجمع:

– عقد مجلس المجمع في هذه الدورة سبعًا وعشرين جلسه، بحث فيها الأمور الآتية:

– انتخب المجلس في جلسته الرابعة المنعقدة بتاريخ ٢٠٠٧/٢/٧ تسعة أعضاء مراسلين من خارج القطر هم:

الدكتور داخل حسن جريو	العراق
الدكتور أحمد حسن حامد	فلسطين
الدكتور علي أحمد بابكر	السودان
الدكتور علي القاسمي	العراق
الدكتور صلاح الفرطوسي	العراق
الدكتور صالح بلعيد	الجزائر
الدكتور عبد السلام عسيلان	السعودية
الدكتور نبيل علي	مصر
الأستاذة أمل قوه شوه هوه	الصين

– كما انتخب خمسة أعضاء مراسلين من داخل القطر، هم:

الدكتور عبد الحليم منصور

الدكتور عماد الصابوني

الدكتور برهان العابد

الدكتور صادق فرعون

الدكتور أحمد الحاج سعيد

وأرجأ انتخاب عدد من السوريين إلى وقت لاحق.

– وافق المجلس في جلسته الرابعة أيضًا على تأليف لجنة من الأطباء المهتمين بالتعريب للنظر فيما توزعه شبكة منظمة الصحة لشرق المتوسط من المصطلحات الطبية وتقديم رأيها في مدى ما يجب أن يوليها من الاهتمام، وهم:

الدكتور مروان المحاسني نائب رئيس المجمع، الدكتور عدنان تكريتي، الدكتور برهان العابد ، الدكتور هاني رزق، الدكتور صادق فرعون.

وأضاف المجلس إليها الدكتور محمود السيد عضو المجمع للتدقيق اللغوي في عملها.

– وافق المجلس على إقامة ندوة في العلوم الطبيعية مساء الأربعاء ٢٠٠٧/٢/٢٨ في قاعة المحاضرات في المجمع موضوعها: «الإنسان والحيوان والنبات» يشارك فيها الدكتور أنور الخطيب والدكتور هاني رزق، والدكتور محيي الدين عيسى.

– وافق المجلس في جلسته الخامسة المنعقدة بتاريخ ٢٠٠٧/٢/٢١ على إيفاد الدكتور شاكر الفحام رئيس المجمع والدكتور مروان المحاسني إلى القاهرة لحضور اجتماع لجنة المعجم التاريخي ومجلس اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية، وإيفاد الدكتور إحسان النص عضو المجمع لحضور اجتماع لجنة المعجم التاريخي.

– وافق المجلس في جلسته الخامسة أيضًا على مشاركة الدكتور مروان المحاسني، نائب رئيس المجمع، والأستاذ شحادة الخوري والدكتور موفق دعبول، والدكتور نشأت حمارنة وثلاثة باحثين من معهد التراث في حلب في اللقاء السوري التونسي الذي دعا إليه بيت الحكمة في تونس وعنوانه «العلم عند العرب قديمًا وحاضرًا» بتاريخ ٢٠٠٧/٤/٢٣.

– ألف المجلس في جلسته السادسة المنعقدة بتاريخ ٢٠٠٧/٣/٧ لجنة من السادة الدكتور مروان المحاسني، نائب رئيس المجمع، والأستاذ جورج صدقني، والدكتور محمود السيد لبيان ما يمكن أن يشارك فيه المجمع ضمن احتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية لعام ٢٠٠٨ وقام السيد رئيس اللجنة بالاتصال بالدكتورة حنان قصاب حسن المسؤولة عن تنظيم هذه الاحتفالية والتنسيق معها في هذا الشأن. وقد قدمت اللجنة المقترحات الآتية (انظر الملحق ١).

– قام المجلس بالتحضير لزيارة السيدة أسماء الأسد عقيلة رئيس الجمهورية وسمو الشيخة موزة بنت ناصر المسند عقيلة أمير دولة قطر إلى المجمع في ٢٠٠٧/٣/٢٥.

وافق المجلس في جلسته العاشرة المنعقدة بتاريخ ٢٠٠٧/٥/٢ على موضوع المؤتمر (لغة الطفل والواقع المعاصر) ومحاوره وموعده في المدة من ٥–٧ تشرين الثاني ٢٠٠٧.

– رشح المجلس في جلسته الثانية عشرة المنعقدة بتاريخ ٢٠٠٧/٥/١٦ الدكتور هيثم الخياط والدكتور مازن المبارك عضوين في المجلس العلمي لاتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية.

كما قرر في الجلسة نفسها نشر أعمال أعضاء المجمع في العقد الأول من تأسيسه، وألف لجنة للنظر في هذه الأعمال من السادة: الدكتور عبد الله واثق شهيد، والدكتور زهير البابا، والدكتور مازن المبارك.

– ألف المجلس في جلسته الثالثة عشرة المنعقدة بتاريخ ٢٠٠٧/٥/٢٣ لجنة من السادة: الدكتور إحسان النص، والأستاذ جورج صدقني، والدكتور محمود السيد، مهمتها وضع مشروع منح جائزتين من المجمع الأولى باسم الأستاذ محمد كرد علي تخصص لخدمة اللغة العربية، والثانية باسم الأمير مصطفى الشهابي تخصص لوضع المصطلحات، وقامت اللجنة بوضع الشروط الآتية لمنح هاتين الجائزتين (انظر الملحق ٢).

– كلف المجلس في جلسته الرابعة عشرة المنعقدة بتاريخ ٢٠٠٧/٥/٣٠ عددًا من لجان المجمع، النظرَ في مشروعات المعجمات التي أنجزها مكتب تنسيق التعريب لمناقشتها في مؤتمر التعريب الحادي عشر الذي سيعقد في المجمع الأردني في المدة من ١٠/٢٨ إلى ٢٠٠٧/١١/١ وهي:

١– مشروع معجم مصطلحات تكنولوجيا المعلومات.

٢– مشروع معجم مصطلحات الهندسة المدنية.

٣– مشروع معجم مصطلحات النقل.

– مشروع معجم مصطلحات الطب (علم التشريح).

– أقرَّ المجلس التقرير السنوي لأعمال المجمع عن عام ٢٠٠٦ في جلسته السادسة عشرة المنعقدة بتاريخ ٢٠٠٧/٦/١٣.

– ناقش المجلس في بعض جلساته عددًا من المقترحات لتنشيط أعمال المجمع.

– زارت السيدة الدكتورة نجاح العطار، نائب رئيس الجمهورية والدكتور غياث بركات وزير التعليم العالي المجمع بتاريخ ٢٠٠٧/٧/٤ وتحدثا إلى السادة الأعضاء عن اهتمام السيد الرئيس بقضايا اللغة العربية وبحثت معهم عمل المجمع في الدفاع عن اللغة العربية والنهوض بها، وتعاونه مع وزارات الدولة

ومؤسساتها لنشر اللغة الفصيحة في المجتمع. وتحدثت عن اللجنة التي ألفها السيد رئيس الجمهورية للتمكين للغة العربية وحمايتها، ودعت إلى إنشاء مكتب إعلامي في المجمع.

– رشح المجلس في جلسته العشرين المنعقدة بتاريخ ٢٠٠٧/٩/١٢ الدكتور عبد الكريم اليافي لنيل جائزة الملك فيصل العالمية لعام ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م في موضوع «الدراسات التي تناولت الفكر العمراني البشري عند علماء المسلمين».

أقر المجلس في الجلسة نفسها معجم توحيد مصطلحات العلوم الفيزيائية الذي أنجزته لجنة مصطلحات العلوم الرياضية والمعلوماتية والفيزيائية والكيميائية.

– زار السيد وزير التعليم العالي المجمع بتاريخ ٢٠٠٧/١٠/٣ واجتمع بأعضائه وبحث معهم مشروع تعديل قانون المجمع وتطوير عمله، وطلب إلى السادة الأعضاء دراسة مشروع القانون الجديد، وتقديم ملاحظاتهم عليه. كما طلب ترشيح عدد من علماء القطر في علوم مختلفة لملء الشواغر المتبقية في صفوف أعضاء المجمع ضمن الاختصاصات التي يحتاجها المجمع في عمله.

– درس المجلس في جلساته الثانية والعشرين والثالثة والعشرين والرابعة والعشرين مشروع القانون الجديد للمجمع وأضاف إليه ما ينبغي إضافته بما يخدم مصلحة المجمع ويضمن تحقيق أهدافه ورفعه إلى السيد وزير التعليم العالي لاستكمال أسباب صدوره.

– رشح المجلس في جلسته الخامسة والعشرين المنعقدة بتاريخ ٢٠٠٧/١٠/١١ الدكتور موفق دعبول للمشاركة في المؤتمر الحادي عشر للتعريب المقرر عقده في الأردن في المدة من ١٠/٢٨– ٢٠٠٧/١١/١ وعنوانه «ثورة الاتصال والتكنولوجيا في خدمة نشر المصطلح العلمي العربي».

– رشح المجلس في جلسته الخامسة والعشرين أيضًا عددًا من الشخصيات العلمية ليكونوا أعضاء في المجمع، ورفعت الترشيحات إلى السيد وزير التعليم العالي لاستكمال أسباب تعيين من تختاره الرئاسة منهم.

– رشح المجلس في الجلسة نفسها الدكتور عبد الكريم اليافي لنيل جائزة كاتالونيا الدولة لعام ٢٠٠٨م.

– رشح المجلس في جلسته السابعة والعشرين المنعقدة بتاريخ ٢٠٠٧/١٢/١٢ الدكتورة لبانة مشوح والدكتورة لينه موفق دعبول لنيل جائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم للترجمة من العربية إلى الفرنسية في ميدان العلوم الإنسانية.

– جدد المجلس في الجلسة نفسها انتخاب الدكتور عبد الله واثق شهيد، أمينًا للمجمع لدورة رابعة بإجماع أعضائه.

ثانيًا – أعمال مكتب المجمع

عقد مكتب المجمع في هذه الدورة اثنتين وعشرين جلسة بحث فيها شؤون المجمع، ودار الكتب الظاهرية، وانتهى إلى جملة من القرارات أهمها:

– الموافقة على شراء حواسيب تفي بحاجة المجمع.

– الموافقة على منح تعويض مالي للخبراء المهندسين من مركز البحوث العلمية الذين قاموا بتقييم العروض الفنية لمشروع ترميم دار الكتب الظاهرية.

– اقتراح الموافقة على المشاركة في احتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٨.

– الموافقة على انتقال الأستاذ خير الله الشريف أمين مكتبة المجمع إلى مكتبة الأسد، وتعيين الأستاذ سعد الدين المصطفى أمينًا لمكتبة المجمع بدلاً عنه.

– اقتراح الموافقة على إجراءات استقبال السيدة أسماء الأسد عقيلة السيد رئيس الجمهورية، والشيخة موزة المسند عقيلة أمير قطر إلى المجمع.

– الموافقة على الاشتراك في موسوعة بريل في هولندا عبر التواصل الإلكتروني.

– الموافقة على الاشتراك في معرض الكتاب الثالث والعشرين الذي سيقام في مكتبة الأسد بداية شهر آب ٢٠٠٧.

– نقل المهندسة زهيرة حمزة من مركز الدراسات والبحوث العلمية إلى المجمع.

– ترشيح عدد من العاملين في المجمع لاتباع دورات مختلفة تزيد معارفهم وتخدم اختصاصاتهم: فرشح السيد ماهر رمضان لاتباع دورة على برنامج الحاسوب في المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا.

ورشح السيد مصطفى الخطيب لاتباع دورة متقدمة في اللغة الإنكليزية تجريها هيئة تخطيط الدولة.

كما رشح عشرة من العاملين في المجمع لاتباع دورة في المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا على برامج الحاسوب.

– تكليف الأستاذين سعد الدين المصطفى، ومحمود الحسن من الهيئة الفنية في المجمع دراسة أسئلة المواطنين عن الأسماء الأجنبية للمحلات، وعرضها على اللجنة المختصة.

– دراسة النظام الأساسي لاتحاد المجامع اللغوية العلمية ونظامه الداخلي الجديد، وقد رأى المكتب أن النظام القديم الذي صدر بالمرسوم التشريعي /٨٨/ بتاريخ ١٩٧١/١٠/٢ يفي بالغرض ولا حاجة لنظام أساسي جديد.

– الموافقة على تأليف لجان تنظيم شؤون المؤتمر السادس للمجمع الذي سيعقد في المدة من ٥–٢٠٠٧/١١/٧ بعنوان «لغة الطفل والواقع المعاصر».

– تكليف الدكتور مكي الحسني والأستاذة ناهدة تقي الدين متابعة شؤون الأعضاء المراسلين، ومراسلتهم.

– الموافقة على إهداء الجهات العامة الآتية أسماؤها مطبوعات المجمع ومجلته:

أ– المركز الثقافي السوري في اليمن

ب– وزارة المغتربين

ج– الهيئة العامة السورية للكتاب.

د– جامعة البعث في حمص.

– تعديل مكافأة المحققين بحسب قطع الكتاب وعدد كلمات الصفحة فيه.

ثالثًا – أعمال لجان المجمع

١– لجنة المجلة والمطبوعات: عقدت اللجنة في هذه الدورة تسع عشرة جلسة بحثت فيها أمور مجلة المجمع ومطبوعاته.

أ– أما ما يتعلق بالمجلة:

فأنجزت اللجنة طبع الأجزاء المتأخرة من المجلة، كما أصدرت الأجزاء المتعلقة بالمجلد الثاني والثمانين لعام ٢٠٠٧ في مواعيدها، ودفعت الجزء الأول من المجلد الثالث والثمانين إلى مطبعة دار البعث في الشهر الأخير من العام.

وقد اعتمدت اللجنة في هذا العام نموذجًا جديدًا للمجلة، صدرت وفقه الأجزاء الأربعة من المجلد الثاني والثمانين، وستصدر وفقه أيضًا الأجزاء اللاحقة.

ب– أما ما يتعلق بالمطبوعات فقد وافقت اللجنة على نشر المطبوعات التالية:

١– المجلد (٦٨) من تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، تحقيق: أ. سكينة الشهابي رحمها الله.

٢– كتاب «المقصور والممدود» لابن ولاد (ت ٣٣٢هـ)، تحقيق: د. إبراهيم محمد عبد الله.

٣– كتاب «البرق المتألق في محاسن جِلَّق» لابن الراعي (ت ١١٩٥هـ) تحقيق: أ. محمد أديب الجادر.

٤– معجم الكلمات المصطلحية في لسان العرب، تأليف د. ممدوح خسارة، وقد أرسل للطباعة بتاريخ ٢٠٠٧/٩/٧.

٥– بحوث ندوة اللغة العربية والتعليم، التي أقامها المجمع في عام ٢٠٠٠، وكان أرسل للطباعة بتاريخ ٢٠٠٧/١٠/١٠.

٦– ديوان ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ)، تحقيق: د. مختار الأحمدي نويوات، ود. نسيب نشاوي، وقد أرسل للطباعة بتاريخ ٢٠٠٧/١١/٢٦.

ج– عمل اللجنة:

بدأت اللجنة في هذا العام مراسلة العلماء والباحثين لتعريفهم بأغراض المجمع والمجلة، وتشجيعهم على إرسال إنتاجهم العلمي إلى المجمع. واعتمدت

اللجنة خطة تتمثل في مراسلة الباحثين باستمرار، لإخبارهم بوصول مقالاتهم، ونتيجة التقويم في أسرع وقت ممكن. وقد وصلت من الباحثين رسائل يشكرون فيها للمجمع حسن متابعة أعمالهم.

٢– لجنة المخطوطات وإحياء التراث

عقدت لجنة المخطوطات وإحياء التراث في هذه الدورة سبع عشرة جلسة اطلعت خلالها على الكتب التالية:

أ– كتاب (المقصور والممدود) تأليف أبي العباس أحمد بن محمد بن ولاد تحقيق الدكتور إبراهيم عبد الله، وقررت اللجنة الموافقة على طبعه.

ب– كتاب (الانتصاف لإرث الأمة اللغوي «كتاب العين» مع استدراك على مطبوعه تأليف الأستاذ صلاح مهدي الفرطوسي، واعتذرت اللجنة من عدم طبعه.

ج– كتاب (التنبيه على الغريبين) تأليف محمد بن ناصر السلامي تحقيق الدكتور وليد سراقبي واعتذرت اللجنة من عدم طبعه.

د– كتاب (معجم الكلمات المصطلحية في لسان العرب): تأليف الدكتور ممدوح خسارة، وقد قررت اللجنة الموافقة على طبعه.

هـ– كتاب (العروض) تأليف الحسن بن محمد الصغاني تحقيق الأستاذ عدنان الخطيب، وقررت اللجنة الاعتذار من عدم طبعه.

و– اختارت اللجنة السادة المحققين خير الله الشريف، ومأمون الصاغرجي، وأديب الجادر لتحقيق ثلاثة مجلدات من كتاب «تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر.

٣– لجنة اللغة العربية وأصول النحو:

أ– عقدت اللجنة في هذه الدورة أربع عشرة جلسة ناقشت فيها ما قدمه الأساتذة الدكاترة إحسان النص مقرر اللجنة، ومحمود السيد ومازن المبارك من «أخطاء شائعة»، وقد انتهت منها وستعرضها على مجلس المجمع ليقرها ويطبعها.

ب- الموافقة على الخطة العلمية لعام ٢٠٠٧م – ٢٠٠٨م التي تقضي بدراسة أساليب جديدة في اللغة العربية، والنظر فيما أقره مجمع القاهرة من قرارات علمية بهذا الشأن.

٤- لجنة المكتبة

عقدت اللجنة في عام ٢٠٠٧ سبع جلسات تركز البحث فيها على مجموعة أشياء أُنجزت وأخرى تدرس ولما تنجز وهي:

أ- العمل على استكمال تزويد المكتبة بمؤلفات السادة الأعضاء في المجمع.

ب- العمل على حفظ المخطوطات والكتب القيمّة وحمايتها من التلف والضياع.

ج- تجليد قسم كبير من كتب مكتبة المجمع تجليدًا فنيًا بغية المحافظة عليها على أن تستكمل هذه الأعمال بصورة متتابعة.

د-إصلاح الكهرباء في النفقين.

ـــ- الموافقة على اقتراح خطة المكتبة لعام ٢٠٠٧م - ٢٠٠٨م.

٥- لجنة النشاط الثقافي:

عقدت اللجنة في هذه الدورة ثلاثين جلسة بحثت فيها الأمور الآتية:

قررت اللجنة أن يكون عنوان المؤتمر السادس للمجمع:«لغة الطفل والواقع المعاصر» وأقرت محاوره، وسيعالج مراحل التعليم الأولى، وموعده في المدة ٥-٧ تشرين الثاني ٢٠٠٧م.

تمَّ الاتفاق على جمع لجنة تشاورية تنظر في مقترحات وتوصيات المؤتمر الخامس وتضع السبل العملية لتنفيذها (انظر محضر اللجنة في الملحق ٣).

– قررت اللجنة مخاطبة بعض الجهات ذات الصلة بموضوع المؤتمر لترشيح بعض الباحثين وهي: وزارة الثقافة ووزارة التربية والجامعات السورية، ومجامع اللغة العربية، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

– ناقشت اللجنة أسس الخطة العلمية المقترحة للجنة النشاط الثقافي فأكد السادة الأعضاء ضرورة إعادة النظر في مهام اللجنة وعدم قَصْر مهامها على المحاضرات والمؤتمرات بل توسيعها لتشمل كل ما يتعلق بالأمور الثقافية.

– قررت اللجنة رفع كتاب إلى السيد وزير التعليم العالي لإيفاد رؤساء أقسام اللغة العربية في الجامعات السورية، وعمداء كليات التربية ورؤساء قسم تربية الطفل فيها لحضور فعاليات المؤتمر على نفقة جامعاتهم.

– اختارت اللجنة الدكتور عبد اللطيف عبيد ممثلاً عن الباحثين العرب في المؤتمر السادس للمجمع.

– استعرضت اللجنة أسماء الأعضاء المراسلين المرشحين لعضوية المؤتمر السادس بموجب اللائحة الداخلية للمجمع فاختارت:

الدكتور عبد السلام المسدي، والدكتور عبد اللطيف عبيد، والدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، والدكتور عبد الإله نبهان، والدكتور أحمد مطلوب، والدكتور نبيل علي، والدكتور علي القاسمي، والدكتور عبد الكريم الأشتر، والدكتور محمود الربداوي، والدكتور علي أبو زيد، والأستاذ مروان البواب.

– ناقشت اللجنة مهام أعضاء المؤتمر فقررت إشراكهم برئاسة الجلسات وصوغ المقررات والتوصيات ، وإجراء المقابلات الإعلامية.

– قررت اللجنة أن يكون الأستاذ شحادة الخوري رئيس لجنة التقرير النهائي والتوصيات.

– قررت لجنة النشاط الثقافي الموافقة على إلقاء المحاضرة التي أعدّها الأستاذ الدكتور محمد عزيز شكري بعنوان: «الأمم المتحدة: تكون أو لا تكون» وذلك في الساعة السادسة من يوم الأربعاء ٢٠٠٨/١/٣٠م في قاعة المحاضرات في المجمع.

– ناقشت اللجنة النشاط الثقافي والمحاضرات التي ستلقى في العام ٢٠٠٨ فتوصلت إلى مايلي:

– **في الأدب العربي**: الدكتورة نجاح العطار والدكتور مازن المبارك، والدكتور إحسان النص، والدكتور عيسى العاكوب.

– **في التربية**: الدكتور محمود السيد، والدكتور عبد الله عبد الدايم.

– **في الحقوق**: الدكتور عزيز شكري، والدكتور إبراهيم دراجي.

– **في التاريخ**: الدكتورة ليلى الصباغ، والدكتور بهجة قبيسي، والدكتور عبد العزيز الدوري .

– **في الفلسفة**: الأستاذ جورج صدقني، والدكتور طيب تيزيني، والدكتور أحمد برقاوي.

– **في الثقافة العامة**: الدكتورمحمود السمرة

– **في العلوم**: الدكتور عبد الله واثق شهيد، والدكتور موفق دعبول، والدكتور إبراهيم حداد.

– **في الدراسات الإسلامية**: الدكتور محمد عبد الستار السيد، والدكتور محمد حبش والدكتور أحمد حسون.

٦– لجنة تنسيق المصطلحات وتوحيدها

عقدت اللجنة في هذه الدورة جلسة واحدة قامت فيها بالتنسيق بين بعض المقابلات العربية للمصطلحات المشتركة بين علوم الكيمياء والفيزياء

والنبات والحيوان مما أنجزته لجان العلوم الفرعية المتخصصة في مشروع توحيد المصطلحات بين الجامعات السورية.

٧– لجنة ألفاظ الحضارة

تابعت لجنة ألفاظ الحضارة عملها في تنفيذ مشروع معجم ألفاظ الحضارة المعاصرة فاجتمعت في هذه الدورة ثلاثة وأربعين اجتماعًا تم فيها ما يلي:

أ– تابعت اللجنة دراسة مجموعة ألفاظ الملابس التي بلغ عددها (٢٦٧) لفظة، ودراسة مجموعة ملحقة بأسماء ملابس عربية ما زالت تستعمل في بلادنا في العصر الحاضر، وبلغ عددها (٦٧) لفظة. وقد تمَّ تنضيد ألفاظ المجموعة الأولى بالعربية والإنكليزية والفرنسية، وتنضيد ألفاظ المجموعة الثانية بالعربية.

ب– قامت اللجنة بدراسة مجموعة ألفاظ المنزل وملحقاته وقد بلغ عددها (٣٣٧) لفظة، ودراسة مجموعةٍ ملحقة بأسماء عربية للمنزل وملحقاته ما زالت تستعمل في بلادنا في العصر الحاضر، وبلغ عددها (٤٥) لفظة، وقد تمَّ تنضيد ألفاظ المجموعة الأولى بالعربية والإنكليزية والفرنسية، ومازال العمل جاريًا لاستكمال الأسماء العربية للمنزل وملحقاته.

– المقترحات:

أ– الشروع بدراسة ألفاظ «المهن والحِرف» التي أعدت بطاقاتها السيدة ناهدة تقي الدين، فور الانتهاء من الباب السابق.

الشروع بإعداد بطاقات ألفاظ «**الأطعمة والأشربة**»، وألفاظ «**وسائط النقل**»، وأسماء الأماكن وذلك من قبل موظفي المجمع أو بتكليف مأجور من قبل آخرين، على أن ينجز هذا الإعداد في نهاية شهر حزيران ٢٠٠٨.

هذا ويمكن للجنة إنجاز هذه الفصول الثلاثة الجديدة (**الملابس والمنزل والمهن والحرف**) في نهاية عام ٢٠٠٨ إذا عقدت اللجنة (٥٠) جلسة في هذا العام، ودرست في كل جلسة (٢٠) مصطلحاً، فيُصار إلى طبع القسم الأول من المعجم «**مصطلحات الحياة اليومية**» مشتملاً على ثلاثة فصول.

٨– لجنة مصطلحات العلوم الطبيعية والزراعية

عقدت اللجنة خلال عام ٢٠٠٧ جلستين تم فيهما:

اتخاذ قرار أن يقوم العمل في اللجان المتخصصة على القواعد التالية:

أن يقتصر عمل اللجان الفرعية على وضع المصطلح المعرب المفضل لكل مصطلح أجنبي، وعدم وضع التعريف في الوقت الحالي، وبعد الانتهاء من هذه المرحلة يستكمل المشروع بوضع التعريف والجذر، على أن يوحد المنهج المتبع في تعريف المصطلحات في لجان الاختصاص المختلفة، وأن يعتمد الإيجاز وعدم الإسهاب، لنفي أي التباس.

ويساعد اللجنة في عملها الخبراء السادة: الدكتور محمد أبو حرب، الدكتور أنور الخطيب، الدكتور ميخائيل معطي، الدكتور هشام قطنا.

٩– لجنة مصطلحات العلوم الرياضية والمعلوماتية والفيزيائية والكيمائية:

عقدت اللجنة في هذه الدورة ست جلسات قامت فيها بما يلي:

١– إنجاز المرحلة الثانية من مشروع توحيد مصطلحات الفيزياء بين الجامعات السورية، وإصدار معجم مصطلحات العلوم الفيزيائية الثلاثي اللغات (يتضمن المصطلحات الفيزيائية باللغات

العربية والإنكليزية والفرنسية) وإضافة الأصل اليوناني أو اللاتيني لبعض المصطلحات ومسردين: عربي – إنكليزي، وفرنسي – إنكليزي. وقد وزع

المعجم على أساتذة الجامعات في أقسام الفيزياء للنظر فيه وإرسال ملاحظاتهم واقتراحاتهم إلى اللجنة قبل الانتهاء من إعداد المعجم بصورته النهائية.

٢- الشروع في المرحلة الثالثة من مشروع توحيد مصطلحات الفيزياء بين الجامعات السورية وهي إصدار نسخةٍ منقحة من المعجم مع تعريفاتٍ موجزة لمصطلحاته وبعض الرسوم التوضيحية.

ويساعد اللجنة في عملها الخبراء السادة: الدكتور وفائي حقي، الدكتور عبد الحليم منصور، الدكتور أحمد حاج سعيد، الدكتورة هيفاء العظمة، الدكتور محيي الدين جمعة، الدكتور أحمد الحصري، الدكتور محمد بن سليم قعقع، الأستاذ أنطون مارين، الدكتور بسام معصراني.

١٠- لجنة أعمال أعضاء المجمع المؤسسين (في العقد الأول من تأسيسه):

عقدت اللجنة في هذه الدورة ست جلسات تمّ فيها ما يلي:

اعتمدت اللجنة قرار المجلس الذي جعل الأعضاء المؤسسين هم الأعضاء الذين دخلوا المجمع ما بين تاريخ تأسيسه ونهاية عام ١٩٣٠.

١- التزود من مكتبة المجمع ودار الكتب الظاهرية بالوثائق الهامة التي تتناول أعمال الأعضاء المؤسسين منذ تاريخ دخول كل منهم المجمع.

٢- ترتيب تسلسل أسماء أعضاء المجمع حسب تاريخ دخولهم.

٣- تحديد نوع عضوية كل عضو من أعضاء المجمع (عامل، مراسل، شرف، مضموم).

٤- الشروع في دراسة أجزاء مجلة المجمع لتحقيق ما يلي:

أولاً: أن يؤرخ لكل عضو عامل من الأعضاء المؤسسين.

فتجمع آثارهم إلى حين وفاتهم على أن يكون ذلك في مرحلتين:

أ- جمع آثارهم المتوفرة في مكتبتي المجمع والظاهرية.

ب- جمع ما يتيسر من آثارهم الأخرى من مراجع أخرى.

ثانيًا: أن تعد فهارس بعناوين مطبوعات ومقالات ومحاضرات كل عضو لإعادة نشرها في كتيبات مستقلة خاصة.

وقد أنجزت اللجنة دراسة آثار كل من الاستاذ محمد كرد علي والشيخ محمد بهجة البيطار.

١١- لجنة مصطلحات العلوم الجيولوجية:

مازالت اللجنة تعمل في مصطلحات الحرف (A) ولم ينجز منه إلا نصف العمل.

ويساعد اللجنة في عملها الخبراء السادة: الدكتور فؤاد العجل، الدكتور ميخائيل معطي، الدكتور غالب سيدا، الدكتور جمال أبو ديب، الدكتور برهان عطائي.

١٢- لجنة مصطلحات العلوم الزراعية:

اجتمعت لجنة مصطلحات العلوم الزراعية خلال العام ٢٠٠٧ أحد عشر اجتماعًا وقد ناقشت خلالها /٢٦٠/مصطلحًا ضمن الحرف (A) من قسم الإنتاج النباتي.

ويساعد اللجنة في عملها الخبراء السادة: الدكتور هشام قطنا، الدكتور نزار حمد، الدكتور محمود الأشرم، الدكتور أسامة العوا، الدكتور فلاح أبو نقطة.

١٣- لجنة علوم الإحياء الحيوانية:

تابعت اللجنة أعمالها في دراسة المصطلحات وإيجاد المقابل العربي لها من أجل توحيدها في الجامعات السورية، فاجتمعت عشرين اجتماعًا في هذه الدورة وقد قاربت على الانتهاء من المصطلحات الواردة في الحرف (A) .

ويساعد اللجنة في عملها الخبراء السادة: الدكتور محمد أبو حرب، الدكتور هاني رزق، الدكتور محيي الدين عيسى، الدكتور زياد القطب، الدكتور حسن خاروف.

١٤– لجنة مصطلحات علوم الأحياء النباتية:

بلغ عدد جلسات اللجنة خلال عام ٢٠٠٧ عشر جلسات تم فيها:

دراسة مصطلحات علوم الأحياء النباتية التي تبدأ بالحرف (A) ووضع التعريف المناسب لكل منها، ثم رأت اللجنة ضرورة الإسراع في العمل، فقررت – عملاً بالقرار الصادر عن لجنة مصطلحات العلوم الطبيعية والزراعية – تأجيل وضع التعريف المناسب للمصطلح، والاكتفاء بالمصطلح المعرب فقط في المرحلة الحالية على أن يوضع التعريف في مرحلة لاحقة.

ويساعد اللجنة في عملها الخبراء السادة: الدكتور أنور الخطيب، الدكتور عبد الجبار الضحاك، الدكتور غسان عياش، الدكتور وفاء البغدادي، الدكتور يوسف بركودة

رابعًا – مؤتمر المجمع

١) «لغة الطفل والواقع المعاصر»

برعاية كريمة من السيد الرئيس بشار الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية، بدأت أعمال المؤتمر السادس لمجمع اللغة العربية بدمشق، بحفل أقيم في الساعة الحادية عشرة من يوم الاثنين الواقع في ٢٠٠٧/١١/٥م في قاعة المحاضرات بمكتبة الأسد، بحضور عدد من الوزراء والسفراء، وجمهرة كبيرة من الباحثين والمثقفين. وقد ألقيت في حفل الافتتاح الكلمات التالية:

١- كلمة ممثل السيد رئيس الجمهورية راعي المؤتمر، ألقاها نيابة عنه السيد وزير التربية الدكتور علي سعد.

٢- كلمة مجمع اللغة العربية بدمشق، ألقاها الأستاذ الدكتور مروان المحاسني نائب رئيس المجمع.

٣- كلمة ممثل الأساتذة الباحثين المشاركين في المؤتمر، ألقاها الأستاذ الدكتور عبد اللطيف عبيد، الأستاذ في المعهد العالي للغات بتونس، والعضو المراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق، ونائب رئيس اتحاد المترجمين العرب.

وقد تضمنت هذه الكلمات بيان أهمية اللغة العربية الفصيحة، وضرورة الاهتمام بإكسابها الطفل العربي، لتدرج على لسانه سائغة ويأنس بألفاظها وعباراتها ،ويألف أصواتها وقواعدها، فيشب على محبتها واستعمالها، وتكون وسيلته إلى حسن التعلم، ودخول عالم المعرفة في هذا العصر الحافل بالتغيرات. ومع اكتسابه لغته هذه ينمو شعوره الوطني والقومي والإنساني.

ثم ألقى الأستاذ الدكتور أحمد مطلوب، رئيس المجمع العلمي العراقي المحاضرة الافتتاحية بعنوان «لغة الطفل» فكانت بحثًا جامعًا.

وفي الساعة الخامسة مساءً من اليوم ذاته ،عقدت الجلسة الأولى في قاعة المحاضرات في مجمع اللغة العربية وموضوعها: المحور الأول من محاور المؤتمر وهو «التواصل اللغوي في العملية التربوية» برئاسة الأستاذ الدكتور محمود السيد، نيابة عن الدكتور عبد السلام المسدي لتأخر وصوله، وكان الأستاذ مروان البواب مقررًا لها.

وقد ألقيت في هذه الجلسة أربعة بحوث هي:

- البحث الأول: مؤثرات في اكتساب لغة الطفل: الأسرة والمدرسة والمجتمع، ألقاه الأستاذ الدكتور عبد النبي اصطيف (سورية).
- البحث الثاني: الرصيد اللغوي للطفل العربي، وأهمية الاهتمام بمدى استجابته لحاجاته في العصر الحاضر، ألقاه الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح (رئيس مجمع اللغة العربية في الجزائر).
- البحث الثالث: الرصيد اللغوي العربي الأساسي بين الوضع اللغوي والتوظيف التربوي، ألقاه الأستاذ الدكتور عبد اللطيف عبيد (تونس).
- البحث الرابع: المكتبات المدرسية ومعارض الكتب الخاصة بالأطفال، قدمته الأستاذة ليلى محمد (سورية).
- وفي الساعة العاشرة من يوم الثلاثاء، عقدت الجلسة الثانية وموضوعها: المحور الثاني من محاور المؤتمر وهو «لغة الطفل وتقانات العصر» برئاسة الأستاذ الدكتور موفق دعبول، وكان الأستاذ الدكتور عبد الإله نبهان مقررًا لها.
- وقد ألقيت في هذه الجلسة ثلاثة بحوث هي التالية:

- البحث الأول: اللغة العربية وتنمية القدرات الذهنية والإبداعية لدى الطفل: رؤية معلوماتية، ألقاه الأستاذ الدكتور نبيل علي (مصر).
- البحث الثاني: الألعاب التعليمية: الواقع والتطلعات، ألقاه الأستاذ مروان البواب (سورية).
- البحث الثالث: الحاسوب وتنمية المقدرة اللغوية عند الطفل، ألقاه الأستاذ الدكتور أحمد زياد محبك (سورية).
- وفي الساعة الخامسة من مساء اليوم ذاته، عقدت الجلسة الثالثة وموضوعها المحور الثالث من محاور المؤتمر وهو: «أثر الإعلام في لغة الطفل» برئاسة الأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر، وكان الأستاذ الدكتور علي أبو زيد مقررًا لها.
- وقد ألقيت في هذه الجلسة ثلاثة بحوث هي التالية:
- البحث الأول: البرامج التلفزية الموجهة للأطفال وأثرها في لغتهم، ألقاه الأستاذ الدكتور سعد الكردي (سورية).
- البحث الثاني: أثر أغاني الأطفال في تكوين لغة الطفل، ألقته الأستاذة الدكتورة عائشة عهد حوري (سورية).
- البحث الثالث: تطلعات حول لغة للأطفال في مجلاتهم، ألقاه الأستاذ الدكتور عبد الإله نبهان (سورية).
- وفي الساعة العاشرة من يوم الأربعاء، عقدت الجلسة الرابعة وموضوعها المحور الرابع من محاور المؤتمر وهو: «طرائق وتجارب لغوية رائدة في عالم الطفولة» برئاسة الأستاذ الدكتور أحمد مطلوب، وكان الأستاذ الدكتور محمود الربداوي مقررًا لها.
- وقد ألقيت في هذه الجلسة أربعة بحوث هي التالية:

- البحث الأول: طرائق تعليم اللغة للأطفال، ألقاه الأستاذ الدكتور محمود السيد (سورية).
- البحث الثاني: الطفل واكتساب اللغة بين النظرية والتطبيق، ألقاه الأستاذ الدكتور علي القاسمي (العراق – المغرب).
- البحث الثالث: نظرية تعليم اللغة العربية بالفطرة والممارسة: تطبيقاتها وانتشارها، ألقاه الأستاذ الدكتور عبد الله الدنّان (فلسطين – سورية).
- البحث الرابع: لغة الطفل في البرنامج التربوي التلفزي (افتح ياسمسم)، ألقاه الأستاذ ياسر المالح (سورية).
- وقد تلت كل جلسة من هذه الجلسات الأربع مناقشة لما عرض فيها من أفكار وشروح، واشترك في المناقشة عدد من أعضاء المجمع والباحثين والمشاركين في المؤتمر والسادة الحضور.
- وقد أدلى المناقشون بآرائهم وملاحظاتهم بشأن البحوث المقدمة ، وأجاب الباحثون عما وجه إليهم من أسئلة واستفسارات، فكان في ذلك كله غنىً لموضوع المؤتمر، ووضوحٌ لمسألة اكتساب الطفل اللغة العربية الفصيحة بتعاون متواصل بين الأسرة والمدرسة والإعلام والمجتمع عامة، وفي ذلك إبعادٌ للأطفال عن العاميات المتعددة في الوطن العربي، التي تزاحم الفصيحة وتسيء إلى اللسان العربي.

● وقد عقدت لجنة صياغة التقرير العام عدة اجتماعات ،بغية استخلاص توصياتٍ مفيدة من البحوث التي ألقيت والمناقشات التي جرت، فأجمعت على التوصيات التالية بعد أن لاحظت ما يلي:

١- إن استعمال العاميات الذي ترسّخ مع الزمن في جميع الأقطار العربية، أوجد ازدواجية مربكة ،صارت عقبة في طريق استعمال لغتنا القومية الفصيحة استعمالاً شاملاً.

٢- إن العناية بلغة الطفل العربي وتنشئته على استعمال اللغة الفصيحة، هما السبيل إلى إيجاد أجيال تمتلك اللغة السليمة والثقافة الواسعة، والقدرة على الإبداع في وقت واحد.

٣- إن تعدد الأقطار العربية وظروفها المختلفة، قد عاق تحقيق الغرض، وهذا ما يستدعي وضع خطة لغوية شاملة والسهر على تحقيقها.

٤- إن استعمال تقانات المعلومات والاتصالات الحديثة يساعد على تنمية لغة الطفل، إضافة إلى أن هذا الاستعمال ضرورة يقتضيها العصر.

٥- إن النهوض باللغة العربية يترافق مع نهوض الأمة، ويساعدها في سعيها للإصلاح الاقتصادي، وتحقيق التقدم الاجتماعي والعلمي والثقافي.

التوصيات

الأسرة

١- بذْل الوالدين، ولاسيما الأم، الاهتمام الكبير بلغة الطفل في السنوات الست الأولى من عمره، إذ تتضافر الطبيعة مع التنشئة على صقل عقل الطفل وتنمية قدرته الذهنية وطاقته الإبداعية. ولابد من الإشارة إلى ضرورة مضاعفة الجهد لمحو الأمية وتعليم الكبار كيما يستطيع الوالدان أداء واجبهما نحو الطفل.

٢- أن يسعى الوالدان لإسماع الطفل اللغة العربية السليمة ليأنس بأصواتها ويألف ألفاظها وهذا ما يمكِّنه بعدئذٍ من إتقان اللغة الفصيحة.

٣- وضع دراسة عن الألفاظ التي يحسُن أن يستعملها الطفل ضمن الأسرة، وفي المرحلة التحضيرية ومرحلة التعليم الأساسي، بالاستعانة بالرصيد اللغوي للطفل العربي الذي وضعته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

المدرسة

١- رفع مستوى اللغة العربية من حيث الأداء والمضمون، وذلك بتحسين طرائق التعليم واستعمال التقانات التربوية.

٢- إلزام معلمي اللغة العربية التكلمَ بالعربية الفصيحة في داخل الصف وخارجه، بأسلوب سهل محبب إلى نفوس الطلاب وبعيد عن الغموض والتقعر.

٣- استعمال معلمي المواد الدراسية المختلفة اللغةَ الفصيحة في أثناء تدريس موادهم، وهذا ما يساعد التلاميذ على فهم لغتهم الأم وإتقانها والاعتزاز بها، مع ذلك يجب على المعلمين أن يبذلوا جهودهم ويقوموا بواجبهم

في التغلب على الصعوبات المتمثلة في كثرة عدد التلاميذ في الصف الذي يعوق العملية التربوية والتعليمية بكمالها.

٤– ألا يكون تدريس اللغة الأجنبية في مرحلة التعليم الأساسي على حساب اللغة العربية أو منافسًا لها.

٥– الاهتمام بإعداد المعلمين في جميع مراحل التعليم، إعدادًا لغويًا كافيًا يمكِّنهم من إلقاء دروسهم بلغة عربية سليمة، وبرعاية هؤلاء المعلمين ماديًا ومعنويًا.

٦– التقيد في رياض الأطفال والمدارس، بالعربية الصحيحة أداةً للتواصل بين المعلمين والتلاميذ، وتواصل التلاميذ بعضهم مع بعض، لتصبح هذه اللغة عادة.

٧– تطوير المناهج التعليمية والكتب المدرسية ،وجعلها تتلاءم مع المستوى العمري لكل مرحلة، من حيث السهولة والصعوبة، لتكون دعامة لتقوية اللغة الفصيحة لدى المتعلمين.

٨– العناية بالكتب التدريسية مضمونًا ولغةً، مع استعمال الصور والألوان وحسن الطباعة والإخراج ليكون الكتاب مُشوِّقًا للطالب.

٩– العناية بأساليب التقويم والتركيز على قياس المهارات العقلية العليا من فهم واستقراء واستنتاج ومقارنة وتعليل ونقد.

المكتبة المدرسية

١– ينبغي أن تشتمل كل مدرسة من مدارس التعليم الأساسي (الابتدائي والإعدادي) على مكتبة تتمتع بشروط حسنة، من حيث البناء والمحتويات والأدوات،كيما تستطيع أداء مهمتها في إتاحة الفرصة للتلاميذ للتعلم. وينبغي أيضًا:

٢– ربط المكتبة بالمناهج التعليمية في المدارس المذكورة ،كيما تكون المكتبة مساندة للمناهج التعليمية، ومكانًا مكملاً للصف لإتقان العربية واكتساب العلم والثقافة.

٣- تزويد هذه المكتبات بالكتب ،الملائمة لأعمار التلاميذ ومستواهم المعرفي، وبالمصورات والمعجمات والموسوعات والمجلات والدوريات والأشرطة المسجلة.

٤- قيام المعلمين بتشجيع التلاميذ على دخول المكتبة والإفادة منها كيما تصبح القراءة والمطالعة الواعية عادة متأصلة لدى الأطفال، مع الاهتمام بالمناشط اللاصفية (الإذاعة المدرسية ،مجلات الحائط ...).

٥- ممارسة أمين المكتبة دوره على الوجه المطلوب، فلا يكون مسجلاً لمحتويات المكتبة وحافظًا لمحتوياتها فحسب، بل يكون مرشدًا للتلاميذ في انتقاء ما يقرؤون وفقًا لاستعداداتهم.

٦- إقامة معارض لكتب الأطفال ومسابقات لهم في الإلقاء والخط، بغية حثِّهم على ممارسة الكلام بفصاحة دون وَجَل، والكتابة بخط واضح سليم.

المعجمات

١- العناية بوضع معجمات للأطفال والتلاميذ ترشدهم إلى الألفاظ الفصيحة ومعانيها مع تدريبهم على استعمالها.

٢- جعل هذه المعجمات مصورة، لأن الصورة تقرب اللفظ من الفهم فتكون المعجمات إذَّاك أداة تعليمية وتثقيفية ممتازة.

٣- الاهتمام بالمعجمات المرئية التي تتجاوز حدود المعجمات الورقية وتجمع بين التعليم والإمتاع.

المجلات

العناية بإصدار مجلات خاصة بالأطفال تتمتع بالشروط التالية:

أ- أن يُكتب ما تتضمنه المجلة من نثر وشعر بلغة عربية سليمة مصوغة بألفاظ فصيحة وتراكيب سهلة، تتلاءم مع المستوى العمري للأطفال.

ب- أن تجمع المجلة بين الفائدة اللغوية والثقافية، وبين المتعة والتسلية. ولذا لابد من أن تعتمد المجلة على أدباء وشعراء يحسنون الكتابة للطفل، ويكونون على دراية بما يلائمه وبما يحبه. ويمكن أن تتضمن المجلة سِيَر الأبطال والعلماء والأدباء والشعراء والمبدعين العرب ،والمبدعين عامة في العالم لغَرْس الوطنية والقومية والروح الإنسانية في نفوس التلاميذ.

ج- يحسُن استعمال الصور في هذه المجلات، مع الانتباه إلى تحقيق التوازن بين النص اللغوي والصورة، فلا يطغى أحدهما على الآخر.

الأغاني

تُعَدُّ الأغنية من الوسائل المفيدة في إكساب الطفل اللغةَ العربية السليمة ويتطلب ذلك:

١- الحرص على أن تكون أغاني الأطفال في مضمونها ولغتها ملائمة للقيم الأخلاقية في المجتمع العربي.

٢- إقامة مسابقات ومهرجانات محلية وعربية، وعروض مسرحية لرفع مستوى الأغاني الخاصة بالأطفال.

٣- إجراء بحوث تحليلية للأغاني التي أعدت للأطفال في العقود الأخيرة، لمعرفة مواطن الإجادة لمتابعتها، ومواضع الضعف لتجنبها.

البرامج التلفزية

١- الاهتمام بإنتاج البرامج التلفزية المعدَّة للأطفال، لتحسين أدائهم اللغوي وتنمية ثقافتهم.

٢- وضع هذه البرامج على أساس تخطيط محكم. ويشترك في إنتاجها خبراء لغويون وأدباء ورجال علم ومُخرِجون أكفياء، للوصول إلى نص جيد يمنح التلامذة الفائدة والمتعة معًا. وفي ذلك أمثلة سابقة ناجحة.

٣- إجراء بحوث تربوية تقويمية لهذه البرامج بغية تقويمها والرقي بها.

الألعاب الحاسوبية

١- توفير الفرصة للأطفال لاستعمال الألعاب التعليمية في جميع مجالات التعليم ،ومنها تعليم اللغات وخاصة اللغة العربية.

٢- زيادة عدد مواقع الألعاب الحاسوبية التعليمية، ولاسيما ما يتعلق منها بتعليم اللغة العربية.

٣- أن يراعى في هذه الألعاب أن تكون متوافقة مع سن التلميذ، وذات صلة بالموضوعات التي يشتمل عليها الكتاب التعليمي.

٤- تشجيع البرمجيات الحاسوبية العربية والألعاب التعليمية في مجال اللغة العربية.

التوصيات العامة

الطلب من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ما يلي:

أولاً- وضع خطة شاملة لثقافة الطفل ولغته، استكمالاً لما ورد في الخطة الشاملة للثقافة العربية الصادرة في طبعتها الثانية عام ١٩٩٦ والتي تَعُدُّ الطفل عماد الأجيال القادمة وثروتها.

ثانيًا- وضع كتاب نموذجي للتلاميذ في الصف الأول الابتدائي (أول صف في الحلقة الأولى من التعليم الأساسي) بلغة فصيحة مستساغة بعيدة عن العاميات جميعها، ليكون كتابًا واحدًا وموحدًا في جميع الأقطار العربية، ثم إتباعه بكتاب للصف الثاني وهكذا تدرجًا، لتكون اللغة العربية السليمة رابطة لغوية وجامعًا قوميًا للعرب على اختلاف أقطارهم.

تخصيص أسبوع قومي للغة العربية في شهر آذار (مارس) من كل سنة، تعتمده الجامعة العربية وأجهزتها المختصة ووزارات التربية والتعليم والثقافة والإعلام والشباب ومنظمات المجتمع الأهلي.

حث الدول العربية التي لم توقع بعد على اتفاقية حقوق الطفل، التي أقرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٨٩ على توقيعها، والشروع في إصدار التشريعات اللازمة لتنفيذها. كذلك الطلب من هذه الدول تنفيذ خطة العمل التي أقرها «الإعلان العالمي لحفظ بقاء الطفل وحمايته وبنائه» سنة ١٩٩٠ والاتفاق على صيغة موحدة لحقوق الطفل العربي.

الاحتفال باليوم العالمي للغة الأم (٢١ شباط من كل سنة) يخصص للتمكين للغة الأم – اللغة العربية الفصيحة –.

زيادة الاهتمام بالبحث في مجال تطوير تعليم اللغة العربية وتعلمها.

خامسًا – دار الكتب الظاهرية

مازال العمل متوقفًا في المكتبة الظاهرية بسبب القيام بأعمال الترميم فيها. وقد نقلت كتبها إلى المدرسة العادلية ريثما تنتهي أعمال الترميم وتزود مستودعاتها بالخزائن الحديثة.

وتستقبل قاعة الباحثين في المدرسة العادلية السادة المطالعين أيام الدوام الرسمي وتزودهم بالكتب التي يطلبونها في بحوثهم وأعمالهم العلمية.

وقد زودت المكتبة في هذا العام بـ /٢٨٢/ كتابًا باللغة العربية منها /٨٦/ كتابًا شراء والباقي إهداء. و/٦٦/ كتابًا بلغات أجنبية كما زودت بـ /٢١٠/ دوريات عربية و/٩٦/ دورية أجنبية وستستمر أعمال الترميم في الظاهرية حتى نهاية عام ٢٠٠٨.

سادسًا – مكتبة المجمع

زودت مكتبة المجمع في هذا العام بـ /٣٦٨/كتابًا باللغة العربية ودخلها أيضًا /٣٠/ كتابًا باللغات الأجنبية وزودت بـ /٨٠/ دورية عربية و /٣٥/ دورية أجنبية.

سابعًا – محاضرات المجمع ومشاركاته

أ – المحاضرات والحفلات

أقام المجمع مساء الأربعاء ٢٨/شباط ٢٠٠٧ في قاعة محاضراته ندوة علمية بعنوان «علم الجينات المعاصر» شارك فيها السادة الأساتذة الدكتور مروان المحاسني نائب رئيس المجمع والدكتور محيي الدين عيسى والدكتور أنور الخطيب والدكتور هاني رزق. وقد حضرها عدد من الأطباء المختصين بموضوع الندوة ولفيف من العلماء والمهتمين بأمور الثقافة الطبية.

كما أقام المجمع مساء الأربعاء ٢٠٠٧/٤/١٨ في قاعة محاضراته أيضًا محاضرة للأستاذ الدكتور إحسان النص بعنوان «الأساطير في شعرنا العربي القديم» حضرها عدد كبير من العلماء والأدباء وأعضاء المجمع والعاملين فيه ونخبة من المثقفين والمهتمين بأعمال المجمع ونشاطاته الثقافية.

وأقام المجمع بالتعاون مع جامعة دمشق حفلاً تأبينيًا لفقيد المجمع الأستاذ الدكتور محمد عبد الرزاق قدورة في مكتبة الأسد الوطنية وذلك مساء الأربعاء ٧ تشرين الثاني ٢٠٠٧.

وكان الفقيد قد انتقل إلى جوار ربه بتاريخ ٢٠٠٧/٧/٢٩.

وألقيت في حفل التأبين كلمة جامعة دمشق ألقاها الدكتور وائل معلا، رئيس الجامعة وكلمة المجمع ألقاها الدكتور مروان المحاسني، نائب رئيس المجمع،

وكلمة أصدقاء الفقيد ألقاها الدكتور عبد الله واثق شهيد، أمين المجمع، وكلمة أهل الفقيد ألقاها الأستاذ عبد القادر قدورة.

ب– المشاركات

شارك الدكتور شاكر الفحام، رئيس المجمع والدكتور إحسان النص، والدكتور محمود السيد عضوا المجمع في مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته الثالثة والسبعين وحضروا الحفل الماسي لمجمع القاهرة واجتماع هيئة المعجم التاريخي في المدة ١٧/آذار حتى الرابع من نيسان ٢٠٠٧.

وعقدت جلسات الحفل الماسي في مبنى الجامعة العربية، ووزعت على الحاضرين هدايا تذكارية وألقيت فيه طائفة من البحوث حول اللغة العربية والمجامع العربية. وقد ألقى الدكتور محمود السيد بحثًا عنوانه «اللغة العربية في مواجهة تحديات العصر».

وشارك الدكتور مروان المحاسني، نائب رئيس المجمع والدكتور موفق دعبول والأستاذ شحادة الخوري في اللقاء السوري التونسي الذي عقد في بيت الحكمة في تونس العاصمة في المدة من ٢٣–٢٥ نيسان ٢٠٠٧، وشارك فيه أيضًا عن الجانب السوري الدكتور نشأت حمارنة العضو المراسل للمجمع. وكان عنوان اللقاء: «ثقافة العلم عند العرب قديمًا وحاضرًا» وألقيت فيه طائفة من البحوث القيمة أحاطت بجوانب الموضوع وأغنت محاوره.

وشارك الأستاذ شحادة الخوري في اجتماع عقد في بيروت يومي ٢و٣ أيار ٢٠٠٧ لدراسة إنشاء مركز للغة العربية في الأمم المتحدة نيابة عن الدكتور عبد الله واثق شهيد، أمين المجمع. وقد بحث في الاجتماع أفضل الطرق لتحسين مصطلحات اللغة العربية المستعملة في وثائق الأمم المتحدة المترجمة إلى اللغة العربية.

وشارك الدكتور مروان المحاسني في اجتماع اتحاد المجامع اللغوية العربية الذي عقد في طرابلس ليبيا بتاريخ ٢٠٠٧/١٠/٢١، وتلا ذلك ندوة علمية بعنوان «صوغ المصطلح العلمي وتوحيده» وقد ألقى الدكتور المحاسني بحثًا عنوانه «العثرات في مسار صوغ المصطلحات».

وشارك الدكتور موفق دعبول في مؤتمر التعريب الحادي عشر الذي عقد في الأردن في المدة من ٢٠٠٧/١١/١-١٠/٢٨ وعنوانه «ثورة الاتصال والتكنولوجيا في خدمة المصطلح العربي».

وشارك الدكتور مروان المحاسني، نائب رئيس المجمع في عدد من اجتماعات الشبكة الوطنية لمؤسسة آنا ليند للحوار بين الحضارات، وكانت وزارة الخارجية قد كلفت المجمع تنسيقَ نشاطات هذه المؤسسة واختار المجمع الدكتور المحاسني للإشراف على هذا التنسيق.

فقد حضر الدكتور المحاسني الاجتماع الأول للشبكة في قاعة المحاضرات التابعة للجمعية العلمية السورية المعلوماتية مساء الخميس ٢٠٠٧/١/٢٥ بحضور عدد كبير من ممثلي المجتمع المدني والمهتمين بالشؤون الثقافية.

وشارك الدكتور المحاسني في اجتماع عقدته المؤسسة في برلين في المدة من ٢٨/أيار إلى الأول من حزيران ٢٠٠٧ وتمَّ في الاجتماع الذي ضم خمسًا وثلاثين شبكة وطنية انتخابُ لجنة لتقديم مقترحات الأعضاء إلى هيئة السفراء، وكان الدكتور المحاسني أحد أعضائها.

كما شارك الدكتور المحاسني في افتتاح ورشة عمل حول أدب الأطفال في سورية جرى يوم الخميس ٢٠٠٧/١١/١٥ في مقر المنتدى الاجتماعي

بدمشق وترعى هذا البرنامج وتموله مؤسسة آنا ليند في خمس دول عربية هي مصر وسورية والأردن ولبنان وفلسطين.

وشارك الدكتور المحاسني في اجتماع منسقي الشبكات الوطنية في مؤسسة آنا ليند الذي عقد في القاهرة في المدة من ٢٥/ إلى ٢٠٠٧/١١/٢٨ لدراسة أوضاع الشبكات تمهيدًا لعرض نشاطاتها على المجلس الاستشاري للشراكة الأوربية المتوسطية.

ثامنًا – موازنة المجمع

أ– الموازنة الجارية

بلغ الاعتماد الكلي للموازنة الجارية في عام ٢٠٠٧ (٢٦.٨٣٠.٠٠٠) ل.س ستة وعشرين مليونًا وثمانمئة وثلاثين ألف ليرة سورية.

ومجموع ما أنفق منها في عام ٢٠٠٧ (٢٤.٥٩٢.٠٥٨) ل.س أربعة وعشرون مليونًا وخمسمئة واثنان وتسعون ألفًا وثمان وخمسون ليرة سورية

وبلغت نسبة الإنفاق في هذه الموازنة ٩١.٦ %.

ب– الموازنة الاستثمارية

بلغ الاعتماد الكلي للموازنة الاستثمارية في عام ٢٠٠٧ (٢٠.٠٠٠.٠٠٠) ل.س عشرين مليون ليرة سورية.

وقد جرت مناقلة تخفيض في هذه الموازنة قيمته (٩٩٩١٠٠٠) ل.س تسعة ملايين وتسعمئة وواحد وتسعون ألف ليرة سورية. فبقي الرصيد (١٠.٠٠٩.٠٠٠) ل.س عشرة ملاين وتسعة آلاف ليرة سورية.

وبلغ مجموع ما أنفق منها في عام ٢٠٠٧ (٣.٤٢٤.٨٩٤) ل.س، ثلاثة ملايين وأربعمئة وأربعة وعشرين ألفًا وثمانمئة وأربع وتسعين ليرة سورية.

وبلغت نسبة الإنفاق فيها ٣٤.٢ %

ومجموع نسبة الإنفاق في الموازنتين الجارية والاستثمارية ٧٦ %

وكانت نسبة الإنفاق متدنية في الموازنة الاستثمارية فقط، بسبب توقف مشروع ترميم المدرسة الظاهرية مدة ٦ أشهر بسبب تسرب المياه، من العقارات المجاورة، باتجاه المدرسة.

الملحق /١/

الأستاذ الدكتور شاكر الفحام الموقر

رئيس المجمع

بعد التحية

لقد اجتمعت اللجنة التي شكلها مجلس المجمع للنظر في مشاركة مجمع اللغة العربية في برنامج «دمشق عاصمة الثقافة العربية» وهي مؤلفة كما يلي:

– الدكتور مروان المحاسني

– الأستاذ جورج صدقني

– الدكتور محمود السيد

ورأت تقديم المقترحات التالية:

١– إنجاز عدد من مجلدات تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر وتأكيد ضرورة إتمام ذلك قبل الشهر السابع من عام ٢٠٠٨ حتى يتسنى إدخال نفقاتها في برنامج دمشق عاصمة الثقافة العربية.

٢– إصدار كتاب يتضمن منتخبات من الشعر الذي يبرز أهمية دمشق ثقافيًا وتاريخيًا.

٣– إصدار كتاب يتضمن منتخبات من شعراء تغنوا باللغة العربية.

٤– إصدار كتيبات يختص كل منها بأعمال المجمعيين الأوائل الأساتذة: شفيق جبري، خليل مردم بك، بدوي الجبل، عز الدين التنوخي، أمجد طرابلسي، جميل صليبا.

٥– إصدار عدد من مأثورات المجمعيين الأوائل في ميادين اللغة العربية.

٦- إقامة ندوة في المجمع تبرز أهمية تاريخ ابن عساكر.

٧- إحداث جائزتين، الأولى في خدمة اللغة العربية باسم محمد كرد علي والثانية في وضع المصطلح باسم مصطفى الشهابي.

أرجو التكرم بعرض الأمر على مكتب المجمع في اجتماعه المقبل.

/ /١٤٢٨هـ

/ /٢٠٠٧م **الدكتور مروان المحاسني**

نائب رئيس المجمع

الملحق /٢/

جائزتا المصطلح وخدمة اللغة العربية

يعلن مجمع اللغة العربية بدمشق فتح باب الترشيح لنيل جائزتي محمد كرد علي لخدمة اللغة العربية، والأمير مصطفى الشهابي لوضع المصطلح ضمن الشروط التالية:

١- أن يكون المتقدّم لنيل الجائزة عربيًّا سوريًّا، أو من في حكمه.

٢- أن يقدم كتابًا على الأقل، تأليفًا أو تحقيقًا أو ترجمة، يتصل بعلوم اللغة العربية، لنيل جائزة خدمة اللغة العربية، وكتابًا أو أكثر في وضع المصطلحات، لنيل جائزة المصطلح.

٣- ألا تزيد مدة نشر الأعمال المقدمة للجائزتين على خمس سنوات.

٤- أن تكون الأعمال المقدَّمة مطبوعة ومنشورة، أو منضدةً على قرص حاسوبي.

٥- ترسل ثلاث نسخ ورقية من الأعمال المنشورة، وقرص حاسوبيّ من الأعمال المنضَّدة غير المنشورة، مع السيرة الذاتية .

٦- لا يجوز أن يشترك المتقدِّم للجائزة بأعمال نال بها جائزة أخرى من جامعة أو هيئة علمية أو مؤسسة عامة أو خاصة.

٧- لا يجوز الاشتراك بكتب مقرَّرة في مناهج المؤسسات التعليمية.

٨- لا تعاد الأعمال المقدّمة لنيل الجائزتين إلى أصحابها، بل تُعدُّ هدية مقدَّمة منهم إلى مكتبة المجمع.

٩- مقدار كل من الجائزتين (١٠٠) مئة ألف ليرة سورية. ويُمكن أن توزَّع كلّ منهما على أكثر من مشترك.

١٠- يحق لأي عضو من أعضاء المجمع أن يُرشِّح أي كتاب لنيل إحدى الجائزتَين.

١١- تنظر لجنة محكَّمة، يُسمِّي أعضاءها مجلس مجمع اللغة العربية، في الأعمال المقدَّمة، وحكمها نهائي، يعتمده المجلس، ولايقبل الاعتراض.

١٢- للمجمع أن يقرر شراء ما لا يتجاوز خمسين نسخة من كل من الأعمال الثلاثة الأولى في تصنيف اللجنة، وأن يطبع أيًّا منها بموافقة أصحابها، ووفق القواعد المتبعة في المجمع.

١٣- تُوزَّع الجوائز ضمن ندوة ، يحدِّدها المجمع، ويجري فيها التعريف بالأعمال الفائزة.

١٤- ترسل الأعمال المقدَّمة إلى العنوان التالي:

دمشق – مجمع اللغة العربية – المالكي شارع عبد المنعم رياض.

أو دمشق ص.ب (٣٢٧) مجمع اللغة العربية.

ويُذكر اسم الجائزة التي يرغب المشتركُ في التقدم لنيلها.

١٥- آخر موعد لتسلُّم الأعمال المقدّمة لنيل إحدى الجائزتين هو نهاية الدوام الرسمي من يوم الاثنين ٢٠٠٨/٦/٣٠م.

١٤٢٩/٣/٩هـ **رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق**

٢٠٠٨/٣/١٦م **الدكتور شاكر الفحام**

الملحق /٣/

محضر اجتماع اللجنة التشاورية

المنبثقة عن المؤتمر السنوي الخامس

عقدت اللجنة التشاورية الاجتماع المخصص للنظر في توصيات المؤتمر الخامس وتحديد السبل العملية لتنفيذها برئاسة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني نائب رئيس المجمع وبحضور الأستاذ جورج صدقني والأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ والأستاذ شحادة الخوري والأستاذ الدكتور موفق دعبول والدكتور عماد صابوني والدكتور نزار الحافظ والمهندس فراس بكور والدكتورة أميمة دكاك والأستاذ مروان البواب. وقد تم في هذا الاجتماع مايلي:

١- رحب الدكتور المحاسني بالسادة الحضور وشكر لهم تفضلهم بقبول دعوة المجمع لحضور هذا الاجتماع.

٢- ذكر الدكتور موفق دعبول ضرورة التركيز على اللغة العربية وبيان السبل العملية التي يجب أن يقوم بها المجمع لتكون اللغة العربية قادرة على دخول عالم المعلوماتية و التقانات الحديثة.

٣- تحدث الأستاذ جورج صدقني عن أهمية هذا الاجتماع منوهًا بأهميةالتعاون بين مجمع اللغة العربية والجهات التي تهتم بالمعلوماتية لتكون التقانات الحديثة في خدمة اللغة العربية، وذكر مثالاً على ذلك علم المصطلح العربي، إذ لابد من جمع المصطلحات العربية من كل الجهات التي تعمل بالمصطلح وتنسيقها ووضعها على الشابكة.

٤- تساءل الدكتور مروان المحاسني عن المهام التي يمكن أن يقوم بها مجمع اللغة العربية ليأخذ دوره الريادي في عالم المعلوماتية، فذكر الدكتور عماد صابوني أنه لابدّ أولاً من جمع اللغويين مع المعلوماتيين ووضع أهداف محددة والعمل على تحقيقها، وأنّه لابدّ من تنسيق الجهود مع المؤسسات الأخرى. وفيما يتعلق بقضية التمويل ذكر الدكتور صابوني أن رجال الأعمال لديهم استعداد لتمويل مثل هذه المشاريع فضلاً عن وجود مؤسسات أخرى مستعدة للدعم والتمويل.

٥- تحدث الأستاذ مروان البواب عن ضرورة تطوير محرك بحث في المدونات العربية، فبيَّن أولاً بكلمة موجزة عن واقع المدونات العربية مشيرًا إلى وجود عدد من هذه المدونات، إلا أنها تعج بالأخطاء فضلاً عن أن محركات البحث فيها غير فعالة، فهي لاتأخذ بالحسبان شكل الكلمات (الحركات) ولاتراعي تتابع الكلمات إنما يكون البحث فيها على مستوى الكلمة فقط.

أما المقترح الذي ذكره الأستاذ البواب لتطوير محرك البحث فهو ذو شقين: شق يتعلق بالمدونات، وشق يتعلق بالمحرك نفسه، أمّا شق المدونات فاقترح أن تضم كل مفردة من مفردات المدونة المعلومات الصرفية المتعلقة بها، وهذه المعلومات لاتظهر في النص المعروض. بل مخبأة فيه يستدعيها محرك البحث للاستفادة منها في عملية بحثه، وهذه المعلومات تكون على مستوى الجذر، ونوع المفردة الصرفي، والوزن الصرفي.

وفيما يتعلق بشق المحرك اقترح بناءه على نحوٍ يكون فيه قادرًا على الاستفادة من المعلومات الصرفية التي وضعت في النص.

وقد اقترح الأستاذ البواب أن يقوم خبير لغوي بوضع المعلومات الصرفية في النصوص مبينًا إمكان الاستعانة بمحلل صرفي لتحليل مفردات النص، وتكون مهمة الخبير اللغوي عندئذٍ تحديد الوجه الصحيح من الأوجه المختلفة التي يعطيها المحلل الصرفي.

كما اقترح الأستاذ البواب أن يعتمد المجمع هذا المقترح ويعمل على تنفيذه.

تحدث الأستاذ المهندس فراس بكور عن ضرورة وجود عربي أوسع على الشابكة، إذ لافائدة لوجود محرك بحث عربي دون المشاركة العربية الواسعة، ذاكرًا أن هذا الوجود العربي غير منتظم على قلته، مقترحًا زيادة المواقع العربية، ومن ثَم زيادة المشتركين العرب على الشابكة.

ذكر الأستاذ شحادة الخوري أن من مهام المجمع حماية اللغة العربية، وتطويرها وتبسيطها لتكون قادرة على مواكبة العلوم الحديثة، وأن السبيل إلى ذلك هو تيسير وضع المصطلح العلمي العربي المناسب، وجمع هذه المصطلحات ونشرها على الشابكة، مبينًا ضرورة توحيد الجهود التي تبذل في ميدان التعريب في كل الدول العربية.

بيّن الدكتور موفق دعبول أهمية جمع المصطلحات ونشرها على الشابكة مؤكدًا ضرورة الإسراع بإنشاء موقع إلكتروني للمجمع ووضع مصطلحاتنا عليه ليطلع عليها الآخرون ويستفيدوا منها، شريطة أن يكون موقعًا جيدًا متجددًا.واقترح أيضًا تأهيل العاملين في المجمع حاسوبيًا والارتقاء بمستواهم المعلوماتي.

رأت الدكتورة أميمة دكاك ضرورة أن يقوم المجمع بدوره الأساسي في شتى المجالات ولاسيما التعليم، وأن يكون مشرفًا على المناهج المعلوماتية الموضوعة

بالعربية، وعلى برامج الأطفال التي تبث بالإذاعة والتلفزة، وأنه لابد من وضع معجم رقمي مدعوم صرفيًا يساعد الطلاب في تحصيلهم الدراسي.

اقترح الدكتور نزار الحافظ إنشاء شبكة مصطلحات علمية مبينًا أن ذلك يجري على مرحلتين:

المرحلة الأولى: إنشاء موقع على الشابكة يسمح للجهات المختصة في سورية(مراكز البحوث، الجامعات، الجمعية المعلوماتية، مجمع اللغة العربية) بوضع المصطلحات العلمية الجديدة التي لدى هذه الجهات، ويشرف على توصيف الموقع كل من الجمعية المعلوماتية (فنيًا) ومجمع اللغة العربية (لغويًا) ويقوم مزود الخدمة في الجمعية باستضافة هذا الموقع وتصميمه ويفترض أن يكون موقع المصطلحات هذا تفاعليًا تشاركيًا، وتنظم حملة إعلامية ترويجية لهذا الموقع.

المرحلة الثانية: تحدد مدة معينة لتزويد الموقع بالمعلومات (٦أشهر مثلاً) وبعد هذه المهلة يُقترح إجراء اتصالات بجهات عربية تعمل في حقل المصطلحات بغية دراسة توحيد هذه المصطلحات.

ثم ختمت اللجنة اجتماعها في الساعة الثانية عشرة على أن تلتئم في موعد آخر يحدد لاحقًا.

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الثالث والثمانين

البحوث والدراسات

إبداع الجاحظ في كتاب البخلاء	د. إحسان النص	٧٥٧
المدرِّس إعدادًا وتأهيلاً	د. محمود السيد	٧٦٩
توظيف الحديث الشريف في البحث النحوي (ق٢)	د. فخر الدين قباوة	٧٩٥
جهود المستشرقين الألمان في دراسة اللهجات العربيّة المحكيّة وتحديات العولمة	د. ظافر يوسف	٨٤٣
أثر أمالي ابن الحاجب في مغني اللبيب مما لم يُصرِّح به ابن هشام	د. عمر مصطفى	٨٦٧

المقالات والآراء

مسالك التراث في النحو والصرف: قراءة ونقد	د. مازن المبارك	٨٩٥
سليمان العيسى والعروبة	د. ملكة أبيض	٩٤٩
تذكرة بأحكام نعت جموع الأسماء	د. محمد مكي الحسني الجزائري	٩٣٥
الأديب المجمعي الكبير عبد الله مخلص	أ. حكمت هلال	٩٣٩
تعقيب على مقال الأستاذ هلال عن عبد الله مخلص	أ. محمود الحسن	٩٤٩
قراءة في كتاب (علم التحقيق للمخطوطات العربية)	أ. أيهم بطحوش	٩٥٩

أنباء مجمعية وثقافية

تأبين الأستاذ الدكتور شاكر الفحام رئيس المجمع	٩٧٣
كلمة الدكتور غياث بركات	٩٧٥
كلمة الدكتور مروان المحاسني	٩٧٧
كلمة الدكتور إحسان النص	٩٨٧
كلمة الأستاذ عبد العزيز البابطين	٩٨٩
كلمة العماد أول مصطفى طلاس	٩٩٣
كلمة الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي	٩٩٧
كلمة الدكتور حسان الطيَّان	١٠٠١
كلمة السيدة مديحة العنبري	١٠٠٧
التقرير السنوي عن أعمال المجمع في عام ٢٠٠٧	١٠١٣
من مطبوعات المجمع	
فهرس الجزء	
فهرس المجلد الثالث والثمانين	